راشد الغنوشي

مقالات

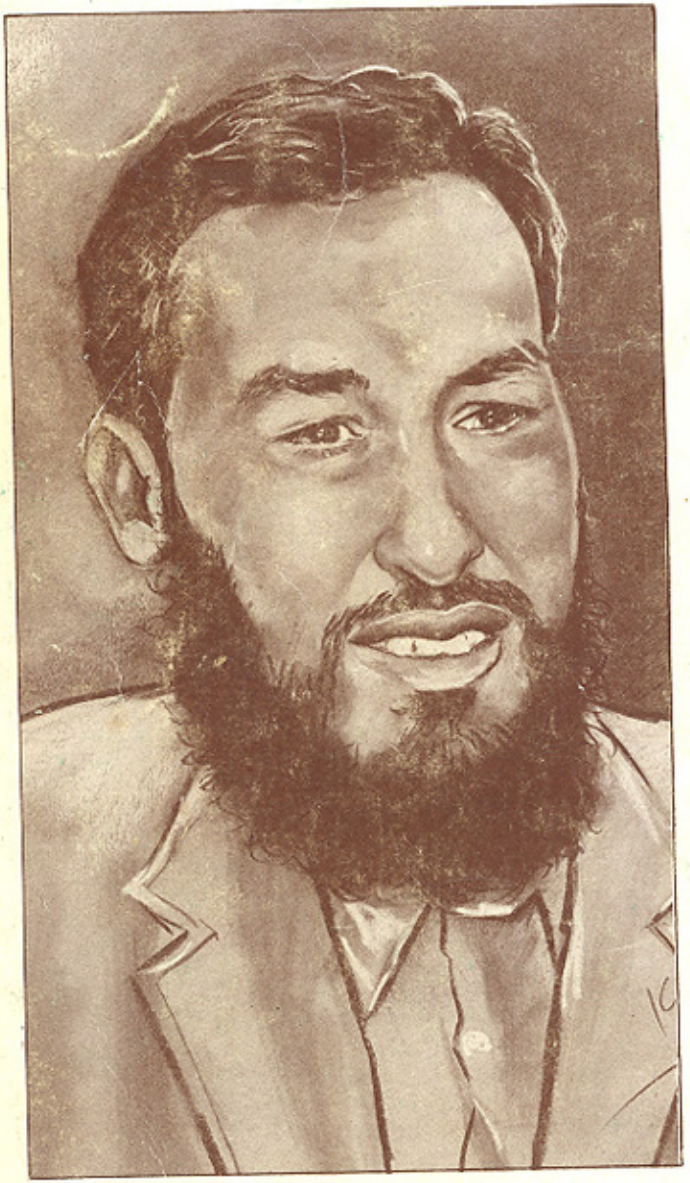

حركة الاتجاه الاسلامي بتونس

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله والصلاة والسلام على رسوله ومن والاه

مرت اليوم سنتان ونصف على اعتقال زعامات ومناضلي حركة الاتجاه الاسلامي وعلى رأسهم الاستاذ راشد الغنوشي. حيث أمر حاكم تونس يوم ١٨ جويلية ١٩٨١ بإيقافهم وإيداعهم السجن. فنظمت محاكمة صورية وصدرت ضدهم أحكام بلغ مجموعها ثلاثة قرون سجنا، كان نصيب الاستاذ راشد منها عشر سنوات، وذلك في نطاق حملة مسعورة على الاسلام ورموزه الحية وأرصدته الفاعلة وسعيا لتصفية حركتنا باعتبارها أعتى خصم سياسي للنظام البورقيبي.

وقد عرفت الحركة خلال هذه الفترة أنواعا شتى من الاضطهاد والعنف فعذب رجالها وسجنوا وأوصدت أمامها الابواب وحجرت عليها المنابر وحرم كثير من أبنائها وبناتها حق الدراسة والشغل وهاهي اليوم تعيش جولة خاصة من الارهاب المعنوي والتعذيب الجسدي على يد جلاوزة هذا النظام الذي بلغ به الافلاس الفكري والسياسي مبلغه وأصبح لا يملك من الحجة غير القوة.

وازاء هذا التصعيد ومحاولات التحريف والتهميش - تحريف الاهداف وتهميش الصراع - حافظت الحركة بعون الله على توازنها وثبتت على منهاجها الاسلامي الاصيل الذي يعتمد أساسا البيان وإقامة الحجة على الناس من أجل أن يصبح الاسلام مطلبا شعبيا وإلى أن يأتي اليوم الذي تقرر فيه الجماهير أن تتطهر من الظلم والفساد وإنه ليوم قريب بمشيئة الله عز وجل.

إننا واثقون في الله، واثقون في أنفسنا وواثقون في الجماهير من حولنا وذلك من خلال شعورنا بالتكريم الالاهي العظيم للانسان: « ولقد كرمنا بني آدم » فما لم يشعر الانسان بكرامته وكرامة غيره فسيتواصل الاستبداد من ناحية وشعور الاسترقاق والعبودية من ناحية أخرى.. وإن الثقة في الناس مهما بلغ فسادهم وانحدارهم هي الخاصية الاساسية لكل حركة تغييرية أصيلة.. ولقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « خصلتان حبيبتان للرحمان: الثقة في الله والثقة في عباده » وفي القرآن الكريم: « إنه لا ييأس من روح الله الا القوم الكافرون ».

ونقدم اليوم بين يدي القارىء هذا الكتاب تكريسا لمنهاجنا الذي يتلخص في هذه المرحلة في « البلاغ المبين والصبر الجميل » وتأكيدا جديدا على أن الصراع هو بالاساس صراع فكري حضاري وأن تغيير الواقع يمر حتما عبر تغيير الأسس الفكرية لهذا الواقع.

وهذا الكتاب هو مجموعة من المقالات صدرت للاستاذ راشد ـ رئيس حركتنا ـ في مجلة المعرفة التونسية وبعض الصحف الاخرى، وتشكل عينات من فكر الرجل ومواقفه.

ولئن كان الاستاذ راشد ـ دوما ـ في تفاعل عضوي مع الحركة يأخذ منها ويعطي، فإن كتاباته هذه تظل تعكس أساسا تجربته الشخصية ـ خاصة وانها كتبت في معظمها والحركة لم تتبلور بعد ـ دون أن تفقد بالطبع قيمتها الوثائقية بالنسبة للحركة ككل، شأنها في ذلك شأن مجلة «المعرفة» التي شغل الأستاذ خطة رئيس تحريرها في مرحلة صدورها الاخيرة والتي لم تكن ناطقا رسميا باسم الحركة وإن كانت تحت تصرفها.

وقد كتبت هذه المقالات في أكثر الاحيان على عجل وفي زحمة الأحداث اليومية، حيث كان الاستاذ في حركة دائبة وانشغال دائم بأمور الدعوة وشؤون الحركة، فكان غالبا يكتب ما يكتب تحت الحاح مدير مجلة «المعرفة» وفي الساعات الأخيرة من الاعداد للطبع دون أن ننسى هاجس الرقابة الذي كان يهيمن على أسرة المعرفة التي تعرضت الى ايقافات عديدة قبل أن تمنع نهائيا من الصدور.

وقد فضلنا الترتيب الزمني لهذه الموضوعات على الترتيب الموضوعي ليسهل على الدّارس متابعة التطور الحاصل في تفكير الرجل ومشاغله وللربط بين محتوى الكتابة والظرف الذي كتبت فيه املين أن يصدر الكتاب في طبعة لاحقة تثبت فيها بعض المقدمات والتعليقات التي قد تكون ضرورية لتكوين صورة أكمل عن المؤلف.

ونظرا لأن صاحب الكتاب يقبع الآن في سجون بورقيبة بسبب أفكاره وانتمائه السياسي وإثر اعلانه مع مجموعة من اخوانه عن تكوين حزب سياسي، رأينا من المفيد أن نقدم الكتاب بالبيان التأسيسي لهذا الحزب (حركة الاتجاه الاسلامي)

وفي الاخير نحي بكل اعتزاز واكبار ووفاء اخواننا المجاهدين في المعتقل والمهجر وعلى ساحة المواجهة والصمود، ونجدد العهد لشعبنا المسلم في تونس والشعوب المستضعفة في العالم على المضي بثبات نحو النصر أو الشهادة إن شاء الله.

نسأل الله السداد، وهو الموفق إلى سواء السبيل لا رب غيره.

حركة الاتجاه الاسلامي بتونس

باريس ـ فيفري ١٩٨٤

البيان التأسيسي لحركة الإتجاه الاسلامي

توطئة:

يشهد العالم الاسلامي - وبلادنا جزء منه - أبشع أنواع الاستلاب والغربة عن ذاته ومصالحه، فمنذ التاريخ الوسيط وأسباب الانحطاط تفعل فعلها في كيان امتنا وتدفع بها الى التخلي عن مهمّة الريادة والاشعاع، طورا لفائدة غرب مستعمر وآخر لصالح أقليات داخلية متحكّمة انفصلت عن اصولها وصادمت مطامح شعوبها.

وكان المستهدف الاوّل طوال هذه الاطوار كلّها هو الاسلام، محور شخصيتنا الحضارية وعصب ضميرنا الجمعي. فقد عزل بصورة تدريجيّة بطيئة، وأحيانا بشكل جريء سافر عن مواقع التوجيه والتسيير الفعلي لواقعنا. فهو رغم بروزه عاملا محدّدا في صنع الجوانب المشرقة من حضارتنا وفي جهاد بلادنا لطرد المستعمر، قد بات اليوم أو يكاد مجرّد رمز تحدّق به المخاطر ثقافيّا واخلاقيّا وسياسيّا نتيجة ما تعرّض له في المرحلة المعاصرة والاخيرة خاصّة من اهمال واعتداء على قيمه وعلى مؤسساته ورجاله.

واضافة الى هذه المعطيات الحضاريّة التي تشترك فيها بلادنا مع سائر بلاد العالم الاسلامي، عرفت تونس في أواخر الخمسينات وطيلة عشريتي الستّينات والسبعينات - رغم حصولها على وثيقة الاستقلال - أوضاعا خصوصيّة اتّسمت بالتأزّم واحتداد الصراع الاجتماعي وتعطّل سبل النمو الشامل. وقد تكرّس هذا الوضع نتيجة أحادية الاتجاه السياسي المتحكّم (الحزب الدستوري) وتدرّجه المتصاعد نحو الهيمنة على السلط والمؤسسات والمنظمات الجماهيريّة من ناحية، ونتيجة ارتجالية الاختيارات الاقتصادية والاجتماعيّة وتقلبها وارتباطها بمصالح دوليّة تتعارض مع مصالح شعبنا الوطنيّة من ناحية أخرى.

في هذا المناخ ظهر الاتجاه الاسلامي بتونس في بداية السبعينات بعد أن توفّرت له كلّ أسباب الوجود، وتأكّدت ضرورته، وقد ساهم هذا الاتجاه من مواقعه في اعادة الاعتبار للاسلام فكرا وثقافة وسلوكا، واعادة الاعتبار للمسجد. كما ساهم في تنشيط الحياة

الثقافيّة والسياسيّة فأدخل عليها لأولّ مرّة نفسا جديدا في اتّجاه تأصيل الهويّة والوعي بالمصلحة وتأكيد التعدّد بتجسيمه واقعيًا.

وقد عبّر الاتجاه الاسلامي من خلال نشاطه ومواقفه العديدة عن التحامه بذات أمته وتجسيده آمال شعبه وتطلعاته فالتفّت حوله قطاعات عريضة من المحرومين والشباب والمثقّفين، وكان نموه السريع مجلبة لاهتمام الملاحظين وترصّد القوى والانظمة السياسية في الداخل والخارج. ورغم سعيه الرصين المتعقّل لتلمّس أنجع سبل التطوّر والتغيير فقد تعرّض هذا الاتجاه الى سلسلة من التهم الباطلة والحملات الدعائيّة المغرضة نظّمتها ضدّه السلطة الحاكمة ووسائل الاعلام الرسميّة وشبه الرسميّة، بلغت هذه الحملات حد الاعتداء تعسّفا على وسائل اعلامه قصد منعه من ابلاغ صوته وتطوّرت بعد ذلك الى أشكال أشد قهرا فقدّمت عناصره الى المحاكمات وتكثفت ضدّ أفراده التتبعات والتحقيقات وفتحت أمام شبابه السجون والمعتقلات حيث الضرب والتعذيب والاهانة.

انّ استمرار أسباب تخلفّ الوضع السياسي والاقتصادي والثقافي في مجتمعنا يرسّخ لدى الاسلاميين شعورهم المشروع بمسؤوليتهم الربّانيّة والوطنيّة والانسانيّة في ضرورة مواصلة مساعيهم وتطويرها من أجل تحرر البلاد الفعلي وتقدّمها على أسس الاسلام العادلة وفي ظلّ نهجه القويم.

وقد يذهب البعض الى أنّ هذا العمل هو من باب اقحام الدّين في دنيا السياسة وأنّه مدخل الى احتكار الصفة الاسلاميّة ونفيها بالتالي عن الآخرين. انّ هذا الفهم فضلا عن كونه يعبّر عن تصوّر كنسي دخيل على ثقافتنا الاصيلة يكرّس استمرارية «حديثة» لواقع الضياع التاريخي الذي عاشته أمّتنا.

على أنّ «حركة الاتجاه الاسلامي» لا تقدم نفسها ناطقا رسميًا باسم الاسلام في تونس ولا تطمع يوما في أن ينسب هذا اللقب اليها. فهي مع اقرارها حق جميع التونسيين في التعامل الصادق المسؤول مع الدّين، ترى من حقها تبنّي تصوّر للاسلام يكون من الشمول بحيث يشكّل الارضيّة العقائديّة التي منها تنبثق مختلف الرؤى الفكريّة والاختيارات السياسية والاقتصاديّة والاجتماعيّة التي تحدّد هوية هذه الحركة وتضبط توجهاتها الاستراتجيّة ومواقفها الظرفية. وبهذا المعنى تكون «حركة الاتجاه الاسلامي» واضحة الحدود محدّدة المسؤولية غير ملزمة بكلّ صنوف التحركات والمواقف التي قد تبرز هنا وهناك ـ الا ما يقع تبنيه منها بصورة رسمية ـ مهما أضفى أصحاب هذه التحركات على أنفسهم من براقع التّديّن ورفعوا رايات الاسلام.

وتأكيدا لهذا الوضع من ناحية، وتكافؤا مع جسامة المهمّة ومقتضيات المرحلة من ناحية أخرى، فانّه يتعيّن على الاسلاميين دخول طور جديد من العمل والتنظيم يسمح لهم بتجميع الطاقات وتوعيتها وتربيتها وتوظيفها في خدمة قضايا شعبها وامتها. ولابدّ لهذا العمل أن يكون ضمن حركة مبلورة الاهداف مضبوطة الوسائل ذات هياكل واضحة وقيادات ممثلة.

انّ «حركة الاتجاه الاسلامي» التيّ حالت بينها وبين جماهيرها المسلمة العريضة ظروف القهر والارهاب، لتأمل أن تكون مساهمة جماهيرها أعمق وأشمل في مستقبل الأيّام.

المهام

تعمل هذه الحركة على تحقيق المهام التالية:

أ ـ بعث الشخصيّة الاسلامية لتونس حتّى تستعيد مهمتها كقاعدة كبرى للحضارة الاسلامية بافريقيا ووضع حدّ لحالة التبعيّة والاغتراب والضلال.

ب ـ تجديد الفكر الاسلامي على ضوء أصول الاسلام الثابتة ومقتضيات الحياة المتطوّرة وتنقيته من رواسب عصور الانحطاط وآثار التغريب.

ج ـ أن تستعيد الجماهير حقّها المشروع في تقرير مصيرها بعيدا عن كلّ وصاية داخلية أو هيمنة خارجيّة.

د ـ اعادة بناء الحياة الاقتصاديّة على أسس انسانيّة وتوزيع الثروة بالبلاد توزيعا عادلا على ضوء المبدأ الاسلامي «الرجل وبلاؤه، الرجل وحاجته» أي (من حقّ كلّ فرد أن يتمتّع بثمار جهده في حدود مصلحة الجماعة وان يحصل على حاجته في كلّ الاحوال) حتّى تتمكن الجماهير من حقّها الشرعي المسلوب في العيش الكريم بعيدا عن كلّ ضروب الاستغلال والدوران في فلك القوى الاقتصاديّة الدولية.

هـ ـ المساهمة في بعث الكيان السياسي والحضاري للاسلام على المستوى المحلّي والمغربي والعربي والعالمي حتى يتمّ انقاذ شعوبنا والبشرية جمعاء مما تردّت فيه من ضياع نفسي وحيف اجتماعي وتسلّط دولي.

الوسائل

لتحقيق هذه المهام تعتمد الحركة الوسائل التالية:

ـ اعادة الحياة الى المسجد كمركز للتعبّد والتعبئة الجماهيريّة الشاملة أسوة بالمسجد في العهد النبوي وامتدادا لما كان يقوم به الجامع الاعظم، جامع الزيتونة، من صيانة

للشخصيّة الاسلامية ودعما لمكانة بلادنا كمركز عالمي للاشعاع الحضاري.

ـ تنشيط الحركة الفكريّة والثقافية، من ذلك: اقامة الندوات، تشجيع حركة التأليف والنشر، تجذير وبلورة المفاهيم والقيم الاسلامية في مجالات الادب والثقافة عامّة وتشجيع البحث العلمي ودعم الاعلام الملتزم حتى يكون بديلا عن اعلام الميوعة والنفاق.

ـ دعم التعريب في مجال التعليم والادارة مع التفتّح على اللغات الاجنبيّة.

ـ رفض العنف كأداة للتغيير، وتركيز الصراع على أسس شوريّة تكون هي أسلوب الحسم في مجالات الفكر والثقافة والسياسة.

ـ رفض مبدأ الانفراد بالسلطة «الاحاديّة» (UNIPARTISME) لما يتضمّنه من اعدام لارادة الانسان وتعطيل لطاقات الشعب ودفع البلاد في طريق العنف. وفي المقابل اقرار حقّ كلّ القوى الشعبيّة في ممارسة حرّيّة التعبير والتجمع وسائر الحقوق الشرعيّة والتعاون في ذلك مع كلّ القوى الوطنيّة.

ـ بلورة مفاهيم الاسلام الاجتماعيّة في صيغ معاصرة وتحليل الواقع الاقتصادي التونسي حتى يتمّ تحديد مظاهر الحيف وأسبابه والوصول الى بلورة الحلول البديلة.

ـ الانحياز الى صفوف المستضعفين من العمّال والفلّاحين وسائر المحرومين في صراعهم مع المستكبرين والمترفين.

ـ دعم العمل النقابي بما يضمن استقلاله وقدرته على تحقيق التحرّر الوطني بجميع أبعاده الاجتماعيّة والسياسية والثقافية.

ـ اعتماد التصوّر الشمولي للاسلام، والتزام العمل السياسي بعيدا عن اللّائكيّة والانتهازيّة.

ـ تحرير الضمير المسلم من الانهزام الحضاري ازاء الغرب.

ـ بلورة وتجسيم الصورة المعاصرة لنظام الحكم الاسلامي بما يضمن طرح القضايا الوطنية في اطارها التاريخي والعقائدي والموضوعي مغربيًا وعربيًا واسلاميًا وضمن عالم المستضعفين عامّة.

ـ توثيق علاقات الاخوة والتعاون مع المسلمين كافّة: في تونس وعلى صعيد المغرب والعالم الاسلامي كلّه.

ـ دعم ومناصرة حركات التحرّر في العالم.

تونس في : ٦ ـ ٦ ـ ١٩٨١

برامج الفلسفة وجيل الضياع

« ... وبغير الاتفاق على نوع الثقافة التي ننتمي اليها وتحديد نظرتها الفلسفية وقيمها الخلقية ومنهاجها العملي، سنظل نخبط خبط عشواء في علاج كل ما يعرض لنا من قضايا... »

« المعرفة » ع ١٠ س ١٩٧٣

برامج الفلسفة وجيل الضّياع

مشكلات كثيرة جوهرية نعيشها في بلادنا دون ان تحضى منا بكثير من الدرس والتحليل مثل المشكلة الخلقية ، مشكلة فقدان الثقة في أنفسنا ، مشكلة الجنس ، مشكلة الانطواء على الذات وفقدان الاستعداد للتضحية من أجل الآخرين ، مشكلة التبعية الثقافية ، مشكلة التنمية وعلاقتها بالمشكلة الخلقية الخ ، هذه المشكلات منها ما هو وليد اوضاعنا التاريخية والسياسية والتربوية ومنها ما هو نتيجة انعكاس الوضع العالمي على اوضاعنا الخاصة .

ومن الضروري ان يتوفر لدينا مقياس خاص نقيس به هذه الاوضاع لكي نقدر على حل هذه المشكلات ،، من الضروري ان يكون لنا مصباح ينير لنا الدروب خلال سيرنا ويجنبنا العثار والضياع ، اعني لا بد لنا من ثقافة متميزة أي من نظرة خاصة الى الكون والانسان والحياة ، من مقياس خاص لافكارنا وأعمالنا .

ولكن هل نملك نحن هذه الثقافة المتميزة أم لا ؟

اذا كان الجواب : نعم ، فلا بد من تحديد هذه الثقافة التي ننتمي اليها والتي سنحتكم اليها في جميع ما يعرض لنا من مشكلات وقضايا .

وبغير الاتفاق على نوع الثقافة التي ننتمي اليها وتحديد نظرتها الفلسفية وقيمها الخلقية ومنهاجها العملي ، سنظل نخبط خبط عشواء في علاج كل ما يعرض لنا من قضايا لعدم اتفاقنا على نوع الاضاءة التي نسلطها على المشاكل وهذا هو ما يحدث عامة في ميادين التربية والثقافة والاقتصاد في بلادنا ، وسألج هنا ميدانا من هذه الميادين لي به صلات وثيقة هو ميدان التربية ، وسأركز حديثي في هذا النطاق على مادة واحدة من برامج التربية ، مادة اختصاصي ، مادة الفلسفة لما لها من خطورة بالغة في التكوين العقلي والوجداني والاخلاقي لتلاميذنا .

الفلسفة : تدمير وتخريب

ان درس الفلسفة ليغدو ـ اذا لم نحدد انتماءنا الثقافي ـ ليس عديم الفائدة في علاج ما نعانيه من مشكلات فحسب بل عنصر تخريب وتدمير وتشتيت في ميدان النفس والمجتمع ، وهذا هو الحال الذي عليه الآن ، **فدرس الفلسفة اما ان يقدم للتلاميذ اجابات متناقضة على مشكلاتهم ، يعجزون عن الاختيار بينها لانهم فاقدون للمقياس الثقافي الذي سيختارون على اساسه ، واما ان يقدم لهم اجابات لمشكلات ليست هي مشكلاتهم بل هي مشكلات نشأت في مجتمعات اخرى ذات ثقافات وظروف تختلف كل الاختلاف عن مجتمعنا** وما ترسّب في تلك المجتمعات من قيم وعادات ونظرة خاصة للكون ومصيره والانسان وغايته ، **وهذه الاجابات** على مشكلات ليست هي مشكلاتنا تشل تلامذنا عن القدرة على علاج ما يزخر به مجتمعهم من مشكلات خاصة به وتقديم حلول تتناسب مع تلك المشكلات فان دروس الفلسفة العامة تقتصر في الغالب على طرح مشاكل المجتمعات الغربية النفسية والاجتماعية وما قدمت لها من حلول معبرة عما مر به المجتمع الغربي من ثورات اجتماعية ودينية واوضاع خاصة فالتحليل التاريخي ـ مثلا ـ الذي قدمه ماركس انما يتناول الاطوار التي مرت بها المجتمعات الغربية فحسب ، والدليل على ذلك اننا لا نجد اية اشارة الى المجتمعات الاسلامية في دراسة ماركس للتاريخ ، فكيف يمكن اعتبار نظريته قانونا كليا للتاريخ الانساني كما تقدم هذه النظرية في مدارسنا ؟ وكيف يمكن اعتبار نظرته للدين، على انه مخدر للشعوب وحائل بينها وبين تحقيق الثورة الاجتماعية على الاقطاع ، حكما عاما يشمل كل دين وهي وليدة وضع معين للدين في المجتمعات الاوروبية حيث كانت الكنيسة تتعامل مع الاقطاع وتصرف الشعب عن الثورة على الظلم ؟ وكيف يمكن اعتبار نظرية فرويد على ان النفس الانسانية ،،، وما يطرأ عليها من امراض ليس الا نتيجة الغريزة الجنسية وهي القوة الفعالة في النفس ، كيف يمكن اعتبارها نظرية علمية مع انها لم تكن في جزء كبير منها سوى انعكاس لنفسية يهودي مضطهد في مجتمع مسيحي ينظر باحتقار الى الغريزة الجنسية ؟ وكيف يمكن اعتبار نظرية سارتر الى القيم الاخلاقية والى الحرية نظرية عامة دون ربطها بمرحلة تاريخية معينة يعيشها المجتمع الغربي بعد ان تحطمت قيمته الخلقية ووهنت صلاته الروحية واضمحلت مُثُله العليا للحياة فرآها عبثا وقلقا وسآمة ، وان المرء ليتساءل لمصلحة مَنْ نَقوم بمسخ هذا الجيل واجتثاثه من اصوله الثقافية وقطع اوصاله عن محيطه وتركه ضائعا ليس يدري الى اي امة هو ينتمي ولا الى اي ثقافة هو ينتسب ولا الى اي مُثُل ينبغي ان يتطلع ولا الى اي قيم ينبغي ان يحتكم ؟ **أليست مهمة التربية الاولى تأصيل الانسان في بيئته الثقافية حتى يتفاعل معها ويسهل عليه حل مشكلاتها .**

لماذا لا نفعل ـ ونحن لا نفتأ نتغنّى بالتقدميين ـ ما يفعلون عند تدريسهم للنظريات الفلسفية والنفسية الاجتماعية والاقتصادية الغربية فيعمدون الى فحصها فحصا نقديا على ضوء ثقافتهم الخاصة ثم يقدمونها الى تلاميذهم وقد تبيّن مـا هو زائف ومـا هو جوهري منها ، ما يتلاءم وثقافتهم الخاصة وما يتنافر معها ،، فيصونون بذلك ابناءهم من الضياع والتبعية الثقافية او الاستعمار الثقافي بتعبير اوضح ؟ **لماذا لا ندرس** ـ نحن ايضا ـ **ديكارت وماركس ودركايم وسارتر وداروين باعتبارنا ثقافة متميزة لها حلولها الخاصة لمشاكلها الخاصة** ؟

اننا كلما قلنا هذا الكلام تعالت من حولنا صيحات الاحتجاج من ادعياء الموضوعية والحرية ،، ينبغي ان نكون موضوعيين ، ينبغي ان نترك للتلميذ حرية الاختيار ، ينبغي ان نقف على الحياد مكتفين بطرح المشاكل كما طرحها وحلّها ماركس او دركايم او فرويد او سارتر ثم على التلميذ بعد ذلك ان يختار من تلقائه . هذا جميل **ولكن كيف نرجو من تلميذنا حسن الاختيار ومنهاجنا التربوي لم يزوده بالمقياس الـذي سيقيس به والميزان الذي سيزن به** (١) ؟ ألسنا نزُجّ بذلك بتلاميذنا في واد الضياع والحيـرة والتبعية الثقافية خاصة وان جلّ اساتذة الفلسفة في بلادنا ينتمون الى ثقافة اجنبية ، فرنسية او بلجيكية فهل تراهم قادرين على مساعدة تلامذتنا على حل مشكلات لا علاقة لهم بها ؟

انه لَعَمَلٌ فظيع هذا الذي نقوم به شَعُرْنَا بذلك أمْ لَمْ نَشْعُرْ .

فلسفة اسلامية ؟

اما عن دروس الفلسفة المدعوة اسلامية فهي حقـا مهزلـة المهازل ذلـك ان معظم النصوص الواردة في كتاب ـ مختارات من الفلسفة الاسلامية ـ وهو المعد للدراسة معظم تلك النصوص لا تصلح الا ان تكون اكفانا يكفن بها الاموات .

لست ادري ما الهدف من دراسة المادة ، فهل هو مجرد جعل تلامذتنا يعرفون المشكلات التي كانت تشغل المسلمين في القرن الثالث والرابع والخامس ؟ اذا كان هذا هو الهدف فأولى ان تسمى هذه المادة بتاريخ الفلسفة الاسلامية فيهتم بها مؤرخو الفلسفة او الدارسون الاجتماعيون للأوضاع الاجتماعية في تلك العصور .

ما الذي يهمنا نحن المسلمون المتخلفون المهزومون وبلادنا تتقاذفها مختلف التيارات الثقافية ومجتمعنا يمر بأخطر التناقضات والأزمات ان نعرف موقف المعتزلة من صفات الله هل هي قائمة بذاته أم هي شيء زائد عن الذات ثم موقف ابن رشد من الكون هل هو قديم أم مُحدَث ورأي ابن سينـا في النفس وخلودهـا وموقف الأشعـري من الكسب

والقضاء والقدر وقضية هل القرآن قديم أم محدث وعلاقة الحكمة بالشريعة والاعتناء بتعريف علم الكلام ؟ **هل هذه هي المشكلات التي يعانيها شبابنا الآن ؟ وهل جاء الاسلام لمثل هذا الجدل العقيم الذي زجت بالعالم الاسلامي في متاهاته أوضاعٌ معينة لا علاقة لنا بها الآن ؟** ألم يأت الاسلام ليقدم للناس حلولا عملية لما يتخبطون فيه من مشكلات؟فأين هذه الحلول فيما دُعى جورا الفلسفة الاسلامية ـ ؟ .

ترى ما هو الشعور الذي يخرج به تلامذنا من درس الفلسفة الاسلامية والدرس لا يقدم لهم الا مجموعة من القضايا الميتة التي لا شأن لها ومشكلاتنا في يومنا هذا ؟

ما هي الفكرة التي سيخرجون بها من درس التفكير الاسلامي دون ان يعثروا خلال نصوص الكتاب كله ولو على نص واحد لأحد المفكرين المسلمين المحدثين أمثال محمد اقبال وأبي الأعلى المودودي وأبي الحسن الندوي والشيخ حسن البنا وسيد قطب ومحمد قطب ومالك بن نبي ؟ ألن يذهب بهم الظن الى ان الاسلام انقطع عن الوجود وأنه لا يعدو أن يكون جزءً من تراثنا وحسب لا علاقة له بحل مشكلاتنا الاجتماعية والاقتصادية والسياسية ؟

ثم هذا الفصل بين مادة الفلسفة العامّة وايلائها هذه الأهمية الكبرى ونوع المشكلات الحية التي تعالجها ـ المشكلات الاجتماعية والاخلاقية والنفسية والاقتصادية والسياسية ـ وبين ما دعي باطلا بالفلسفة الاسلامية وما اقترن بها من ضعف ، وتفاهة الموضوعات ؟ بماذا يوحي هذا الفصل بين المادتين للتلميذ وما الغاية منه ؟ **أليس هو تكريس وتركيز روح الازدراء والاستهانة بثقافتنا الخاصّة التي يشكل الاسلام محورها الاساسي ؟**

ولذا فانّي اقترح ان تعاد هذه الاكفان الى قبورها ويوارى التراب على هذه المشكلات الزائفة وكفاها ما احدثته في تاريخنا من اضطرابات وفتن وحروب وتشتت ، ويستعاض عنها وعن مادة الفلسفة العامة بما حوته من ضروب العلاج لمشكلات ليست هي مشكلاتنا الحقيقية **يستعاض عن ذلك بمادة واحدة تتولى طرح مشكلاتنا الحقيقية ، المشكلات الخلقية والجنسية والاقتصادية والسياسية الى جانب موقفنا من الكون ومصيره والانسان وغايته والحياة واهدافها** ، على ان تعالج هذه المشاكل باعتبارنا ثقافة متميزة لها ماض تعتز به ومستقبل تتطلع اليه وحاضر تجاهد للتغلب على تناقضاته ومشاكله ، ثقافة متميزة الاسلام محتواها والعربية اطارها ، فننقذ بذلك جيل الضياع الذي ما فتىء يتكاثر في بلادنا .

(١) نبه ابن خلدون في مقدمته الى خطر دراسة الفلسفة على الناشئة قبل ان يتمكنوا من التعمق في الاسلام

التطور = احتفاظ + تجاوز

- ظاهرة عجيبة.
- التطور: انتقال من وضع إلى آخر.
- التطور ناموس كوني.
- التطور بين الانسان والحيوان.
- الذاكرة والابداع.
- مرض فقدان الذاكرة.
- التاريخ ذاكرة الامة
- حرص الامم على الاحتفاظ بتاريخها.

التطور = احتفاظ + تجاوز

١) ظاهرة عجيبة:

يلاحظ المتتبع لما يجري على ألسنة الناس وأقلامهم ورود كلمات ومصطلحات كثيرة تسربت الى حياتنا الثقافية دون أيما تحديد لمضامينها، حاملة معها مفاهيم وأفكار لم تحدد هي الاخرى فى أذهان أصحابها حتى أن معظم ما يدور من خلافات ومجادلات كثيرا ما يكون مردّه الى أن معاني الالفاظ التي تجري على ألسنة المتناقشين متباينة من شخص الى آخر حتى ليذهب الظن الى أن لكل واحد منهم معجما خاصا لا يشاطره غيره الاّ في مادة ألفاظه أما معاني تلك الالفاظ فمتباينة تباينا كبيرا،... ويكفيك لتتبين صدق هذه الظاهرة أن توقف محدثك طالبا منه وهو يتحدث عن اليمين واليسار والرجعية والتقدمية والحرية والاستعمار والاشتراكية والرأسمالية والتطور والرقي والحضارة والتخلف، أن يحدد لك معاني هذه المصطلحات والمقاييس التي ينبغي أن نقيس بها أنفسنا لنعرف الى أيّ هذه المفاهيم ننتمي ... والتي نميز بها انتماء غيرنا اليها أو عدم انتمائهم ... يكفي أن تفعل ذلك لتتبين أن محدثك يستخدم في حديثه قاموسا لا يفهم من معاني ألفاظه الا القليل، مما يجعل الاستمرار معه فى النقاش قبل تحديد المصطلحات المستعملة أمرا لا طائل من ورائه. وان من أكثر الألفاظ شيوعا في مايدور بين الناس من مناقشات كلمة التطور، وأحسب أنها أكثر الكلمات غموضا وبعدا عن التحديد مما ترك المجال فسيحا لكثير من المفاهيم الخاطئة تتسرب الى حياتنا الثقافية والاقتصادية والاجتماعية متوشحة بوشاح برّاق، وشاح التطور.

٢) التطور: انتقال من وضع الى آخر.

تعني كلمة تطوّر في اللغة، تغيّر، وانتقل من وضع الى آخر، أو مرّ من طور الى طور آخر ومنه الطور الذي ورد ذكره في القرآن «**مالكم لا ترجون لله وقارا وقد خلقكم أطوارا**» فالتطور بهذا المعنى هو مجرد الانتقال من وضع الى وضع آخر بقطع النظر عن المعايير

القيميّة، معايير الحسن والقبح، فالنبات والحيوان والانسان والدولة والمجتمع في تطور مستمر أي في حالة انتقال مستمر من وضع الى وضع آخر دون اختبار للقيم فقد يأخذ هذا التطور خط الصعود من الاسوا الى الاحسن كانتقال المجتمع الجاهلي من وضع القبيلة الى وضع الدولة على يد الاسلام، وقد يتجه هذا التطور في اتجاه عكسي من الاحسن الى الاسوا كانتقال المجتمع الاسلامي من وضع الحضارة الى وضع التخلف ووقوعه في قبضة الاستعمار.

٣) التطور ناموس كوني:

والتطور بهذا المعنى ناموس من نواميس هذا الكون الذي لا تفتأ كل كائناته عن الحركة المستمرة والصيرورة الدائمة. والقرآن الكريم كثيرا ما يلفت أنظارنا الى هذه السنة الكونية، سنة الحركة والصيرورة الدائمتين.

- في الارض: «**ومن آياته أنك ترى الارض خاشعة فاذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت ان الذي أحياها لمحيي الموتى انه على كلّ شي قدير**» (فصلت ٣٨)

- في الاجرام السماوية: «**ألم تر الى ربك كيف مدّ الظل ولو شاء لجعله ساكنا ثم جعلنا الشمس عليه دليلا ثم قبضناه الينا قبضا يسيرا**» (الفرقان آية ٤٤)

- في تاريخ الحضارة: «**وضرب الله مثلا قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغدا من كل مكان فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون**». (النحل ١١٢)

- في عالم النبات: «**كمثل غيث أعجب الكفار نباته ثم يهيج فتراه مصفرا ثم يكون حطاما**» (الحديد ٢١).

- في نشأة الانسان وأطوار حياته: «**هو الذي خلقكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم يخرجكم طفلا ثم لتبلغوا أشدكم ثم لتكونوا شيوخا ومنكم من يُتوفّى من قبل ولتبلغوا أجلا مسمّى ولعلكم تعقلون**». غافر آية (٦٦)

وهذه الآيات وغيرها كثير في القرآن الكريم تبرز لنا السمة الاساسية لهذا الكون وهي سمة التطور الدائم والحركة المستمرة فتلفت انتباهنا الى اليد التي تحرك كل شي من وراء ستار والتي تطرد من أذهاننا الصورة السكونية التي قدمتها الفلسفات الهندية والاشراقية عن الكون والانسان والمجتمع والحياة، هذه الصورة الحركية هي التي نرى عليها أوائل هذه الامة أولئك الذين أحدثوا أكبر التغييرات في تاريخ الحضارة الانسانية وفي أنفسهم، ولكن الصورة السكونية عن الانسان والكون لم تلبث أن تسربت الى

المسلمين من قبل الفلسفات الهندية واليونانية وغيرها فشلّت حركتهم الكبرى وانسحبوا من ميادين الكفاح والجهاد الى «حياة سكونية جامدة» حياة الدراويش في الزوايا... مع أن ناموس الحركة يطبع كلَّ شيء بطابعه في هذا الكون. بل ان محمد اقبال رحمه الله يذهب الى أبعد من هذا فيرى أن مفهوم الالوهية كما يبرزه القرآن هو الآخر مفهوم حركيّ بعيد كل البعد عن المفهوم السكونيّ لله الذي قدمته الفلسفة اليونانية،مستدلا على ذلك بهذه الآية من سورة الرحمان التي تصف الله جلَّ جلاله بسمة الحركة «**كل يوم هو في شأن**». (يرجع الى كتابه تجديد التفكير الديني في الاسلام).

والقرآن من ناحية اخرى ينفّر الناس من حالة الركود التي تصيبهم بالشلل والعجز مكتفين بما انتهى اليه الآباء والاجداد داعيا اياهم الى اعادة النظر «**واذا قيل لهم تعالوا الى ما أنزل الله والى الرسول، قالوا حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا أولو كان آباؤهم لا يعلمون شيئا ولا يهتدون**» (المائدة ١٠٣) فيا عجبا لقوم هذا كتابهم يدعوهم الى الحركة لتغيير أنفسهم وأوضاعهم يرتضون لانفسهم حياة الركود.

٤) التطور بين الانسان والحيوان:

واذا كان التطور بمعناه العام ناموسا من نواميس هذا الكون بجميع كائناته فان التطور الحضاري بمعنى الانتقال من مستوى ثقافي الى مستوى أفضل منه وأرقى - هو خاصية من خصائص الانسان التي يرجع اليها الفضل في كل ماأحرزه من انتصارات باهرة على الطبيعة جمادا أو نباتا أو حيوانا وأستغلالها في مآربه، فالمتتبع لحياة الحيوان - مثلا - يلاحظ ان طرق عيشه (في التربية والسكن والمأكل والتنقل والدفاع) لم يمسّها اي تطور يذكر، فالعصافير - مثلا - لا تزال تبني أعشاشها بنفس الطريقة التي كان يستخدمها آباؤها منذ ملايين السنين، وكذا الشأن عند النمل فهو لا يزال يستخدم في نقل الحبوب وتخزينها نفس الطريقة منذ أن عرف على وجه الارض. والامر ذاته بالنسبة لجميع فصائل الحيوان والحشرات والطيور، فلا تـزال كلها تكرِّر نفس النمط من وسائل العيش التي لم يمسها قانون التطوّر من بعيد أو قريب .

على حين نرى الانسان ما يفتأ يطوِّر وسائل عيشه في المسكن والغذاء والتنقل والتهوئة والدفاع، ويضيف كل يوم مكسبا جديدا يتجاوز به مكاسب الماضي حتى لكأن تاريخه سلسلة من الاضافات والتجاوزات التي تحتفظ وتستوعب ما هو جوهري من الماضي دون الوقوف عنده مما يجعل مسألة التطوّر تحدَّد بهذين العمليتين أو العملية المزدوجة، عملية الاحتفاظ بما هو جوهري من الماضي واتخاذه منطلقا لما يتجاوزه من الحقائق والمكاسب

فالتطوّر = احتفاظ + تجاوز.

٥) الذاكرة والابداع:

ان هذه العملية المزدوجة التى يعود اليها الفضل في جميع ما حصل عليه الانسان من ألوان التطور والتي اختص بها دون سائر الكائنات رغم ما بذله «القرديّون» من محاولات لتقريب الشقة بينه وبين الكائنات الاخرى، هذه العملية ترجع الى وظيفتين رئيسيتين يقوم بهما العقل الانساني، عملية الابداع او الكشف ثم عملية التخزين أو الذاكرة. فالاحتفاظ بمكاسب الماضي انما يعود الى ملكة الذاكرة وتجاوز الماضي يعود الى ملكة الكشف او الابداع ولولا ملكة الذاكرة لا ستحالت عملية التجاوز. ان التجاوز يستند الى رصيد الماضي الذي تقدمه الذاكرة كرأسمال ينطلق منه الانسان وينميه بالتعلّم وكلما حصل على مكسب جديد تولت الذاكرة مهمة الاحتفاظ به وتضخم بذلك رأس مال الانسان وتوفرت له أمكانية أكبر للحصول على مكاسب جديدة لتجاوز الماضي مما يجعل واضحا ان التجاوز ليس الغاء لمكاسب الماضي وانما الاحتفاظ بها بعد نقدها وتمحيصها لا ستبقاء ما هو جوهري منها...

٦) مرض فقدان الذاكرة:

ان الغاء مدخرات الذاكرة أو ماضي الانسان هو شلّ حركة العقل التي تندفع لتجاوز الماضي محتفظة بجوهره .. وهو أيضا عودة بالانسان الى مرحلة الطفولة الاولى التي يستحيل معها التعلم والتجاوز لعدم وجود عملية الاحتفاظ التى تقوم بها الذاكرة، وهو مرض معروف في علم النفس بمرض فقدان الذاكرة الذي يصاب به بعض الناس فيتحولون الى أطفال سذّج يحاولون أن يتعلموا كلّ شيء من جديد: الحركات والكلمات، دون طائل، لفقدانهم القدرة على الاحتفاظ أي الذاكرة، شأن الاطفال الصغار الذين لا طوق لهم على تحمل أيّة مسؤولية بل تراهم يعتمدون في حل مشاكلهم وتنظيم حياتهم وتسيير شؤونهم على الكبار ويتخذونهم المثل الاعلى يقلدونهم في كلّ شيء. وفقدان الذّاكرة مرض خطير اذا أصاب الانسان أفقده أهم خاصية يتميز بها عن جميع الكائنات الحية وهي **أنه الكائن الوحيد الذي له ماضٍ أي له تاريخ** بمعنى أنه الكائن الوحيد الذي يستفيد من مكاسب الماضي ويبدأ تجربته في الحياة، لا انطلاقا من تجربته الشخصية فحسب، بل انطلاقا من ماضي البشرية كله وما كسبته في عمرها الطويل من مكاسب، ينطلق منها كرأسمال أو كرصيد أولي له في تجربته.. **حتى لكأنّ عمر كلّ واحد منا لا يتحدد بساعة ولادته بل بساعة ظهور أوّل انسان على الارض.** فهذه الكلمات التى نتحاور بها والآلات التي نستخدمها في تسيير وسائل عيشنا وكثير من ألوان الفنون التي

نستمتع بها والحِكم التي نستهدي بهداها والمثل العليا التي نتطلع اليها كلها أو معظمها ليست لنا فيها غير مساهمات واضافات نضيفها الى مكاسب البشرية ورصيدها الضخم الذي ترسب في ذاكرتها أي في تاريخها هذا الرصيد الضخم ينطلق منه الطفل الانساني في تجربته على حين أن الحيوان ينطلق من رصيد غير قابل للصرف اذا صحَّ التعبير أي من مجموعة من الغرائز تسير على وتيرة واحدة ونمط مكرور غير قابل لأية اضافة، وحتى اذا حصلت اضافة فانها لا تلبث أن تختفي مع اختفاء ذلك الكائن الحيِّ دون أن تكون فيها قابلية الانتقال الى الاجيال الجديدة...

٧) التاريخ ذاكرة الامة:

وكما أن لكل فرد ذاكرته التي تحتفظ بماضيه وتخزن ذكرياته فان لكل أمة ذاكرتها التي يتعرض الفرد بالغائها لحالة من العجز والشلل تشبه حالة الطفل العاجز عن الاضطلاع بأية مسؤولية والتجائه في كل ما يتعلق به من الامور الى الكبار طالبا منهم التدخل لحل مشاكله وحمايته من كل خطر قد يتعرَّض له... ومثل هذا الوضع تتعرض اليه كلّ أمة خدعت عن نفسها فخيل اليها أنها ستتغلب عما يواجهها من مشاكل الحياة وتنظم الى ركب الامم المتحضرة اذا تخلت عن ماضيها وتولت تسخيفه في نظر الاجيال الجديدة.. وهي بذلك تعرِّض نفسها لمرض خطير كثيرا ما يصاب به الافراد أعني مرض فقدان الذاكرة. فينتهي أمر مثل هذه الامة الى حالة الطفولة الساذجة اللاهية العاجزة عن حلّ مشاكلها بنفسها فتندفع كالطفل الصغير تقلد الكبار في مظاهر حياتهم كما يفعل الولد الصغير عند تقليده الكبار في اشاراتهم وحركاتهم وملابسهم ظانا أنه بذلك سيكتسب قوَّتهم وقدرتهم ... أو لست أخي القارىء ترى معي هذه الطفولة بسذاجتها وعجزها وأنت تستمع بين الحين والآخر لمسؤول كبير في أكثر من بلاد عربية يناشد الدول الكبرى كما ينعتونها بضرورة التدخل السريع لوضع حدٍّ «لمشكل الشرق الاوسط» وممارسة ضغوط على اسرائيل حتى تتخلى عما استولت عليه من ديارنا وأرضنا ..؟ أليس هذا هو منطق الطفولة بعينه ان كان للطفولة منطق؟.

٨) حرص الامم على الاحتفاظ بتاريخها:

واذا كان التاريخ هو ذاكرة الامة فلا عجب أن تحرص كل أمة تريد البقاء والتقدم على الاحتفاظ بأمجاد تاريخها وحوادثه السارة والمؤلمة حية في ذاكرة أجيالها فذلك شرط أساسي:

ـ للحفاظ على شخصية الامة وترابط أجيالها.

ـ للقيام بأية نهضة تدفع بالامة خطوات الى الامام، وتضيف الى مكاسبها الماضية مكاسب جديدة انطلاقا من الرصيد السابق، والاّ ذهبت كل محاولات النهضة أو التطور سدى ووجدت الامة نفسها في حالة من العجز تشبه حالة الطفولة.

والتاريخ يمدنا بأمثلة كثيرة على الامم التي حققت في القديم والحديث انطلاقا حضاريا. **وتحليل تلك الانطلاقات تنتهي الى أن نجاحها قام على دعامتين:**

الدعامة الاولى : استيعابها لما يزخر به الماضي من مكاسب:

ـ ماضيها هي من ناحية، ببعث ما هو جوهري من قيمه ومثله وأبطاله وفنونه وثقافته.

ـ وماضي البشرية من ناحية ثانية، بالاستفادة من مكاسبه العلمية وفنونه العملية. وان الاستفادة من مكاسب الماضي ليست تتم بغير اخضاعه لعملية فحص دقيق لتبيّن ما هو جوهري ايجابي فيه ينبغي الاحتفاظ به وما هو سلبي ينبغي طرحه.. كما أن نقد ماضي الامم الاخرى ضروري لتمييز مكاسبها العلمية، وفنونها العملية، وهي التي ينبغي الاستفادة منها بتنقيتها مما يختلط بها من قيم تلك الامة وعاداتها وأذواقها. وان التخلي عن عملية النقد هذه للاستفادة من مكاسب الامم الاخرى يعرض شخصية الامة للاضطراب والازدواجية بفعل تسرب قيم غريبة عن شخصيتها مع ما وقع استعارته من فنون عملية.

الدعامة الثانية: اذا كان الغاء ماضي الامة وتسخيفه في نظر أجيالنا يقضي على شخصية الامة بالذوبان ويعود بها الى حالة الطفولة الساذجة فان الوقوف عند الماضي والانصراف الى التغنّي بأمجاده وبطولاته يعرّض الامة لحالة من الشلل والعجز والجمود كثيرا ما نراها عند العجّز والطاعنين في السن ممن وهنت قواهم عن خوض صراع الحياة وجفّت أخيلتهم من أحلام المستقبل فطفقوا يملؤون حياتهم المجدبة بادارة اسطوانة الماضي والانتشاء بالاستماع اليها في الصباح والمساء والعالم من حولهم يموج بالحركة ويتحفز كل يوم لتحقيق تطورات ومكاسب جديدة، ويمكن أن نسمي هذه الحالة المرضية: «بمرض الشيخوخة».. ومن ثم فان عملية التطور تحتاج ـ بالاضافة الى عملية الاحتفاظ بمكاسب الماضي ـ عملية أخرى هي تجاوزه الى تحقيق مكاسب جديدة.

أمثلة:

لقد سارت على هذا المنهج في التطور النهضات الكبرى في التاريخ.

أ ـ الحضارة الاسلامية : فالاسلام لم يأت هادما لما بذله الانبياء على مرّ التاريخ من

جهود كبيرة لترسيخ القيم الاساسية، قيم الخير والحق والعدل في حياة الناس عن طريق اشعارهم برقابة الله عليهم وانهم لا محالة راجعون اليه فمحاسبهم على كل ما قدموا من عمل. انما أتى الاسلام مكملا لتلك الجهود مستثمرا مكاسبها بعد اخضاعها لفحص دقيق ملغيا سلبياتها، يقول الرسول عليه السلام «انما بعثت لاتمم مكارم الاخلاق» وفي القرآن «اليوم أكملت لكم دينكم» ولذلك اعتبر الاسلام الايمان بجميع الانبياء أصلا من أصوله لانهم جميعا كانوا دعاة للحقيقة الالهيّة الواحدة التي تعرّضت في أذهان الناس بعد ذهاب الانبياء الى كثير من التشويه، فجاء الاسلام لتنقية تلك الحقيقة مما ران عليها وكان التعبير في واقع الحياة عن تلك الحقيقة جزئيا : اتّجه مرة الى الحياة المادية لظروف خاصة على عهد موسى عليه السلام واتجه مرة اخرى ولظروف خاصة الى الحياة الروحية على عهد عيسى، حتى اذا أدركت البشرية سنّ الرشد آن للحقيقة الالهيّة أن تعبر عن نفسها في أنقى صورة وأكملها تلتئم فيها جميع الاجزاء التي كانت متنافرة، وجاء الاعلان عنها في صورتها المتكاملة على يد الرسول عليه السلام «**اليوم أكملت لكم دينكم**». ولقد حرص المسلمون بعد ذلك على الاحتفاظ بمنهل الاسلام نقيا من شوائب الفلسفات والمبادىء والقيم والعادات والاذواق لدى الشعوب والحضارات التي احتكوا بها، وظلت مقاومتهم مستمرة لمحاولات الغزو الثقافي الذي كان يُشنّ عليهم من طرف الحضارات المجاورة وكلهم حريص في نفس الوقت على استيعاب التراث العلمي والفنون العملية في الطب والفلك والادارة والرياضة ... لدى تلك الحضارات، مع الاجتهاد في تنقيتها مما يخالطها من مبادئ فلسفية وقيم واتجاهات خلقية.. حفاظا على شخصية الامة من الذوبان... ولقد كان عمل الامام أبي حامد الغزالي في هذا النطاق هامّا جدا بما بذله من جهود ضخمة لتحرير الامة الاسلامية من هيمنة الثقافة اليونانية التي تسربت فلسفتها في الكون والحياة والانسان الى العالم الاسلامي محررا عقول المسلمين وأرواحهم من هيمنتها مع الحاحه على ضرورة استعارة العلوم الرياضية التي برع فيها اليونان والفنون العلمية كالطب . ولقد واصل تلك الجهود شيخ الاسلام ابن تيمية ومن بعده ابن خلدون غير أن تلك الجهود لم تؤت ثمرتها لحينها لان الحضارة الاسلامية كانت آنئذ قد خطت خطواتها الكبرى نحو الانحدار....

ب ـ الحضارة الغربية : لقد ظل الغرب حقبة طويلة من تاريخه (العصور الوسطى) تكبل عقله اوهام الكنيسة ونظرتها السلبية الى الحياة ودور الانسان فيها حتى كان احتكاك في الاندلس وفي المشرق خلال الحروب الصليبية وفي جنوب ايطاليا بالعالم الاسلامي الذي لا تزال انوار ساطعة تشع منه خلقتها عصوره الذهبية ، فاستيقظ الغرب يفرك عينيه اثر نوم طويل ، استيقظ متلمسا الوجود من حوله باحثا عن مركزه

الحقيقي فيه ودوره ... ولكن الكنيسة كانت له بالمرصاد فبذلت كل جهودها لتسدل عليه الاغطية من جديد ... وتبددت من عينيه بقايا النوم وهو يخوض معها صراعا عنيفا ، فنهض باذلا كل جهوده لتخليص نفسه من براثنها وابعادها عن مركز القيادة والتوجيه في الحياة ، فارضا عليها العزلة في اماكن العبادة ، موليا وجهه شطر ماضيه البعيد قبل ان تسدل عليه الكنيسة اردية الجهالة، نحو الحضارة اليونانية والرومانية ،ينفض الغبار عن ذلك الماضي باعثا فيه الحياة متغنيا بمآثره حاذفا سلبياته معتنقا مثله ونظرته الى الحياة وغايتها والانسان ودوره . غير مدخر جهدا ـ في نفس الوقت ـ في ترجمة التراث العلمي الاسلامي واستعارة فنونه العملية في الطب والفلك والرياضة ، حارصا كل الحرص على ان لا تتسرب الى حياته مع ذلك التراث العلمي والفنون العملية قيم المسلمين وآدابهم ولغتهم ونظرتهم الى الكون والحياة والانسان ورصد الغرب لتحقيق عمليتي الانفتاح والانغلاق والأخذ والرفض كثيرا من الاجهزة المختصة من المستشرقين والمبشرين ... وكان حتى اعداء الكنيسة ـ من امثال فولتار ـ لا يتورعون عن التهجم على المسلمين والحط من دينهم ونبيهم (١) وكان ذلك ـ بالاضافة الى دوافع الحقد والعداوة ـ حفاظا على شخصيتهم الحضارية من الوقوع في هيمنة الثقافة الاسلامية ... حتى ان الغرب ما أخذ ينظر في الاسلام بشيء من الموضوعية الّا في الفترة الاخيرة بعد احساسه باكتمال شخصيته الحضارية وتأكده من تفوقه على المسلمين ... ومع ذلك ظل الانتقاص من الاسلام والمسلمين الخصلة الغالبة في الغرب ...

الخلاصة :

ان الاستفادة من اية ظاهرة من ظواهر الطبيعة او الحياة او المجتمع يحصل بفهم تلك الظاهرة والخضوع لقوانينها الخاصة ، وان ظاهرة التطور وهي من الظواهر الكونية العامة لا يمكن الاستفادة منها في حياتنا الا بفهمها اولا ثم بالخضوع لقوانينها الخاصة ـ وقد بينا بشكل واضح فيما نعتقد ان معادلة التطور تتضمن بالضرورة عملية الاحتفاظ بمكاسب الماضي ، وعملية تجاوزه ـ لأن الغاء الماضي يصيب الأمة بفقدان الذاكرة ويعود بها الى وضع الطفولة العاجزة ، والوقوف عنده يصيبها بمرض الشيخوخة . **وان التجاوز لا يتحقق الا بعقيدة قوية تلم شتات الشخصية الفردية والاجتماعية وتقوم بدور الرقيب على الدوافع الغريزية وتفجر الطاقات الكامنة وتوجهها نحو الاهداف التي ترسمها تلك العقيدة** وان المستقرىء لتاريخ الامم التي انجزت بناء حضارات كبرى ينتهي الى انها اتخذت موقفا مزدوجا من الحضارات الاخرى :

١ ـ باستيعاب مكاسبها وخبراتها العلمية وفنونها العملية .

٢ ـ برفض قيمها وفلسفتها وآدابها،وليس الرفض فحسب بل العداء الشديد لما تحمل من مفاهيم وقيم. والنتيجة من وراء كل ذلك انه **اذا كنا جادّين في تطوير حياتنا في اتجاه حضاري فليس لنا من سبيل الا ربط حاضرنا بماضينا وبما حواه ذلك الماضي من مكاسب ومآثر وبطولات يجب الانتفاع بها في بعث روح الاعتزاز بالانتساب الى هذه الأمة ، أمة الاسلام ، مع تسليط الاضواء على العوامل السلبية التي قادت الامة الى الانحطاط والوقوع في قبضة الاستعمار ... كما يجب تحديد موقفنا من الغرب . وذلك بتناول حضارته بمنهجية نقدية تنقي علومه وفنونه العملية التي يجب العمل على استيعابها في اقرب الآماد بعد تنقيتها من فلسفاته وآدابه وقيمه وفنونه، ونظم حياته التي يجب اخضاعها لنقد صارم على ضوء الاسلام وقيمه وآدابه وتنظيمه للحياة حتى يتم لنا تحرير ارواحنا وعقولنا من تبعيته وتتساقط عنه حلل العظمة والجلال التي اسبغت عليه من طرف ضحايا غزوه من ابنائنا . حتى اذا تكوّن لنا جيل معتزٌّ بماضيه اعتزازا واعيا متسلحُ بما انتهى اليه العالم من خبرات عملية تضطرم في احشائه روح جديدة فياضة بالحركة زاخرة بالآمال في بناء حضارة جديدة يتحرّر فيها الناس من كل سلطان غير سلطان الحق جل جلاله ، المنعم عليهم بالحياة والعقل ، حضارة تعيد التآلف الى شخصية الانسان الممزقة بين المادة والروح ... حضارة تكون السيادة فيها للحق والخير والعدل وليس لادوات الانتاج ولا هوى الطغاة**، حتى اذا تكوّن لنا هذا الجيل نكون قد وضعنا اقدامنا في طريق التطور الحقيقي فننقذ انفسنا والبشرية المعذبة من حولنا ونقوم بالدور الذي هيأنا الله له في التمكين للخير واستئصال الشرّ . «**وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا**» (البقرة ١٤٣) «**كنتم خير امة اخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله**» (آل عمران ١١٠).

(١) انظر كتاب محمد اسد : الاسلام على مفترق الطرق .

الأدب والأخلاق

- ☐ أزمة التربية
- ☐ علاقة الأدب بالأخلاق.
- ☐ ارادة نقل الاعتقاد ظاهرة انسانية.
- ☐ الموضوعية لا وجود لها في الظواهر الانسانية.
- ☐ كل أدب هو دعوة.
- ☐ تكامل القيم.
- ☐ لابد من تحديد النموذج الانساني.

« المعرفة » ع ٦ س ٢ / ١٩٧٤

الأدب والأخلاق

أزمة التربية

التربية في بلادنا ـ بلاد العرب والاسلام ـ تعاني على الرغم مما استنفدته من جهود طائلة ورصود هائلة ـ أزمة حادة ، من مظاهرها تحلل اجيالنا المعاصرة وضعفها في مجابهة ما تزخر به مجتمعاتنا من فنون الاغراء وانسياقها في خضم كل ما نبع من الغرب من تيارات فكرية ومذاهب اعتقادية والوان فنية ... وخاصة التيار المادي الالحادي .

حقيقة الأزمة : والأزمة في حقيقتها ليست أزمة نقص في التعليم وضعف في وسائله وامكانياته بقدر ما هي **أزمة انحلال في شخصيتنا الحضارية .. انها ازمة فقدان للنموذج الحضاري** .

والبلاد المتخلفة ـ على الرغم من الجهود الطائلة التي تبذلها في مجال التعليم والتربية فان المشرفين فيها على حظوظ التربية ـ في مستوى التشريع والتنفيذ من خبراء في وضع البرامج ومن اساتذة ومديرين ـ ليسوا على بينة من ملامح وسمات النموذج الثقافي والحضاري للانسان الذي يريدون لتلك البرامج ان تصنعه .. ان مثلهم كمثل جمع من البنائين السذج الذين يجهدون انفسهم في تكديس الاطنان من الحجارة وأكياس الاسمنت والآجر والماء والحديد دون ان يكون لديهم اي مخطط سابق لنوع البناية التي يريدون ، يعمل كل بحسب اختصاصه على انجاز الجزء المعهود اليه ضمن المخطط المرسوم ، حتى اذا استفرغوا جهودهم في عملية التكديس هذه وانتظروا ان ينبثق من وسط ذلك الركام قصر منيف فلم يروا غير اكداس وأكوام ... هالهم الامر واستولت عليهم الدهشة ! اليس القصر كل قصر يتألف من احجار واسمنت وحديد وماء .. وغاب عن هؤلاء البنائين السذج ان **الاجزاء لا قيمة لها الا ضمن الكل** .

بكلمة واحدة **مشكلة التربية في بلادنا هي غياب فلسفة للتربية ، مما يجعل العمل التربوي اقرب الى عملية التكديس ، تكديس المعلومات منه الى عملية البناء** .

فرجل التخطيط التربوي في فرنسا ـ مثلا ـ اذ يضع برنامجا للأدب او للتاريخ او للحساب يدرك من قبل ذلك اثر تلك البرامج والمعلومات في صياغة النموذج الانساني الذي يريد الوصول اليه اي انسان معتز بانتمائه الى شعب فرنسا حامل لمبادىء «العالم الحر» .

وكذا الشأن بالنسبة لرجل التخطيط التربوي في روسيا . يحدد النموذج الانساني الذي يريد الوصول اليه . انسان معتز بانتمائه الى روسيا حامل للايديولوجية الماركسية ، ثم بعد ذلك ينتخب من المواد والمعلومات ، في الأدب والتاريخ والفلسفة وغيرها ، ما يصلح لصياغة النموذج الذي حدده ...

اما نحن في تونس ـ مثلا ـ ترى لو القينا هذا السؤال على رجال التخطيط والتنفيذ التربويين **ما معالم النموذج الانساني الذي تريدون من برامجكم ومدارسكم ان تعمل على صياغته ؟ ما هي نظرته الى نفسه والى الكون من حوله ؟ ما هي فلسفته في الحياة وغايته ودوره فيها ؟ ما هو الميزان الذي يزن به قيم الخير والشر ، الحق والباطل ، الجمال والقبح** ؟ ترى هل يجدون جوابا ؟ بل هل يتفقون على جواب ؟ بكل تأكيد : لا .

والجيل الضائع الذي يجوب شوارعنا والذي يقع فريسة سهلة لمختلف الايديولوجيات تستلحقه وتجنده لتخريب بلاده خير دليل ..

ولذلك فانه ما لم نحسم هذا الامر ، امر اختيار النموذج الانساني الذي نريده لبرامجنا ان تنشأه فسنظل نحرث في البحر ونخبط خبط عشواء ، وسنظل ندور في حلقات مفرغة من الجدل العقيم حول مسائل فرعية لا يمكن ان نصل فيها الى نتيجة حاسمة وذلك هو الذي يحدث في اوساطنا الثقافية والتربوية وكثيرا ما يشتد الجدل حول مسائل تتعلق بالتربية ويحمى الوطيس اياما ثم يخبو دون ان ينجح اي طرف في اقناع الآخرين برأيه ... ما هي لغة التدريس الاجدى ؟ أهي العربية ام الفرنسية ام هما معا ؟ هل من المفيد اعتبار التربية الجنسية مادة رسمية من مواد المنهج التربوي ؟ هل التربية الملتزمة بالقيم الخلقية والدينية افضل ام التربية «الحرّة» ؟ وتبدىء الالسن والاقلام وتعيد في هذه المسائل وغيرها دون ان تصل الى نتيجة حاسمة لان هذه المسائل كلها فروع لقضية رئيسية لا بد من البت فيها بادىء ذي بدء وهي : ما هو النموذج الانساني الذي نريد لجهازنا التربوي ان يعمل على صياغته حتى اذا ما اتفقنا على هذا النموذج كان الاتفاق على وسائل تحقيقه امرا هينا .

نموذج لهذا الجدل : علاقة الادب بالأخلاق

وكنموذج للجدل العقيم هذه القضية التي تولى احد الزملاء من اساتذة العربية طرحها ونشرتها مجلة النشرة التربوية تحت عنوان «موقف الاستاذ بين الادب والاخلاق» . (١) وقد رأى الاستاذ طرحه لهذا الموضوع بما رأى عليه بعض زملائه من خطأ فادح وهو انهم «لا يفرقون بين الأدب والاخلاق . فالأدب الجيد عندهم هو ما هذب النفس بمعانيه النبيلة ومراميه السامية وابتعد عن تصوير العواطف الدنيئة والاهواء السافلة . اي ان قيمة الادب في مغزاه والدروس الاخلاقية التي يمكن ان نستمدها منه» . ومن دواعي طرحه لهذا الموضوع ايضا ما لاحظه من «ان الرقابة مضروبة على أدبنا العربي فلم نعرف عندما كنا تلامذة ولا يعرف تلامذتنا اليوم من الشخصيات الادبية الا جوانبها المشرقة التي لا تمس بالاخلاق ولا تخدش الفضيلة اي اننا ندرس شخصيات مبتورة» . والذي يريد الزميل الاستاذ تأكيده هو تعارض الادب والاخلاق «وصفوة القول ان الادب هو فن مقومه الاساسي الطرق الفنية والصور الجمالية التي تعرض فيها الافكار بتعارض مع المواقف الاخلاقية **التي تأتي من الخارج** ... الاخلاق صفات وسلوك لها آثارها في الحياة الاجتماعية والادب كلام منثور نثرا فنيا او مرسوم رسما شعريا على ورق علينا ان نحدد رموزه ونكشف ابعاده الفنية وحسب» والنتيجة «**أن الأدب والاخلاق امران متعارضان** ومن الخطأ ان يتحول استاذ الادب الى واعظ مرشد . أن استاذ الأدب بذوقه المرهف يتحسس مواطن الجمال في الطبيعة . في المرآة **ومطالب** بأن ينبه الاحساس بالجمال لدى تلاميذه» .

وتبعا لهذا التصور للأدب والاخلاق يميز الزميل الاستاذ طريقتين في التربية : الطريقة التقليدية «التي تخول للمربي ان يلزم تلامذته جملة من الافكار والتجارب على انها افكار وتجارب ومواقف راشدة معقولة ... ؟

ان هذه التربية استعبادية لا تؤمن بالحرية تعتمد الزجر والايحاءات المبيتة . تزرع في التلاميذ الكبت والجمود والانهيار انها تربية مقامة على التقاليد الجامدة والمحافظة المتحجرة» ومقابل هذه التربية التقليدية المتحجرة «تربية عصرية تحررية تعير اهتماما كبيرا للمحيط النفسي والبيولوجي الذي يعيش فيه التلميذ ... وهكذا يتفهم معنى الاستقلال في التفكير والتصرف ... التربية الحديثة تساعد التلامذة . تحترم شخصيتهم وتتحاشى الضغط والاوامر الزجرية ... اذن فنحن **مطالبون** بالابتعاد عن

النواهي الاخلاقية والنهي والوعظ والارشاد والتوجيهات من فوق **ومدعوون** الى تحليل الظواهر العلمية والسياسية تحليلا **موضوعيا** ثم **نترك** لتلاميذنا الحرية في الحكم الذي يريدون وفي الموقف الذي يقفون نتركهم يمارسون حريتهم ممارسة واعية» .

ملاحظة حول الاسلوب :

هذا مجمل ما ورد في «دعوة» الزميل الاستاذ الذي نـدد بشدة بمـواقف التربيـة التقليدية التي يسعى رجالها الى حمل تلامذتهم حملا على اعتناق بعض المواقف على انها مواقف راشدة وتحريضهم والايحاء اليهم خلافا للتربية العصرية التي يكتفي رجالها بتحليل الظواهر تحليلا علميا موضوعيا تاركين حرية الاختيار لتلامذتهم ... ويبدو ان الزميل الاستاذ تلميذ نجيب للمدرسة التقليدية لانه في حديثه الينا نحن زملاءه لم يطبق طريقة المدرسة العصرية في الاكتفاء بالتحليل الموضوعي للموضوع الذي طرقه تاركا لنا حرية الحكم بل عمد الى دعوتنا دعوة حارة الى الابتعاد عن الاحكام الاخلاقية وطفق يلقي علينا الاوامر والتوجيهات من فـوق فكرر «نحن مطـالبون بـالابتعاد .. ومـدعوون الى التحليل ...» واملى علينا اسلوبه في تحقيق ذلك «وذلك بذكر الاسباب وتوضيح المحيط ... ثم نترك لتلامذتنا الحرية في الحكم» اما نحن زملاءه فلم يترك لنا الحرية في اعتنـاق اسلوبه وانما «نحن مطالبون» بذلك .

ارادة نقل الاعتقاد ظاهرة انسانية

وهذه الملاحظة المتعلقة بالاسلوب الذي توخاه الاستاذ تخفي وراءها ظاهرة انسانية يصعب ان يغالبها احد لأنها جزء من كياننا النفسي وهي ما يمكن ان نسميه : «**ارادة نقل الاعتقاد**» او الرغبة في نقل افكارنا الى غيرنا واقناعهم بها والتوسل بمختلف الوسائل الى ذلك . وما قام به الزميل الاستاذ في مقاله هذا دليل على ذلك . فلقد حاول نقل اقتناع من اقتناعاته الينا متوسلا بمجموعة من المبررات حتى اذا اطمأن الى رسوخها دعانا الى الاقتناع بما اقتنع وحمل الدعوة التي حملها ... أقول هذه طبيعة بشرية لا يمكن التفصي منها وانما على اساسها تم نقل المذاهب والافكار والمعتقدات ولولاها لظل الناس منغلقين عن بعضهم يشبهون مجموعة جزر متناثرة في محيط لا نهاية له ... وفي كل حديث او حوار .

يدور بين اثنين او اكثر محاولة لنقل رأي او لدحض رأي آخر ووراء كل لحن وكل آهة وكل صورة شعرية او زيتية او نشرية تكمن **خلفية اعتقادية** ، نظرة للحياة وللهدف منها وللانسان ودوره وللكون وللقوى التي تتحكم فيه ومهما يبذل الشعراء والفنانون من جهد لاقامة حد فاصل بين انتاجهم وبين معتقداتهم وافكارهم فانهم لا محالة خائبون وحتى من لم يعترف منهم بذلك زاعما ان انتاجه صورة صادقة للطبيعة ووصف موضوعي لما شاهد فهو مخدوع والناقد البصير لا تخفى عليه شخصية الفنان او الكاتب متجسدة بكل ملامحها في آثارهما اذ ان **الانتاج الاصيل هو صورة صادقة لشخصية صاحبه** ومحال ان تنجح في اقامة حاجز بين شخصية الانسان وبين افكاره ومعتقداته واتجاهاته لان الشخصية في جزئها الفعال ليست اكثر من ذلك .

الموضوعية لا وجود لها في الظواهر الانسانية :

وبناء على ما قلنا فان الموضوعية التي يبشر بها بل يتغنى بها الزميل الاستاذ ويريد ان نتوخاها مع تلامذتنا عندما ندرسهم الادب **لا وجود لها في عالم الظواهر الانسانية اذ ليس هناك ادب يمكن ان نصفه بالموضوعية اي انه تعبير صادق عن الواقع فكل ادب هو تعبير عن شخصية اديب معين** وما يحمله من افكار ومعتقدات تزوده بنظرة معينة للحياة والكون والانسان .

كل ادب هو دعوة :

ومن ثم فان كل أدب هو دعوة ، دعوة الى فلسفة معينة للحياة والى قيم اخلاقية معينة والى نموذج انساني واجتماعي معينين ، هذه الدعوة قد تظهرها العبارة سافرة مثل الدعوة التي يظهرها شعر ابي نواس الى اعتبار ان اللذة هي المعنى الحقيقي للحياة وان ليس للانسان تبعا لذلك من غاية فيها الا المتعة :

دع المساجد للعباد تسكنها وهيا بنا الى الخمار يسقينا .

أو دعوة المتنبي الى ان المجد هو القيمة الحقيقية للحياة «المجد كما يتصوره» :

ولا تحسبن المجد زقّا وقينة ... فما المجد الا السيف والفتكة البكر .

أو دعوة ابي العتاهية الى ان الحياة ليست الا فرصة للابتلاء وتهيئة النفس للآخرة .

وقد تكون هذه الدعوة مضمرة تخفيها الزخارف الفنية كما هو الحال عند ابن الرومي الذي يعبر اتجاهه الى الطبيعة واتقانه لوصفها عن نفس كارهة للمجتمع ناقمة على كل

قيمه وشرائعه لم تجد نفسه من البشر من تأنس اليه فاتجهت الى الطبيعة تلوذ برحابها ، كما اتجهت نفس المعري الى العزلة ليعيش رهين المحبسين **فالموضوعية حلم من احلام القرن التاسع عشر طمح اليها العلم في ذلك العصر واقتفت العلوم الانسانية اثره فرنت ببصرها اليها ولكن العلم نفسه في القرن العشرين ارتد عنها خاسئا حسيرا واعترف على السنة اكبر اساطينه (انشتاين) بان جميع معارفنا نسبية** تدخل فيها بنسبة معينة وسائلنا في الرصد والقياس وتدخل عليها نسبة من الخطأ هـذه النسبة نفسها لا يمكن تقديرها بشكل مضبوط وكل ما نقدر عليه هو تقديرها تقديرا نسبيا يضع لها حدا ادنى وحدا اعلى تتراوح بينهما

واذا كانت الموضوعية مستحيلة في عالم الظواهر الجامدة فلا يمكن الحديث عنها في عالم الظواهر الانسانية حيث لم يجد العلم سبيلا لتطبيق قواعده واستخدام وسائله بالقياس.

الفصل بين الأدب والأخلاق !

واذا كان **كل موقف من مواقفنا وكل ضرب من ضروب سلوكنا وكل اثر فني من آثارنا يعبر بشكل سافر او مستتر عن موقف اعتقادي عن فلسفة في الحياة وهو بالتالي دعوة** فكيف يمكن الحديث عن فصل بين الادب والاخلاق بحجة ان «الاخلاق صفات يتحلى بها المرء تجاه خالقه وتجاه نفسه وتجاه الناس» اما الادب «كلام منثور نثرا فنيا او مرسوم رسما شعريا على ورق علينا (لاحظ دعوة الزميل المستمرة) ان نحلل بعده ونكشف صوره الفنية وحسب» .

ان هذه الصور الفنية التي يتحدث عنها والتي هي موضوع الادب في رأيه **هل يمكن ان نجدها معلقة في الفراغ** ؟ ان **كل صورة فنية تحمل مضمونا فلسفيا او اخلاقيا وبالتالي تحمل دعوة** وحتى هواة الفن التجريدي الذين حاولوا ان يجردوا مادة الفن عن مضمونه برسومهم الغامضة الملتوية التي لا يكاد يقرأ فيها المشاهد معنى فقد كانوا بذلك معبرين عن ازمة الانسان المعاصر الذي فقدت الحياة عنده كل معنى وذلك **ان الارتباط بين الشكل والمضمون في الفن محكم متين** ... نعم ان في خمريات ابي نواس صناعة فنية راقية ولكنها اليست تحمل معها الى نفوسنا تصورا معينا للحياة وغاية الانسان فيها تحمله الينا والى تلامذتنا .؟

الرقابة المزعومة على ادبنا :

وبهذا الصدد لا أملك الا ان ابدي اندهاشي امام ما ادعاه الزميل الاستاذ من وجود رقابة مفروضة على ادبنا العربي «فلم نعرف عندما كنا تلامذة ـ حسب قوله ـ ولا يعرف تلامذتنا الا الجوانب المشرقة من الشخصيات الادبية» ولو لم يكن هذا الزعم صادرا عن استاذ للعربية لامكن ان نلتمس له عذرا من عدم اطلاعه على مناهج الادب العربي في مختلف مراحل التعليم وما زخرت به من خمريات ابي نواس وغزليات بشار وابن ابي ربيعة وامرىء القيس ، وقذاعة جرير والفرزدق والحطيئة في الهجاء وتمسح ابن هاني والبحتري وغيرهما على اعتاب الملوك والمستبدين . فاين هي الجوانب المشرقة في كل ذلك ؟ بل أكاد اتساءل ما هي الجوانب المشرقة التي عرفناها من ادبنا مما يجعلني اوشك ان أؤكد وجود هذه الرقابة ولكن على كل ما هو نظيف ومشرق من ادبنا حتى كانت صورة ادبنا لا تعدو ان تكون انفجارا للغريزة وثورة للجسد .

ان الغفلة عن الارتباط العميق بين الشكل والمضمون في الاثر الفني ، بين الصناعة الفنية اي مادة التعبير الفني والخلفية الثقافية الفلسفية والخلقية لذلك الاثر ، هي التي تجعل بعض الناس ـ والزميل الاستاذ منهم ـ ينزلقون الى الظن ان الأدب شيء والموقف الاخلاقي شيء آخر وكأن الاخلاق كما يقول احد كبراءعلماء التحليل النفسي (يونغ) «هبطت علينا في طور سيناء» اي من السماء ولم تنبع من اعماق كياننا فالحس الاخلاقي جزء لا يتجزأ من حياتنا النفسية شأنه شأن كل احاسيسنا وغرائزنا مما جعل يونغ هذا يذهب ردا على استاذه فرويد بأنه اذا كان كبت الغريزة الجنسية يصيب الانسان بشتى الامراض والعقد النفسية فهذا لا يعني بحال ان اطلاقها عامل من عوامل الصحة النفسية لان الذي يحدث عندئذ ان يصاب الانسان المتحلل بامراض نفسية سببها الكبت الاخلاقي .

تكامل القيم :

والقول بان الادب فن يتعارض مع المواقف الاخلاقية التي تأتي من خارج وان استاذ الادب مطالب بأن ينبه الاحساس بالجمال لدى تلاميذه وهم زائف مبعثه الاعتقاد بأن عالم القيم الانسانية متنافر متناحر ، لان القول بأن الادب متعارض مع الاخلاق معناه في

لغة علم القيم ان الجمال متناقض مع الخير تناقضا لا امل في الخلاص منه وهو ما يصادم طموح البشرية من اقدم عهودها للجمع بين القيم الانسانية الاساسية : الحق والخير والجمال او العلم والأخلاق والفن ، طمح الى ذلك فلاسفة اليونان فنادى افلاطون بوحدة هذه القيم في عالم المثل وعمل الاسلام على تحقيقها في عالم الواقع فأشاد بقيمة الجمال فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان الله جميل يحب الجمال . وقال تعالى : «والانعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون ولكم فيها جمال حين تريحون» (سورة النحل) **الا ان الرسول عليه السلام حذرنا من ان يستهوينا جمال قد انقطعت علاقته بالخير فقال عليه السلام «اياكم وخضراء الدمن» قيل وما خضراء الدمن يا رسول الله ؟ قال «المرأة الحسناء في منبت السوء»** .

ان الأدب أو اي فن من الفنون يصبح أداة تخريب وتدمير في النفس والمجتمع والانسانية اذا انقطعت الصلة بينه وبين المثل العليا والاخلاق الكريمة وهو عندئذ المعول الذي يرفعه الشيطان ليجهز به على كل فضيلة في الأمة ويسوقها الى المنحدرات ومن تسمية الامور بغير مسمياتها بل بنقائض مسمياتها دعوة ذلك الفن ادبا وانما الادب من الاحساس المرهف والذوق الجميل والخلق النبيل الا اذا جاز ان نسمي الدعارة فنا والاتجار بالاعراض نبلا والفجور ظرفا وتأدبا . وتلك هي حال الامم في عهود انتكاسها وأفول عزها لا يطفو على سطحها الا الغثاء :

● من زعيم ذلق اللسان ولكنه كذاب وأشر كالذي حكى الله عنه في محكم كتابه «ومن الناس من **يعجبك قوله** في الحياة الدنيا ويشهد الله على ما في قلبه وهو ألد الخصام واذا تولى سعى في الارض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل والله لا يحب الفساد» .

● ومن رجال ادب وفن يبيعون أعراضهم في سوق الدعارة ويشغلون عمرهم بالتهريج والنفاق فما منهم الا متزلف للطغيان يتمسح على اعتابه لينال فتاتا من موائده وعارض شرفه وسمعته حيث تروج هذه البضاعة في اسواق البغاء .

● ورجال فكر وسياسة يفلسفون الدعارة ويسوغون للناس الفساد .

في مثل هؤلاء نقرأ الآيات التي تكشف ما تبقى خافيا من ملامح وجوههم «ومن الناس من يشتري لهو الحديث ليضل عن سبيل الله بغير علم» . لقمان ٦

«ومن الناس من يعجبك قوله ...» البقرة ٢٠٤

«واذا قيل لهم لا تفسدوا في الارض قالوا انما نحن مصلحون الا انهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون» . (البقرة ١١ ـ ١٢)

على ان الأمة ما نكبت بمثل ما نكبت بهؤلاء الذين يعملون على تمزيق وحدة القيم الانسانية وما هزمت الا يوم ان طفا على سطحها هؤلاء فصفقت لهم ضاربة عرض الحائط بتوجيهات ربها ونذره : «ولا تطع كل حلاّف مهين هماز مشاء بنميم مناع للخير معتد اثيم عتلّ بعد ذلك زنيم» والآية ترسم بوضوح انه لا يمكن ان يكون ذا اخلاق كريمة من كانت نفسه غليظة فاقدة للاحساس (عتل) فالجمال ليس زخارف ظاهرية ولا طلاء وبهرجا وثورة عارمة لجسد بقدر ما هو هذا الاحساس المرهف والمشاعر الرقيقة والخلق الكريم ولقد ادرك هذه الحقيقة وكان على يقين منها حتى شعراء الجاهلية ، يقول السموءل :

ليس الجمال بمئزر فاعلم وان رديت بردا
ان الجمال معادن ومناقب أورثن مجدا

واذا كانت اهم صفات النفس البشرية الوحدة فانه مما يتناقض وهذه الحقيقة النفسية الاعتقاد بوجود جمال حيث لا اخلاق وبوجود حق حيث لا خير . وان اتحاد هذه القيم علامة صحة في النفس البشرية ومظهر من مظاهر الازدهار الحضاري وانفصامها شذوذ ومرض في النفس وانهيار وانحطاط في المجتمع . ولقد أكد التاريخ هذه الحقيقة النفسية والاجتماعية ، فكانت سيرة كبار العلماء والفلاسفة صورة ممتازة للفضيلة والاحساس الجمالي الرفيع .. فأفلاطون فيلسوف وموسيقي والشافعي امام مذهب في الشريعة وله شعر رقيق واقبال شاعر فحل وفيلسوف وبيتهوفن موسيقي له نظرة فلسفية وخلق رفيع .

وانما الثقافة السطحية التي تشيعها معاهدنا وجامعاتنا هي التي أوحت لخريجيها بل لضحاياها بهذا المبدأ الخطير ، مبدأ انفصال القيم الاساسية فطفقوا يدافعون عن ادب الانحلال ويرفعون فوق رؤوس الداعرين والماجنين تيجان البطولة والفخار .

رفع التباس :

وتأكيدنا الملح للارتباط العميق بين القيم الانسانية ، بين الاثر الفني وما يخفيه وراءه من قاع فلسفي وما يحمله من دعوة الى نمط من انماط الحياة الاجتماعية والاخلاقية ليس يعني بحال اننا ندعو الى ان يصبح درس الادب او غيره تحريضا سافرا وحملا للتلاميذ على اتخاذ موقف اخلاقي او سياسي او ديني او فلسفي فليس بذلك تقضي قواعد المناهج التربوية . وما اظن ذلك هو الامر الواقع في معاهدنا وجامعاتنا وانما الامر الواقع في كثير من الاحيان ان يتخذ درس «الادب» فرصة للانقضاض على الماضي وتسخيفه وعلى القيم الاخلاقية ودكها واغتنام ذلك الدرس لدغدغة الغرائز وايقاظها والترغيب في كل ما هو سافل منحط .

الأدب كمواقف انسانية :

وانما الذي يتيقن من سداده ان يتولى منهاج الادب مثلا عرض مجموعة من النصوص الادبية التي تعرض الانسان في مواقف متنوعة : موقف الارتفاع وموقف الهبوط وموقف الصراع بين ذا وذاك ، الموقف الذي ينتصر الانسان فيه على نفسه ، على جانبه الحيواني فيرنو ببصره الى القيم العليا والمثل الكريمة والموقف الذي يضعف فيه فتزل به قدم بعد ثبوتها فيتهالك على اللذائذ والشهوات او على الاحقاد والاطماع .

ان الأدب ينبغي ان يكون شاشة تعرض الانسان في مختلف حالاته النفسية ، تعرض الانسان مع عنترة والمتنبي ودعبل الخزاعي والشابي وهو يصارع اوضاعه الاجتماعية والسياسية في معركة الحرية وتحقيق الذات وتعرض الانسان مع جرير والفرزدق وهو يضيق امامه أفق الانسانية فلا يرى الحق والباطل الا من خلال وضعه القبلي الضيق ، وتعرض الانسان مع امرىء القيس وابن ربيعة وبشار وابن زيدون وأبي نواس ونزار قباني وسلم القيم يهتز في نفسه بتأثير أوضاع معينة فما يرى في سفر الوجود غير كلمات اللذة والمتعة ... الخ .

لا بد من تحديد النموذج الانساني :

ولكن هذه النماذج لا يمكن ان تكون لها اهميتها التربوية في شخصية التلميذ الا اذا عرضت من خلال نموذج انساني حددت معالمه وهدفه في الحياة فلسفة التربية في البلاد وهنا اجدني مدفوعا الى ان اكرر ما بدأت به في مقدمة حديثي هذا : **ان المشكل الحقيقي للتربية في بلادنا هو غياب الفلسفة التربوية لدى رجال التخطيط والتنفيذ التربويين** ، الفلسفة التربوية التي تحدد معالم النموذج الانساني الذي نريد من جهازنا التربوي ان يعمل على تخريجه وغياب هذا النموذج يجعل عملية التربية في بلادنا اقرب الى التكديس منها الى البناء .

واذا كان النموذج الانساني في امة ما يتحدد على ضوء تاريخ تلك الأمة وما ترسب فيه من قيم ونشأ فيه من عادات وأذواق وعلى ضوء واقعها وما يتطلبه من حلول لمشكلاتها ومستقبلها وما يزخر به من مطامح وآمال في النفوس ، فاننا مهما اجهدنا انفسنا في البحث عن هذا النموذج للانسان التونسي فلن نجده بعيدا عن قلبه ولسانه ، عن الاسلام عقيدة ومنهاجا للحياة وعن العربية لسانا مبينا وشكلا لمحتواه ، ومهما بحث فلاسفة التربية في بلادنا ورجال الفكر والسياسة عن انسان تونسي بعيد عن العربية لسانا والاسلام قلبا ومضمونا فلن يجدوا امامهم غير الفراغ والضياع : «وقال الرسول يا رب ان قومي اتخذوا هذا القرآن مهجورا» الفرقان ٣٠

(١) ارجع الى المعرفة عدد ٤ السنة ٢

من جديد .. نحن والغرب

- ☐ كيف نشأت وتطورت علاقتنا بالغرب؟
- ☐ لابد من طرح جديد لمشكل الغرب.
- ☐ الانسان هو الفكرة المركزية في كل حضارة.
- ☐ النتائج الايجابية لفلسفة الانسان في الغرب.
- ☐ النتائج السلبية لفلسفة الانسان في الغرب.
- ☐ أسس حضارة الاسلام.
- ☐ انحطاط الحضارة الاسلامية.

« المعرفة » ع ٩ س ٤ – ٧٨/٨/١
« المعرفة » ع ١٠ س ٤ – ٧٨/١٠/١
« المعرفة » ع ١ س ٥ – ٧٨/١١/٢٠

من جديد .. نحن والغرب

تعالت في غضون السنوات الاخيرة من داخل صف الاسلاميين ومن خارجه دعوات ملحة للمعاصرة فانشئت المجلات وألفت الكتب والتفاسير وتكونت تيارات لهذا الغرض ، مثل مجلة «المسلم المعاصر» ، و«التفسير العصري للقرآن» لمصطفى محمود ، و «الاسلام بنظرة عصرية» لجواد مغنية و «الدين والدولة العصرية» للشرقاوي ، و «الاسلام والتطور» لعثمان امين و «تجديد الفكر العربي» و «ثقافتنا في مواجهة العصر» لزكي نجيب محمود، الى جانب عدد كبير من الدراسات التي اصدرتها المؤسسة العربية للدراسات والنشر ذات الاتجاه اليساري مثل «عمر نظرة عصرية» «علي نظرة عصرية» «محمد نظرة عصرية».

واذا كان الغرب بمفهومه الحضاري (الرأسمالي او الاشتراكي) هو الذي يقود العصر فالدعوة للمعاصرة لا يمكن ان تفهم بغير الاتصال باوروبا ذلك ان العصر – كما يرى طه حسين وبطرس البستاني – هو عصر اوروبا وانه من الضروري لكي نكون عصريين ان نوطد الصلة بها (١) .

ونظرا لما لهذا الموضوع (موضوع علاقتنا بالغرب) من اهمية بالغة في تحديد مسار الدعوة الاسلامية وتوضيح كثير من المفاهيم التي ارتفعت اصوات الجدل حولها داخل الصف الاسلامي وخارجه، رأينا لزاما علينا اعادة طرح هذا الموضوع علّنا نساهم في توضيح الرؤيا وتحديد المسار لانطلاق مشروع حضاري اسلامي

فكيف نشأت وتطورت علاقتنا مع الغرب ؟

ما هي الاسس التي قامت عليها حضارة الغرب ؟ وما موقف الاسلام منها ؟

ما هي الضرورات الملحة للاتصال بحضارة الغرب ؟

ما هي المحاذير التي نشأت وتنشأ عن هذا الاتصال ؟

ما هي الضمانات لكي يكون هذا الاتصال مولّدا للطاقة الحضارية عندنا لا مدمرا لها ؟

تلك هي القضايا الاساسية التي سنلقي عليها – تباعا – بعض الاضواء لتجلية هذا الموضوع والله ولي التوفيق

كيف نشأت وتطورت علاقتنا بالغرب ؟

لقد كان «تهافت» * الغزالي وسيف صلاح الدين كافيين لاغلاق ملف علاقتنا مع الغرب لمدة تربو عن الخمسة قرون ، اكتشف فيها الغرب ذاته خلال صراعه مع العالم الاسلامي فاستوعب المنجزات الحضارية لهذا الاخير وصفّى حساباته مع الكنيسة وقيمها المعطلة ، فانطلق على متن عقله يجوب الافاق ويكتشف ويسيطر على حين كان العالم الاسلامي قد اصابه الاعياء فاستسلم للنوم . لا يتحرك الا متنقلا من نشوة خمرية نواسية الى نشوة صوفية عتاهية .

ولم يصحُ من غطيطه الطويل الا على مدافع الغرب تدك كهوفه المتداعية وتقوض مؤسساته فتصدمه في كبريائه وطمأنينته الزائفة الى سلامة اوضاعه وهكذا فتح ملف الغرب من جديد .

المشكلة الكبرى :

ومنذ النصف الثاني من القرن التاسع عشر كانت المشكلة الكبرى التي شغلت رجال الفكر والسياسة في العالم ا[illegible]مي هي مشكلة هذه القوة الجبارة : الغرب ما حقيقته ؟ ما سر تفوقه ؟ كيف نتعامل معه ؟ ماذا يجب ان نأخذ من افكاره لاحياء مدنيتنا واكتساب القوة اللازمة وللدخول في العالم الحديث دون خشية الذوبان ؟ الى أي مدى يمكن ان نتفتح على الغرب مع بقائنا مسلمين ؟ بل ان المشكل اتخذ حدة اكبر في كثير من الاحيان لدى عدد كبير من المفكرين المسلمين فطرحوا هذا السؤال في اشكال مختلفة : ما هو الجوهري في الاسلام الواجب الاحتفاظ به وصيانته لصيانة شخصية الأمة ؟ وما هو العرضي الذي يمكن التخلي عنه دون مساس بالحقيقة الاسلامية ؟ تلك هي المشكلة الكبرى التي شغلت طوال قرن او يزيد رجال الفكر والسياسة في العالم الاسلامي مثل خير الدين التونسي والطهطاوي وعبده والافغاني والطاهر الحداد والكماليين في تركيا والدستوريين في تونس الى جانب رجال الحركة الاسلامية المعاصرة : محمد اقبال والمودودي والامام الشهيد حسن البنا وسيد قطب ومالك بن نبي .

ولقد كانت الاجابات عن هذا المشكل مختلفة وباختلافها اختلفت الاتجاهات الفكرية والسياسية في العالم الاسلامي حتى لكأن هذا المشكل الاصل وكل الاختلافات والصراعات في دنيا الاسلام فروع له .

والمشكل لا يزال قائما

رغم ان حدته قد خفت خلال الربع الثالث من هذا القرن ، اذ اتجه العالم الاسلامي في عمومه صوب الغرب ينقل مؤسساته في السياسة والحكم والادارة والتشريع والعمارة والفنون والآداب ، ويحاصر بقية الحصون التي تحصن بها الاسلام على المستوى الاجتماعي كالتشريعات المتعلقة بالأسرة ومؤسسات التعليم الاسلامي حتى هذه فقد اطيح بها في بعض البلدان الاسلامية . والمطالبات بذلك ترتفع بين الحين والآخر لدى البقية ، ورغم ان الحياة في البلاد الاسلامية ـ على مستوى السطح على الاقل ـ قد اصطبغت بصبغة غربية واضحة في الأزياء والعمارة وتنظيم البيوت واقامة الحفلات وحتى الاعياد الدينية الغربية مما يوحي بان العالم كله يتجه بقوة الى نمط واحد من الحياة مركز قيادته الغرب وان العالم الاسلامي لا يشكل في ذلك استثناء وشذوذا في هذه السمفونية التي يعزفها الغرب، فالانهيار متواصل بسرعة مذهلة ! ،،

رغم كل ذلك فان المشكل لا يزال قائما خلافا لما ذهب اليه مؤلف كتاب «الفكر العربي في عصر النهضة» (١٧٩٨ـ ١٩٣٩) من ان مشكل العلاقة مع الغرب وهو المشكل «المسيطر على تفكير الحقبة التي عالجها هذا الكتاب كان قد اضمحل» بل تزعم ان المشكل لا يزال قائما باسماء وعناوين واشكال مختلفة ، فعلى الصعيد الاقتصادي اتخذ هذا المشكل شكل «الحوار بين الشمال والجنوب، وعلى الصعيد السياسي ظهر باسم «العالم الثالث» تمييزا له عن الغرب الرأسمالي والغرب الشيوعي ، وعلى الصعيد الثقافي والاجتماعي والسياسي داخل العالم الاسلامي انطلقت قوى الرفض للغرب الدخيل وثقافته في شكل حركات ودعوات اسلامية فردية وجماعية يزيدها طغيان الانماط الغربية توترا وحدّة . وتقدّم لها كل تجربة لسياسة غربية فاشلة في المنطقة الاسلامية دعما قويا لقضيتها : الاسلام رب الدار ، فكيف تقضي الحاجات في غيبته ؟ للاسلام منهج خاص في العقيدة والتشريع والخلق .. وتلاقي هذه الدعوات اقبالا شعبيا متزايدا ، حتى غدا الكتاب الاسلامي أكثر الكتب رواجا مما يجعله البضاعة النادرة التي تتنافس دور النشر على التعامل معها .

وبالمقابل لا يزال الاسلام يتعرض لغارات متواصلة انطلاقا من قواعد الهجوم الطارف منها والتليد (الالحاد ، اليهودية ، الصليبية ، وما تمثله من مصالح) فضلا عن امتداداتها في العالم الاسلامي .. فهؤلاء جميعا من يحاربون لو كانت قضية الاسلام انتهت بالنسبة للغرب ؟ وانما هي الحقيقة الاسلامية تفصح عن كنوزها وتشرق بانوارها

على عالم الضياع والدمار فتهفو اليها القلوب وتشرق بالامل .. تلك الحقيقة لم يستطع الغرب باسلحته الماضية ترويضها او تطويعها فاضطر للاعتراف بها وتغيير اسلوب التعامل معها .. فلا عجب بعد ذلك ان تقرأ لقادة الغزو الفكري من طلائع الغرب كتبا ومقالات تتمسح بالاسلام وتدافع عنه وهي انما ترفع التهمة عن نفسها فتصف الاسلام بانه دين تقدمي او اشتراكي او ديمقراطي، وتنادي لاسلام يساري ولمسلم شيوعي، وعلى ما في هذه الدعوات من خداع مكشوف او بساطة مثيرة للشفقة فان دلالتها واضحة في :

١) ان الحقيقة الاسلامية على المستوى الشعبي امر واقع لم يعد هناك مجال لانكاره .

٢) ان محاولة علاج مشكلات العالم الاسلامي بعيدا عن الاسلام قد غدا ميؤوسا منها .

٣) ان استخدام ما تملكه الحضارة الغربية من تقنيات اعلامية وسياسية واقتصادية لئن نجحت في طمس شخصيات بعض الشعوب فهي امام الشخصية الاسلامية تلاقي عقبات كثيرة .

٤) ان انهيار العالم الاسلامي الذي ظل متواصلا على صعيد الاوضاع السياسية والاقتصادية المعبرة عن محاكاة الغرب يبدو انه قد بلغ منتهاه من السقوط في حرب ٦٧ وزيارة السادات للقدس ، وان ساعة الانطلاقة الحضارية للاسلام قد حانت وسط عالم منهار ، فانهيار الاوضاع القائمة في العالم الاسلامي وفشلها في حل المشكلات المطروحة قضية لا تحتاج الى دليل لانها مشاهدة ،، اما العالم الغربي المتمرد على الله فقد انتهى به تقدمه الصناعي بقيادة العقل الى انهيار أشد خطرا على الانسان والحضارة من سابقه .

يقول الدكتور زكي نجيب محمود ، الذي لا يمكن اتهامه بانه جاهل بالغرب او معاد له : «اننا لنبصر باعيننا ونلمس بأيدينا ، كيف انتهى العلم الطبيعي وهذه الصناعة الى حالة من العرج الحضاري ، فكأنما هي تحجل على ساق واحدة ، حتى لقد اعلنوها صريحة بانهم لم يعودوا يطيقون العقل والمعقول . واندفعوا وراء اللامعقول والعبث .» (٢)

كل ذلك يجعل مشكل علاقتنا بالغرب يحتفظ باهميته كمشكل رئيسي من مشكلاتنا الراهنة لا يمكن تجاهله في اي عملية تغييرية في العالم الاسلامي .

لا بد من طرح جديد لهذا المشكل :

ونظرا لعدة اعتبارات سنذكرها ينبغي ان يعاد طرح هذا المشكل من جديد انطلاقا من مواقع جديدة بعيدا عن ردود الافعال .

١ ـ فلقد كان هذا المشكل يطرح من طرف العديد من المفكرين المسلمين تحت ضغط السيطرة المباشرة للغرب المهددة بتذويب الاسلام في اطار النصرانية والعقائد الغربية عموما فكان موقف الرفض هو الموقف الطبيعي دون تحليل دقيق لمكونات الغرب .

اما الآن فقد انحسرت الموجة الاستعمارية في اشكالها المباشرة ـ على الاقل ـ فالموقف يجب ان يتغير في اتجاه الحوار الواعي مع الغرب .

٢ ـ ولقد كان مشكل العلاقة مع الغرب يطرح من طرف فئة غير قليلة من المفكرين الاسلاميين انطلاقا من موقع الاعجاب بالغرب الذي كانت تقنياته ووسائل اتصالاته تبهرهم وتترك في انفسهم انطباعا ملخصه : ان الغرب هو العالم الامثل ، بل وعلينا ان نصبح اوروبيين في كل شيء ، قابلين ما في ذلك من حسنات وسيئات،علينا ان نسير سيرة الاوروبيين ونسلك طرقهم لنكون لهم اندادا . ولنكون لهم شركاء في الحضارة خيرها وشرها ، حلوها ومرها ، وما يحب منها وما يكره وما يحمد فيها وما يعاب» (٣) .

ويقول البرت حوراني : «ان خير الدين يرسم تقدم اوروبا بريشة معجب وهو كالطهطاوي قد وقع بنوع خاص تحت تأثير وسائل النقل الحديثة» (٤) حتى غدت مهمة المفكر المسلم خلال المرحلة الاولى لاتصالنا بالغرب ان يدلل بكل الوسائل على ان الاسلام مطابق للمدنية الحديثة «فوجد كمحمد عبده يقرّ اوروبا على ادعائها انها كشفت قوانين التقدم والسعادة الاجتماعيين لكنه يذهب الى القول بان هذه القوانين هي قوانين الاسلام» (٥) وان مهمة رجال السياسة والفكر وضع العالم الاسلامي في طريق الغرب «اللحاق بركب الامم المتقدمة» كما هي العبارة المكررة عندنا .

هذا الموقف الذي يجعل طائفة من الامة في وضع المعجب الموله بالغرب ويجعل طائفة منها في موقف المعارض الرافض للغرب جملة قد تغير :

١ ـ بانتشار التعليم في العالم الاسلامي الذي جعل الجيل الجديد يعرف ان قوة الغرب في تقنياته وان هذه التقنيات في متناول كل البشر فليس الغرب اذن قوة جبارة تتحكم في العالم بطريقة غامضة .

٢ ـ ان حربين عالميتين مزقتا اوروبا شر ممزق وايقظتا الحالمين في العالم الاسلامي ممن لا يزالون على قيد الحياة ، اظهرتا ان قدرة الغرب حتى في السيطرة على نفسه محدودة، فضلا عن اخبار الازمات الاجتماعية والنفسية والاقتصادية التي شاعت .

٣ ـ ان استعادة الفكر الاسلامي لوعيه بحقيقة ذاته ووعيه بالآخر جعلت الانبهار بالغرب يتقلص والاعتزاز بالشخصية الاسلامية ينمو والتفكير في ان حاجة الغرب للاسلام لا تقل عن حاجة المسلمين للغرب يفرض نفسه شيئا فشيئا .

٤ ـ مواقف الغرب الاستعمارية ومؤامراته للظلم وجشعه في سلب ثروات الشعوب ومؤازرته للمغتصبين في فلسطين جعلت المسلمين يعودون الى انفسهم يحاولون اكتشاف حقيقتها ويراجعون مواقفهم ويصابون بخيبة امل في المثل العليا التي نادى بها الغرب الرأسمالي والاشتراكي والتي كان اول الخائنين لها .. مثل الحرية والاخوة والمساواة .

والنتيجة :

انه قد ءان الأوان لنطرح علاقتنا بالغرب تاركين مواقع ردود الافعال ومركبات النقص والغرور ، يحدونا الامل للمساهمة في وضع مشروع حضاري اسلامي يستعيد به المسلمون موقفهم كقوة كبرى في العالم تهدي الى الحق والعدل والخير والحرية وتنقذ مكاسب الانسانية من الضياع والدمار .

ملاحظة هامة : ولا يفوتنا هنا ان نلاحظ ان حديثنا عن الازمات الحادة التي تعيشها حضارة الغرب والتي يبدو انه لا امل في شفائها مثل حديثنا عن انهيار الاوضاع في العالم الاسلامي مثل حديثنا عن بوادر البعث الاسلامي لا ينبغي بحال ان يغدو مروحة صيف في يوم قائظ تغري الامة بالنعاس من جديد .. ذلك ان انهيار الغرب وامتداداته في العالم الاسلامي لا يعني بالضرورة ان اوضاعنا جيدة واننا سنكون بالضرورة نحن الوارثين فانما يقود العالم اصلح من فيه اي اقدره على حل مشكلاته وان المفتاح الصالح هو الذي يحل القفل «ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر ان الارض يرثها عبادي الصالحون» (٦) واذا كنا باسلامنا اصلح عقيدة وفكرا فهل نكون الاصلح عملا وسلوكا ووعيا بمشكلات عصرنا او قدرة على حلها في الاطار الاسلامي ؟

الانسان هو الفكرة المركزية في كل حضارة

لكل حضارة منجزاتها، وهذه المنجزات هي مجموعة الوسائل التي يحصل بها الانسان على حاجاته الأساسية كالغذاء والدفاع والسكن والتنقل والزي،، ويعبر بها عن إحساسه الجمالي والخلقي والديني، وليست هذه الوسائل أو المنجزات الا التجسيد الفعلي لمجموعة التصوّرات والقيم التي تنطوي عليها تلك المجموعة البشرية.

وأهم هذه التصورات ذات الأثر الفعال على النشاط الحضاري للانسان تصوره لنفسه . انّ الفكرة الأساسية المركزية في كل حضارة هي صورتها عن الانسان : ماهيته؟ مصدره؟ غايته؟ قيمه؟ موازين الحق والباطل والخير والشر عنده؟ وانطلاقا من هذه الفكرة المركزية تتلون الحياة كلها بلون واحد.. فحضارة الغرب ليست هي الطائرة والصاروخ والقنبلة والمصنع والمرقص والمختبر والبرلمان والديمقراطية والاشتراكية والرأسمالية وفلسفة الوجود وظاهرة الهيبي والتنانير القصيرة «المينجوب» والسيطرة الاستعمارية، والفن التجريدي وأدب اللامعقول.. ليست هذه حضارة الغرب وانما هي مجموعة **الأفكار الفعالة** في هذه الحضارة العتيدة التي بسطت أجنحة سيطرتها على المعمورة أو تكاد ، والتي أوقعت الانسانية في سلسلة من **الأزمات**. قلنا الافكار الفعالة على اعتبار انه في حقل كل حضارة تنمو أفكار شتى ولكن الذي يعني الدارس منها تلك التي لها تأثير في توجيه سلوك الناس ونشاطهم الجماعي ويبقى بعد ذلك في كل حضارة مجموعة أخرى من الافكار والقيم تعيش على هامش الحضارة اذ يقتصر مجال تأثيرها على أفراد محدودين.

فما هي إذن الأفكار الفعالة في حياة الرجل الغربي ؟ وما هي نظائرها في الحضارة الاسلامية؟

أهم هذه الافكار تدور حول :

ـ الايمان بالانسان

يقول الاستاذ هشام جعيط : «ان النظرة التقليدية الغربية للتاريخ نظرة ايديولوجية بحتة. فهي تعترف بوجود حضارات أخرى في الماضي مندرجة في خضم التاريخ.. لكنها تستخرج من مسيرة الانسانية خطا تطوّريا ممتازا هو الخط اليوناني فالروماني فالاوروبي والذي يمكن التعبير عنه بالغرب التاريخي والحضاري المتميز بكونه **حضارة الانسان** ، حضارة الحركيّة والتّغير حضارة مركبة توجت في ءاخر مرحلة باكتشاف العصرانية الصناعية» (٧)

فمنذ أن حول سقراط نظر الانسان من السماء الى الأرض، ومن الطبيعة الى الفكر داعيا أياه بقوة «إعرف نفسك » منذ ذلك الوقت والانسان (ماهيته، مصيره، مصدر سعادته) مركز اهتمام الفكر الغربي الى يوم الناس هذا. مع شيء من التغاضي عن العصر الاوروبي الوسيط الذي سادت فيه مفاهيم الكنيسة وفقد الانسان ايمانه بنفسه وقدراته وتحول اهتمامه من الارض الى السماء. حتى اذا أطل عصر النهضة بأنواره خاض الانسان الغربي صراعا مريرا ضد الدين ومؤسساته حتى استرد ايمانه بنفسه وألجا

الرهبان الى كنائسهم متخلين عن مركزهم القيادي في نطاق الفكر والمجتمع، يبحثون لهم عن ملجأ في أغوار الضمير يتحصنون به ينتظرون الأجل المحتوم ، واذا كانت الأفكار الفعالة في الحضارة الغربية حول الانسان تلتقي عند نقطة واحدة : الايمان بالانسان.

فماذا يعني الايمان بالانسان؟

آ ـ الايمان بقدرته اللامتناهية على المعرفة، معرفة نفسه ومعرفة الكون من حوله، سواء كان ذلك عن طريق العقل المجرد كما هو الأمر عند الاغريق أو عن طريق ما يدعوه غاستون باشلار بالعقل المطبق «التجربة» كما هو الحال في الغرب الحديث.. فليس أمام قدرات الانسان على المعرفة حدّ. ونقتبس الفترة التالية ذات الدلالة الواضحة على ثقة الانسان في قدراته ووسائله على المعرفة وأصراره على دفع عجلة التقدم مهما كانت الصعاب.

يقول بافلوف صاحب نظرية: «المنعكس الشرطي»

«حين بدأنا عملنا وبعد بدئه بزمان طويل كنا نشعر بأن العادة تفرض علينا تفسير موضوعنا تفسيرا سيكولوجيا، وفي كل مرة كان البحث الموضوعي تصادفه عقبة أو حين يوقف بسبب تعقد المشكلة كانت تنبت شكوك في صحة طريقتنا الجديدة، ومع تقدم بحثنا صار ظهور هذه الشكوك أقل حدوثا بالتدريج.. واني الآن لراسخ الاقتناع بأن هذه الطريقة ستؤدي الى أن يحرز العقل البشري نصره النهائي على مشكلته المستعصية الكبرى وهي الطبيعة البشرية ءاليتها وقوانينها. وعن **هذا الطريق وحده** يمكن أن تُقبل سعادة دائمة كاملة»(٨)

ب ـ واذا كانت قدرات الانسان على المعرفة غير محدودة فقدراته على تحويل هذه المعرفة الى وسائل للسيطرة على الطبيعة وتسخيرها في مأربه هي الاخرى لا حدّ لها.

يضيف بافلوف الى ما سبق قوله: «فليمض العقل من نصر الى نصر على الطبيعة التي تحيط به، وليخضع للحياة والنشاط البشري، لاسطح الأرض وحده، بل كل مايقع بين أغوار البحار وأقصى حدود الفضاء وليسخر لخدمته طاقة هائلة يطير على أجنحتها بين أجزاء الكون وليعدم عنصر المكان في نقله آراءه ومع ذلك فان نفس المخلوق البشري مدفوعا بقوى الظلام الى الحروب والثورات وما فيها من هول، سينتكس الى الحالة الوحشية، وانه العلم، العلم الصحيح بالطبيعة البشرية ذاتها، والتوصل الى فهمها باستخدام الطريقة العلمية **القادرة على كل شيء هو وحده** الذي يستطيع انقاذ الانسان من ظلامه الحالي ويطهره من عاره في مجال العلاقات البشرية في العصر الحاضر»(٩)

ج ـ الانسان مقياس الاشياء جميعها:

كلمة رددها الفلاسفة وعلماء الاخلاق والأدباء حتى غدت بديهية من البديهيات في تأكيد الذات وحقها الطبيعي في أن تكون الميزان النهائي، ـ يرى ديكارت ـ وهو احد كبار مؤسسي حضارة الغرب ـ ان المعنى الوحيد لكوني موجودا أني أفكر ومن ثم فينبغي علي «الا أتلقى شيئا على أنه حق **ما لم يتبين لي** من جميع الوجوه انه كذلك ،أى أن أعتني بتجنب **التَعجَل والتَشبّث** بالاحكام السابقة وألاّ ادخل في أحكامي الاّ ما يتمثل **لعقلي** في وضوح وتميز لا يكون لدي معهما اي مجال لوضعه موضع شك» (١٠) واذا كان الانسان مقياس الأشياء جميعها فليس من حق أية سلطة التدخل في تحديد **سلوكه** وتوجيه **فكره** في أي ميدان من الميادين .

يقول وليم جيمس أحد كبار الفلاسفة وعلماء الاخلاق والنفس الامريكيين:

«ان الانسان هو مصدر الخير والشر والفضيلة والرذيلة،، ان الخير خير بالنسبة له والشر شر بالقياس اليه،، ان الانسان هو الخالق الوحيد للقيم، وليس للأشياء قيمة خلقية إلاّ باعتباره هو » (١١)

والدين نفسه من وضع الانسان . يقول جون لوك، أحد كبار فلاسفة الانقليز:

«ان الدين فردي خاص، معينه في نفسي واستنبطه من ذات نفسي،، ويستحيل على انسان ءاخر في الدنيا بأسرها ان يهديني في الدين صراطا مستقيما اذا لم تهدني نفسي»(١٢)

ويؤكد هذا الاتجاه القائم على الاعتزاز بشخصية الانسان وعقله الفيلسوف الأمريكي توماس بين : «فكما ان للطبيعة قوانينها فكذلك للانسان قانونه . وقانونه هو قانون الاخلاق ، والفعل في كلتا الحالتين هو كاشف الغطاء عن تلك القوانين التي ليست من خلقه وان تكن من كشفه فاذا اردت ان تعرف كيف ينبغي للانسان ان يسلك وان يفكر في السياسة، وفي الاقتصاد وفي العبادات وفي كل جانب من جوانب الحياة، فعليك بالعقل يكشف عما يحقق الاطراد والاتساق والنظام،، ولاتركن في ذلك الى حكم تحكم به الحكومة أو فتوى يفتي بها رجال الدين»(١٣)

فالايمان بالعقل عند «بين» هو ايمان بالاطراد والاتساق والنظام في الطبيعة والنفس والمجتمع. اي الايمان بأن هذه القطاعات كلها تحكمها قوانين وتربطها علاقات ثابتة من الأسباب والمسببات مهمة العقل أن يكتشفها ليخضعها لارادته.

ـ ولقد بلغ هذا المذهب أوجه ابّان الثورة الفرنسية فيذكر لنا «والتر» حادثة تصور مدى التطرف الذي حققته أوروبا في عبادتها للعقل. يقول: «عُلّق المنشور الثاني زمن

الثورة الفرنسية في قرية HAUTVILLERS : ابتداء من الغد على مواطني ومواطنات هذه القرية أن لايعترفوا بأيةعبادة باستثناء عبادة العقل والحرية والمساواة، وأما مبنى الكنيسة الذي أغلق الآن فسوف يصبح معبدا للعقل ويخصص منذ الآن للاحتفال بالاعياد الوطنية»(١٤)

والفكر الاوروبي لئن اختلف رواده في تحديد ماهية الانسان هل هو عقل أم هو تركيب بيولوجي معقد أم هو كائن أجتماعي او تاريخي أم هو آلة انتاج ام هو قلق وابداع ام هو مجرد حيوان متطور فالجميع يتفقون على أن سلطة الانسان فردا كان او مجتمعا هي العليا وحتى اذا كان الله موجودا فلا دخل له في حياة الانسان، فالانسان كما يقول سارتر «متروك لنفسه» لانه الكائن الوحيد الموجود لذاته وبذاته.

د ـ الانسان موجود بذاته

لقد انتهى الصراع ضد الكنيسة في أوروبا الى عزل الدين عن حياة الفكر والمجتمع.. ولم يحتفظ النقد الديني في القرن الثامن عشر الله بغير صفته كخالق، وحتى هذه الصفة لم يرتح العقل الغربي المفعم بنشوة الانتصارات العلمية والحامل لتراث ثقافي عريق من الصراع ضد الآلهة وضد الدين ومؤسساته، فما ان اذاع الداروينيون نظريتهم في نشأة الانسان بدون تدخل ارادة عليا حتى تلقفتها الأقلام والألسن تبشر بها وتدعو اليها وتعتبرها أكبر أنتصار حققه العلم. ولقد فرضت هذه النظرية نفسها كما يقول (راسل) «لا بين رجال العلم وحدهم بل بين جمهور المتعلمين كله»(١٥) ولم يستطع النقد العلمي الجذري الذي وجه لهذه النظرية ان يزحزحها عن موقعها كنظرية علمية رائدة، وما ذلك الا بسبب ما تشيعه في نفس الانسان الغربي من حاجة لاثبات الذات والتمرد على الكنيسة وعلى كل قوة تعلو الانسان.

فالانسان من حيث هو كائن بيولوجي تكلفت قوانين الطبيعة بخلقه!

أما من حيث هو كيان نفسي وثقافي فبالفكر كما هو عند ديكارت وبالحدس عند برجسون وبالعمل كما هو عند سارتر وماركس يوجد نفسه ويحررها..

يقول سارتر: «الانسان هو خالق لنفسه وحده متصوّر لها.. انه موجود أو قضي عليه ان يكون موجودا.. انه في البدء لا شيء، وهو لا يوجد الا فيما بعد حين يعمل، وفي عمله يصنع نفسه ويحددها، وهو لذلك مسؤول مسؤولية صميمية عما يعمل» (١٦)

ولكن هو مسؤول أمام من ؟ امام ذاته لانه الكائن الوحيد الموجود لذاته

هـ ـ الانسان موجود لذاته

لم يوجد من أجل أى غاية أخرى على ان كل مافي الوجود هو وسائل يحقق بها الانسان ذاته. يقول كانط : «اعمل كما لو كنت تعامل الانسانية في شخصك وفي اي شخص ءاخر كغاية لا كوسيلة» (١٧)

واذا لم يكن في الوجود من قيمة اعلى من الانسان تستحق ان يرنو الانسان اليها ببصره ويجتهد في ارضائها والتضحية بنفسه من اجلها على اعتبار ان الانسان هو القيمة العليا،، فان «أندري جيد» لا يجد ما هو أفضل من هذه النصيحة للانسان «كن مخلصا لنفسك» ابحث لها عمّا ينفعها ويسعدها ويجلب لها اكثر ما يمكن من اسباب السعادة اذ لم يبق ما هو اسمى منك بعد ان ماتت الآلهة بعد صراع مرير معها،

يقول نيتشة يتحدث عن هذا الانسان المتفوق:

«لقد ماتت جميع الالهة فلم يعد لنا من أمل الاّ بظهور الانسان المتفوق

«مافوق الاله هو الانسان الجديد

اني احب أولئك الذين لا يبحثون وراء النجوم عن علة يموتون من اجلها»(١٨)

والخلاصة : ان الفكرة المركزية في الحضارة الغربية هي الايمان بالانسان كسيّد يحكم عالمه بما يملكه من ارادة وعقل وتقنيات، وهو نزّاع الى فهم عالمه والسيطرة عليه وتسخيره لمآربه وفي الوقت نفسه يطمح الى فهم ذاته وخلقها خلقا آخر بجهده وعمله. واذا كانت الثقافة الغربية التقليدية ترسخ في الانسان احساس العجز امام قوى الطبيعة وما وراء الطبيعة، فان الثقافة الغربية الحديثة تدفع بالانسان دفعا الى استشعار التفوق تجاه القوى الطبيعية والاستقلال بل والتمرد عن كل قوة خارجية.

وهذه النظرة للانسان هي التي يمكن ان تفسر ما حققته الحضارة الغربية من تحكم وسيطرة في المكان والزمان والى حد بعيد في الانسان كذلك. وفي الوقت نفسه تقدم تفسيرا لما تعانيه هذه الحضارة من ازمات،،

فما هي هذه النتائج الايجابية والسلبية لهذه النظرة؟

النّتائج الايجابيّة لفلسفة الانسان في الغرب

١ـ حررت الانسان الغربي من الاحساس بالعجز أمام قوى الطبيعة وشعور التهيب والقداسة تجاهها ودفعته بقوة الى تحليلها وتركيبها وتسخيرها لمآربه . وفي الوقت نفسه حررت ضميره من ضغط القوى الخفية في الطبيعة التي كانت تشل حركته.

٢ـ كان من ثمار هذه النظرة الطريقة العلمية التي:

أ ـ تنطلق من الايمان بالاطراد في الطبيعة والارتباط الضروري بين اجزائها مما يتيح للعقل امكانية تتبعها والتنبؤ بها وتوجيهها وفق مطالبه .

ب ـ تعتمد في ذلك على طريقة تفكيك كل جسم او معضلة الى الأجزاء التى يتكون منها مما يتيح فهمها والتحكم في تركيبها بالاضافة والحذف..

ج ـ تقتصر هذه الطريقة على بحث الظواهر وما بينها من ارتباطات اما الماهيات التي بدد الفكر القديم كثيرا من طاقاته في الجري وراءها فقد تخلى عنها الفكر الحديث. ولم يكتف بتطبيق هذه الفكرة على الأشياء بل درس من خلالها حتى الافكار والقيم فأخذ يدرسها من خلال ءاثارها في الواقع، ذلك ان الانسان المعاصر وهو يعيش لذاته لم يجد قيمة لوجوده غير العمل لتحقيق نفعه وسعادته.. فما عاد ينظر الى الافكار في قيمتها الذاتية حق هي أم الباطل بل يقيسها بمدى ما تحققه من نفع في الواقع..ولذلك حققت الثقافة الغربية مكسبا هائلا هو:

٣ ـ ارتباط الفكر بالعمل : يقول زكي نجيب محمود : «فالمذاهب المعاصرة جميعا تتفق ءاخر الأمر في وجوب ارتباط الفكر بالأشياء والأفعال فالفكرة او العبارة إمّا تحولت الى عمل وإمّا كانت وَهما ولغوا، فالفكر لا يكون فكرا إلّا اذا رسم الطريق المؤدّي الى التغيير.. ان الفكرة اداة للعمل » (١٩) ولقد حررت هذه النظرة الفكر الحديث من خرافات الميتافزيقا وشطحات الصوفية.. وزاوجت في ميدان العلم بين قيمتين كانتا منفصلتين هما قيمة الفكر وقيمة العمل..

«فلقد كانت عبقرية الحضارة اليونانية قياسية أكثر مما كانت استقرائية ولذلك لاءمتها الرياضة كل الملاءمة ولعل بعض هذا يرجع الى نظرتهم الى كل عمل يدويّ على انه عمل غير دمث لذلك فكل دراسة كانت تحتاج الى التجربة كانت تبدو لهم سوقية. وكان العرب أميل الى التجريب من الاغريق» (٢٠) بل ان العبقرية الاسلامية كانت عبقرية تجريبية وجدت افضل ميادينها الطبيعة فكشفت عن جوانب كثيرة من اسرارها ووجود الانسجام والتناسق فيها معتمدة على طريقتها الجديدة في البحث : الاستقراء الذي أكد ابن تيمية انه الطريقة الوحيدة الموصلة لليقين (٢١)

ولكن العرب لم يصلوا بالعلوم التجريبية الى مراحل التعميم الذي هو خاصية الرياضيات أي انهم لم يتوصلوا الى تطبيق النظريات الرياضية في صياغة نتائجهم التجريبية صياغة رياضية مجردة في قوانين علمية..

وتلك كانت عبقرية الحضارة الحديثة التي كانت من هذه الناحية تركيبا للحضارتين الاسلامية واليونانية.. وكانت من نتائج هذه العملية التركيبية البديعة كل ما نشاهده من

سيطرة على الزمان والمكان بواسطة التقنية،

٤ ـ الايمان بالتقدم الدائم،، والتطور المستمر،

يقول فيشته: «،، وجميع من يؤمن بالتقدم الأبدي مهما كانت بلادهم الأصلية واللغة التي يتكلمونها فهم من عرقنا» وهذه العقلية جعلت المعرفة في نمو مستمر بينما كانت العقلية السائدة : ليس في الامكان أحسن مما كان. (٢٢)

٥ ـ روح المغامرة في تذليل الصعاب والبحث عن المجهول ، وليست قصة الكشوفات البحرية وارتياد الاراضي المجهولة،، منذ القرن الخامس عشر والسادس عشر والاكتشافات الفلكية والفيزيائية الى اكتشافات نيوتن وانشتين والاقلاع من سطح الارض الى الفضاء الرحيب والنزول على سطح القمر الا تعبيرا عن هذه الروح الولعة بالمجهول المفعمة بروح المغامرة والمخاطرة التي ترسخها التربية الغربية في نفوس الافراد والجماعات،، هذه الروح التي دفعت هذه الايام الاخيرة ثلاثة عمال امريكان الى أن يعبروا في مخاطرة عجيبة المحيط الاطلسي بواسطة منطاد، مع ان هذه التجربة فشلت قبل ذلك ستّ عشرة مرة،، فتلقى العمال الثلاثة برقية تهنئة من الرئيس كارتر ودعوة منه لهم لزيارة البيت الابيض،، وورد في برقيته لهم وهم لا زالوا بفرنسا «باسم الشعب الامريكي نحيّي مغامرتكم الناجحة» (٢٣) على حين تسود في عالمنا روح الخنوع والحذر والخوف من المجهول والرضى بما انجزنا ونحن لم نكد ننجز شيئا.

٦ ـ وكان من ثمار هذه النظرة للانسان : الشعور الحاد بالز من واخضاعه للعقل يحلله الى وحدات وينظّمه تنظيما «اليا دقيقا، يجعل حياة الانسان أكثر انتظاما وامتدادا وثراء، على اعتبار أن الزمن هو الحياة،، وانما تتفاوت الحضارات قوة وخصبا بقدر استغلالها لهذا الرصيد،، فلا غرابة اذا وجدنا تقنيات الحضارة الحديثة انما تقوم على أساسين هما الطاقة والمواصلات،، بينما يجرى الزمن في عالمنا المتخلف بطيئا متثاقلا فارغا يطحننا بوطأته دونما أية محاولة منا للسيطرة عليه وتنظيمه والاستفادة منه.

٧ ـ ومن ثمار هذه النظرة شعور الانسان بقيمة الحرية على أنها بعد أساسي من أبعاد وجودنا ان لم تكن هى البعد الحقيقى له، ويستتبع هذا الشعور:

أ ـ ادراك الانسانّ أنه مسؤول عنّ وجوده مسؤولية كاملة فلا يلقي تبعات أعماله على قوى خارجية ظاهرة أو خفية.

ب ـ التمرد عن كل سلطة تستبد بالانسان وتنال من استقلاله وحقوقه فلا يتردد في العمل على الاطاحة بها، حتى ان تاريخ الغرب حلقات متواصلة من الثوراث والرفض،

ضد الاقطاع، والكنيسة والبرجوازيه، والرأسمالية، وحتى الشيوعية فرغم حداثتها فبوادر الثورة عليها من داخلها متوفرة..

ج - والنظام الديمقراطي هو الآخر ثمرة من ثمار شعور الانسان بحريته واستقلاله .. اذ يقوم هذا النظام على الاعتقاد أن المجتمع انما وجد نتيجة التعاقد بين مجموعة من الافراد على العيش المشترك يحكمون أنفسهم بواسطة سلطة تعبر عن ارادتهم المشتركة.. ومن هذا الاساس فقط تستمد السلطة شرعيتها . انها تعبر عن ارادة الشعب الذي يتولى رقابتها بواسطة نوابه وصحفه ويجابهها بلوائح اللوم ان هي اخطأت ويسقطها ان هي أصرّت، بينما كانت أنظمة الحكم في ما سبق تستمد شرعيتها من حقوق وهمية تاريخية أو دينية كادعاء الملك أنه ظل الله في الارض، فلا يسأل عما يفعل.

فالديمقراطية صححت هذا الوضع المقلوب فجعلت الحكومة خادمة للشعب واستعاد بها الانسان حقه من انه هو الاصل وليست الدولة.

هذه الايجابيات تلقي ضوءا على هذه القوة العاتية التي يمثلها الغرب والتي اعتبرناها النتيجة الطبيعية لايمان هذه الحضارة بالانسان : الايمان به على انه السيد والاله في هذا الوجود . ولكن تولدت عن هذه النظرة سلبيات كثيرة هي سلسلة من الازمات توشك أن تؤدي بالبشرية تحت قيادة هذه الحضارة الى كارثة الدمار..

النتائج السلبية لفلسفة الانسان في الغرب

الحديث عن أزمات «الحضارة الغربية» شائع .. ترتفع حدته كلما جدت أزمة في الاقتصاد او فضيحة في عالم السياسة او جريمة في الميدان الاجتماعي او .. ولقد نشر في ذلك ، العديد من الكتب والدراسات .

فقبيل الحرب العالمية الاولى نشر الكسيس كاريل كتابه «الانسان ذلك المجهول» معلنا : « ان الجماعات والامم التي بلغت فيها الحضارة الصناعية اعلى نمو وتقدم لها هي على وجه الدقة الجماعات الآخذة في الضعف والتي ستكون عودتها الى البربرية والهمجية اسرع من عودة غيرها اليها ولكنها لا تدرك ذلك اذ ليس هناك ما يحميها من الظروف العدائية التي شيدها العلم حولها .. وحقيقة الامر ان في مدنيتنا مثل المدنيات التي سبقتها احوالا معينة من شأنها ان تجعل الحياة مستحيلة وذلك لاسباب لا تزال غامضة . (٢٤) .

وقبيل الحرب العالمية الثانية القى شبنغلر الالماني في السوق كتابا كان له وقع القنبلة هو «سقوط الغرب» .

«أفول أوربا» 1914-1920

وفي السبعينات اصدر المفكر الانكليزي «كولن ولسن» كتابا بنفس العنوان ،، ولا تزال صفارات الانذار تتعالى والانتقادات تترى من داخل الغرب اكثر من خارجه ،، ولا شك ان هذا النقد الذاتي ايجابية من ايجابيات هذه الحضارة ،، فما هي اهم الانتقادات الرئيسية او السلبيات الخطيرة التي اخذت على حضارة الغرب ؟

١ ـ فشل العقل النظري والعملي (الفلسفة ، العلم ، الاخلاق) فشلا ذريعا في تقديم نظرة شاملة موحدة لكيان الانسان فمنذ جزّأ ديكارت كيان الانسان الى جسد ونفس وعجز عن اكتشاف العلاقة بينهما كما عجز عن ذلك تلاميذه من بعده تركز الاهتمام على الجسد باعتباره امتدادا قابلا للقياس .. وظلت القضية تتأرجح حتى جاء « كانط » فحسمها ،، اذ اعتبر ان الدائرة التي يتحرك فيها العلم وكذا العقل وينتهي فيها الى نتائج يقينة هي دائرة الزمان والمكان فاذا خرج عن هذه الدائرة لم يأت الا بالمتناقضات ، فالتقط الماديون هذه النتيجة ليدفعوا بها الى مداها الطبيعي : انه لا حاجة لنا الى البحث خارج هذه الدائرة لانه لا دليل على وجود شيء ، فاخرجوا من دائرة العلم كل موضوع لا يخضع لادوات العلم في التحليل والتركيب ولمقاييسه . يقول برنشفيك «لا علم الا بالقياس» .

ولقد حقق الغرب انتصارات كثيرة بواسطة هذا المنهج العلمي الذي يقوم على التحليل والتركيب وتطبيق القوانين الرياضية ، حقق انتصارات كثيرة في ميدان الطبيعة المادية ، والى تطبيق هذا المنهج يرجع الفضل في هذا التقدم الصناعي الهائل ،، ولكن الغرب اعتبر ان لا طريق للعلم الا بهذا الاسلوب في البحث فطبقه على الانسان .. فانتهى الى انكار حقيقته الروحية التي لم تقع في شباكه والتي لا تخضع لادواته وتحليلاته فظهرت مدارس في علم النفس تنكر الشعور اطلاقا مثل المدرسة السلوكية في امريكا ،، واصبح علم النفس بلا نفس ودرست الظواهر الاجتماعية على انها اشياء كما هو الحال عند المدرسة الاجتماعية الفرنسية وانتهت اوروبا بشرقها وغربها الى انكار كل حقيقة تتجاوز المادة ومحاربتها او على الاقل اسقاطها من الحساب في تنظيم اسلوب الحياة .

٢ ـ فشل العلم في ان يقدم للانسان معنى لوجوده وهدفا لحياته وموازين ثابتة لاخلاقه فجاءت الوجودية لتقول : هذا الوجود ليس له من معنى الاّ العبث والانسان حر وليس مسؤولا الا أمام نفسه فليفعل ما يشاء . وجاءت الفرويدية لتقول : ان الكيان الحقيقي للانسان هي دوافعه الغريزية وخاصة دافع اللذة الجنسية والعدوان . وجاءت الفلسفة النفعية لتعلن النتيجة من ذلك : ان الانسان هو مقياس الحق والباطل والخير والشر فلكل الحق في ان يعمل لتحقيق خيره الخاص او خير وطنه فليس هنالك مقاييس ثابتة ، ونتج عن ذلك :

أ ـ احساس حاد بالقلق والسأم والغثيان والحيرة وشعور بالوحدة وبعبثية هذا الوجود فلا يجد الانسان مهربا الا للرقص او المخدر او الانتحار او الانضواء تحت لواء عصابات الارهاب ليفرغ حقده .

ب ـ سيادة مبدأ اللذة ،، كنتيجة طبيعية لفقدان مبدأ أعلى يوجه فاعلية الانسان ويتجاوز به ذاته مما جعل المجتمع مسرحا فوضويا للصراع على اللذائذ بين الاقوياء والضعفاء ،، صراع فيه الضعيف يداس ، انتهى بتقسيم المجتمع الى فئة قليلة بيدها وسائل الثروة والمتاع وجموع مستغلة تبيع جهدها وعرقها للفئة الاولى مقابل ما تتبلغ به ،، ولقد انتهى هذا الصراع الى سلسلة من الثورات انتهت بالقضاء على مبدأ الحرية لفائدة مبدأ العدالة ،، وفرضت على الانسان أنظمة ديكتاتورية مقابل توفير ضرورات العيش المادية ،، كما انتهت سيادة مبدأ اللذة والمنفعة الى تقسيم العالم الى مجموعات قومية تتصارع على المنافع ،، وكانت الحروب الطاحنة نتيجة، حتمية وفرضت هذه النظرة في العلاقات الدولية مبدأ الاستغلال ، وما الاستعمار ونهب موارد الشعوب الضعيفة وزرع اجسام غريبة في كيانات الامم كاسرائيل لاضعاف تلك الامم وضمان استمرار استغلالها الا ثمارا لهذه الفلسفة المادية التي جعلت من الانسان كما يقول الاستاذ (جود) الها قبل ان يستحق ان يكون بشرا .

ان تمرد الانسان على خالقه،سبحانه ، باسم الحرية والاستقلال انتهى بتضحية الانسان بنفسه وحريته فاصبح عبدا لشهواته وللوثنيات الجديدة التي تستعبده وتمنيه بجنة أرضية كما فعلت العقلانية والعلمانية والقومية والرأسمالية والشيوعية فتنتهي به الى جحيم أرضي : قلق محموم وصراع مدمر «ومن اعرض عن ذكري فان له معيشة ضنكا (٢٥)».

٣ ـ اما الديمقراطية فقد عرف أرباب المال كيف يفرغونها من معناها فتغدو شعارا لتخدير الضعفاء وتبرير الاستغلال .

أسس حضارة الاسلام

واذا كان للغرب ما يبرر له انفلاته من دين محرّف يطلب من الانسان ان يلغي عقله فيؤمن بان ٣ = ١ (عقيدة التثليث) ويلغي جسده على اعتبار ان اللذة سبب الخطيئة ويهمل القضية الاجتماعية على اعتبار ان مملكة الله في السماء ،، ويرضى بالجهل والخرافة والاستغلال. فأي مبرّر تبرّر به أمتنا موقفها اذ تبتعد عن دين :

ـ اعتبر الانسان خليفة لله في هذه الارض اي نائبا عنه يتصرف في هذا الكون باذنه فله

سُخّرت كل السماوات والارض يتصرف فيها كما يشاء وفق وثيقة الاستخلاف (الوحي) .

ـ ان هذا الكون مسخر للانسان بما اودع الله فيه من الخصائص والقوانين الثابتة التي خصّ العقل بالقدرة على ادراكها وتسخيرها لمآربه .

ـ ان العقل أداة فعالة في تحقيق هذا التسخير بمعرفة سنن الكون ونظام الأسباب فيه وهو في نفس الوقت أداة فعالة في الاهتداء للقوة المبدعة لهذا الكون المسخّرة له بحسب هذا النظام البديع الثابت المُنعِمة على الانسان بالخلق على افضل وجه، بل ان مهمة العقل تتجاوز ذلك الى اعتباره الاداة الاساسية في فهم وثيقة الاستخلاف (الوحي) .

ـ ولكن العقل باعتباره جزءا من الوجود فليس في وسعه ان يحيط علما بهذا الوجود بدء ونهاية وغاية ومكانة الانسان فيه ومبدأه وغايته ومنهاج حياته ،، فلقد كفته مؤونة ذلك رحمة الله «وما قدروا الله حق قدره اذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شيء» (٢٦) .

يقول ابن خلدون : « ولا تثقنّ بما يزعم لك الفكر من أنه مقتدر على الاحاطة بالكائنات وأسبابها والوقوف على تفصيل الوجود كله .. وليس ذلك بقادح في العقل ومداركه بل العقل ميزان صحيح فأحكامه يقينية غير انك لا تطمع ان تزن به أمور التوحيد والآخرة وحقيقة النبوة وحقائق الصفات الالهية وكل ما وراء طوره فإن ذلك طمع في محال (٢٧).

نعم للعقل أن يعرف ان لهذا الوجود مبدءا أول دون تفصيل وان يعرف أن هذا الانسان محمدا مرسل وان هناك حياة بعد الموت اما تفصيل ذلك فهو من مهمة الوحي وكذلك أمر تربية الانسان وبيان الأسس الضرورية لمنهاج حياته .

ـ للانسان عقل وارادة وحرية هي مناط التكليف أو قل الأدوات الضرورية لاستخلاف الله للانسان ، وليس الايمان بالقضاء والقدر الا الايمان بان الانسان يعيش في كون منظم حسب قانون الاسباب والمسببات وكذلك الشأن في حياة الانسان. فعلى الانسان ان يفهم نظام الاسباب الذي وضعه الله في الوجود ونظام الاسباب الذي وضعه الله في حياة الانسان وان يوجه سيره وفق هذا النظام الذي لا تتم في الوجود حركة ولا يتم عمل الا من خلاله ،،

«والاعتقاد بالقضاء والقدر، اذا تجرد عن شناعة الجبر، تتبعه صفة الجرأة والاقدام وخلق الشجاعة والبسالة ويبعث على اقتحام المهالك التي ترجف لها قلوب الأسود ،، هذا الاعتقاد يطبع الأنفس على الثبات واحتمال المكاره ومقارعة الأهوال ويحلّيها بحلي الجود

والسخاء بل يحملها على بذل الأرواح كل هذا في سبيل الحق الذي دعاها للاعتقاد بهذه العقيدة ،، الذي يعتقد بان الاجل محدود والرزق مكفول والاشياء بيد الله يصرفها كيف يشاء كيف يرهب الموت في الدفاع عن حقه واعلاء كلمة أمته او ملّته والقيام بما فرضه الله عليه من ذلك وكيف يخشى الفقر مما ينفق من ماله في تعزيز الحق وتثبيته على حسب الأوامر الالهية وأصول الاجتماعات البشرية» (٢٨) .

ـ هذه الدنيا خلقت للانسان، فللانسان ان يتمتع بما فيها وفق شرع الله بلا اسراف ذاكرا ان لذتها قصيرة فلا يغرقن فيها وليتذكّر ان بعدها حياة أخرى نعيمها دائم مكتمل لمن أحسن عملا هنا وشقاؤها دائم ومقيم لمن خرج عن ارادة مولاه في هذه الدنيا .

ـ القيمة العليا في هذا الوجود «الله» جل وعز ،فعلى الانسان ان يسعى في مرضاته قدر ما يطيق .

ـ الانسان كائن مادي وروحي دون تفريق فله مطالب مادية ضرورية واخرى روحية ، وانه اذا كان الانسان قادرا على اختيار غذائه الجسدي فان جهله بروحه يجعله عاجزا عن معرفة ما يغذيها وينميها وما يفسدها ويضعفها فعليه ان يتبع في ذلك شرع ربّه سبحانه .

ـ الحركة سمة اساسية في حياة الوجود والانسان وكما ان الحركة المادية تخضع لقوانين ثابتة فكذلك الشأن بالنسبة لحركة الانسان في هذه الحياة ينبغي ان تكون سريعة دائبة ولكن ضمن الأحكام والقيم الثابتة التي أودعها الله في شريعته ، والاّ تحطمت الحركة وتمزقت .

ـ واذا كان الله غاية الانسان وعنده سبحانه تجتمع المثل العليا «ولله الاسماء الحسنى» فالاتجاه نحو الله عن طريق الاسلام هو كدح متواصل نحو توحيد القيم التي تبدو ممزقة في النفس والمجتمع كقيمتي الفكر والعمل «كبر مقتا عند الله ان تقولوا ما لا تفعلون» «الذين ءامنوا وعملوا الصالحات» وكقيمتي الحرية والعدالة ، الخ ..

ففي العبودية لله تحرير للانسان من الاستبداد السياسي والاستغلال الاقتصادي اذ الحكم كالمال لله تتصرف فيهما الأمة نيابة عن الله ويتصرف الحاكم فيهما نيابة عن الأمة حسب الدستور الالهي ، فاذا استبد وألغى مبدأ الشورى واتخذ المال مغنما يبدده في الانفاق على شهواته «فالنصح والارشاد او الخلع والابعاد» (٢٩) .

ـ وهذه القيم ليست من ابداع الانسان حتى تكون فردية مورثة للأنانية والجري وراء اللذائذ وليست من وضع أمة من الأمم حتى تكون وطنية ولا من ابداع عصر معين حتى تكون ظرفية ولكن من مبدع السماوات والارض خالق الانسان والعليم به وباحتياجاته في كل عصر وهو ليس ربّا لشعب معين بل هو رب العالمين ،، فمن الطبيعي ان تكون هذه القيم

انسانية وشاملة للزمان والمكان كلهما ،، مما يجعل لها قيمة كبرى في توحيد بني الانسان على صعيد واحد في أخوة انسانية ...

وعندما كانت هذه النظرة للانسان تمثل ثقافة الأمة الاسلامية ، وقد جسدها رجال صادقون،وصلت تلك الأمة شأوا بعيدا في الرقي المادي والمعنوي ، كيف وقد تشبع افراد الامة بفكرة الخلافة كل منهم يشعر انه نائب عن الله في هذه الارض ينصر الحق والعدل والخير ويحارب الباطل والشر والخرافة ،، ويكشف باذنه السنن التي أودعها في هذا الكون ويسخرها .

ولقد كانت فكرة الانسان الخليفة عاملا هاما في تفجير طاقات المسلم وشعوره بمنزلته دون غرور واستعداده الدائم للثورة على الظلم والفساد ، وما انسياح المسلمين في العالم ينشرون لواء الحق ويهدمون عروش الظلم والطغيان وما سيرهم في الارض يكتشفون أسرارها وينقبون في مخلفات الحضارات السابقة عن تراثها الفكري حتى شادوا في زمن قليل بناءا حضاريا رائعا ،، وما قصة الثورات الدامية المتكررة في التاريخ الاسلامي الا تعبيرا عن فكرة الانسان الخليفة الباحث عن الحق في كل مكان، المدافع عنه بالعلم والسيف، الثائر على الوثنية والخرافة والظلم والاستغلال .

وهكذا نرى ان الفضائل الرئيسية التي قامت عليها حضارة الغرب والتي تفسر قوة هذه الحضارة هي بعد التأمل العميق جزء من برنامج الاسلام في بنائه للانسان وللحضارة غير ان الاطار مختلف فحيث هي في الغرب موضوعة في اطار الفلسفة المادية نجدها في الاسلام في اطار فلسفة ايمانية .

انحطاط الحضارة الاسلامية

ولقد ظلت الحضارة الاسلامية في نمو متواصل داخل اطار الفلسفة الايمانية حتى داخلتها عناصر ثقافية غريبة عنها ونمت فيها فأفقدتها بمرور الزمن أصالتها ، وانحرفت المفاهيم فتجمدت الحركة وتعطل العقل المسلم ، وخفتت أصوات المجتهدين والمجاهدين فما عُدت تسمع غير غطيط النائمين المقلدين المرددين لأصوات الماضي ،، وفي ظل ذلك الانحراف وبتحريض منه انتشرت الأنظمة المستبدة التي وأدت كرامة الانسان المسلم ورمت به في ظل الجهل والفقر والسلبية ، وكان أفدح تلك العناصر الغريبة التي داخلت الثقافة الاسلامية فأصابتها بالجمود وعطلت فاعلية المسلم : الفلسفة الجبرية ،، التي نقلتها الى المسلمين عناصر من الموالي كجهم بن صفوان والجعد بن درهم ، وجد فيها المسلمون الذين أعياهم الجهاد وهدتهم الفتن والمظالم في العصر الأموي خير مستظل

يفيئون اليه ويستريحون «ان كل ما حدث ويحدث هو من ارادة الله وتقديره» وهي كلمة حق أريد بها باطل ،، فتلقفها الحكام والمحكومون ،، ليستخرج كلٌ منها ما يحتاجه لتبرير موقفه ،، ولولا ان قيض الله «واصلا» وصحبه يذبون عن الدين جراثيم الانحطاط والجمود لكان الخطب أفدح ،، ولكن لما كان هجوم الجبريين على العقل والحرية والوجود الانساني بالتالي عاتيا مدمرا استلزم ان يكون رد الفعل الاعتزالي قويا في التأكيد على حرية الانسان وعقله ومسؤوليته . وككل ردّ فعل على هجوم قوي لم يسلم هذا الرد من تطرف وجفاء لم يستسغه الضمير المسلم لما يمكن ان يفهم من هذه الحرية الانسانية المتطرفة من حد لقدرة الله وارادته ،، ودون شعور منهم، خدم رجال الاعتزال ككل متطرف قضية الخصوم ،، فانسلخ عنهم رجل حاول التوسط والاعتدال هو الاشعريّ ولكنه مال بقوة الى الرأي العام المتوتر ضد الاعتزال فأقر للانسان بحرية هزيلة الجبر محتواها الحقيقي ، واضطر ليبرر موقفه هذا الى ان يطيح هو وخلفاؤه كالغزالي بمبادىء ثابتة في الكون كما هي ثابتة في كتاب الله وحياة المجتمعات مثل مبدأ السببية ، ورفض مبدأ التعليل لأفعال الله وكل ذلك لا يعني الا شيئا واحدا : رفض العقل والحرية والارادة الانسانية وبكلمة واحدة تشييء الانسان .

لقد قُتل « جهم » بتهمة الانحراف العقائدي وكذا « الجعد بن درهم » وظلت ثيابه ملقاة في المزابل لا يكاد يلتفت اليها احد حتى انبعث الأشعري فنفض عنها الغبار وطلاها بطلاء من السنة وأغرى بها الناس على انها لباس التقوى وما هي والله كذلك ـ فاندفع الناس في حنق على التطرف الاعتزالي يفصلون العقائد الاسلامية بحسب النموذج الأشعري ـ الغزالي (الجبرية المتنكرة) ولقد كانت أردية ثقيلة مناسبة لليل شتوي أخذت ظلماته تطمس شمس الحضارة الاسلامية ،، حيث تطورت العقائد الجبرية التي ألغت شخصية الانسان المسلم وطمست عقله الى عقائد الحلول ووحدة الوجود حيث رفع خفافيش الليل : الحلاج وابن سبعين وابن عربي شعار «الفناء» على انه المثل الأعلى للتربية الاسلامية ،، ونهاية المطاف لرحلة طويلة عبر «المقامات» تنتهي بالفناء . وفعلا أحاطت عوامل الفناء بالحضارة الاسلامية من كل مكان (ولولا رحمة من الله سبقت بحفظ الذكر وحفظ أمته ما وصلتنا من بين الصور الكثيرة المزيفة التي وصلتنا عن الاسلام أي صورة صحيحة) ورزحت الأمة الاسلامية تحت كلكل الانحطاط والجهل والظلم والطغيان والاحتلال الاجنبي والتشرد عهدا طويلا كان الانسان المسلم يعيش خارج تيار الزمن قد فنيت شخصيته فأصبح راضيا عن كل ما يجري امامه لا يعرف معروفا ولا ينكر منكرا ولا يثور لمفسدة ،، أهاب به الشياطين ان يفنى ففني لأنهم خاطبوه بلغة الاسلام وليس اخطر علينا ممن يكلمنا بلغتنا (اي بمصطلحاتنا) فقد حذرنا النبي

من «قوم من جلدتنا ويتكلمون بألسنتنا» (٣٠) .. عاش العالم الاسلامي يسمع اناشيد الفناء في الزوايا ويتعلم فلسفة الفناء في المعاهد الشرعية حتى اتجه ركبه بقوة الى الفناء لولا رحمة من الله سبقت بحفظ الذكر وحفظ أمته ، ولم تستطع الجهود الجبارة التي بذلها ثلاثة من الرجال الافذاذ هم ابن حزم وابن رشد وابن تيمية ، لتحريك العقل المسلم الذي انكر الاشاعرة قوانينه وجمد الفقهاء حركيته بتقليدهم وبث المتصوفة بخرافاتهم ضبابا داكنا في أرجائه حجب عنه الرؤية ومال به الى الفناء .

لم تستطع جهود اولئك الرجال الأفذاذ الوقوف في وجه المركبة المتجهة بقوة نحو الانحطاط ،، غير انهم زرعوا في ارض الاسلام بذور نهضة بدأت براعمها تتفتح في العصر الحديث مع محمد بن عبد الوهاب والدهلوي والأفغاني وعبده والبنا والمودودي وسيد قطب رضي الله عنهم هؤلاء الذين صححوا المسار ورسموا معالم الطريق ،، وبدأ معهم المسلم يستعيد فاعليته ووعيه بالزمن عن طريق وعيه بالحقيقة الاسلامية في اصالتها .
وبعد : فلئن كانت (حضارة الانسان الاله) قد حركت في الانسان شعورا عارما بالتفوق انتج هذه المنجزات الضخمة فان هذه الحضارة قد ملأت الانسان غرورا واستعلاء فارغا دفعا ويدفعان به في طريق المخاطرات والمهالك فغدت الحضارة وكأنها مركبة عاتية تجاوزت سرعتها السرعة العادية فما عاد صاحبها قادرا على السيطرة عليها وتوجيهها وفق ما يريد فهو في خشية على مصيره من كل مفاجأة .

اذا كان هذا أمر حضارة الانسان الاله فان حضارة «الانسان المسحوق» انسان الفناء قد انتهت الى تجميد للحركة وتعطيل للطاقات الى الجهل والفقر والذل . فهل للبشرية ان تعرف قدرها وترنو بعين الأمل الى حضارة الانسان الخليفة حيث لا جمود ولا حركة منفلتة ممزقة ،، وانما السير على بصيرة ووعي حيث تقودني حريتي الى مصدرها ويقودني عقلي الى محتده فأمشي على الأرض وأبني وأشيد وأفتح وأصارع الشر في نفسي والعالم . كل ذلك دون غرور لأني أعرف اني نعمة من الله فانظم حركتي وحركة الحياة من حولي واطورها وارتقي بها في اتجاه صاعد متقدم حيث مجتمع القيم العليا والاسماء الحسنى «ففروا الى الله ،، اني لكم منه نذير مبين ،، ولا تجعلوا مع الله الها آخر اني لكم منه نذير مبين» (٣١) .

---

(١) الفكر العربي في عصر النهضة : البرت حوراني ص ٤١٣ ، دار النهار
* المقصود كتاب تهافت الفلاسفة الذي الفه الغزالي في الرد على الفلسفة اليونانية .
(٢) من كتاب «ثقافتنا في مواجهة العصر» ص ٩٠ تأليف د. زكي نجيب محمود ط. دار الشروق .
(٣) من كتاب «مستقبل الثقافة في مصر» لطه حسين .
(٤) و (٥) الفكر العربي في عصر النهضة ص ١١٦ .
(٦) سورة الأنبياء .

(٧) من محاضرة له بدار ابن رشيق بتونس تحت عنوان : «الحضارة الاسلامية والغرب» نشرت بالرأي الثقافي ١١ ـ ٥ ـ ٧٨.
(٨) نقل هذه الفقرة ، عن بافلوف . الفيلسوف برتراندراسل في كتابه «النظرة العلمية» ص ٤٢ ترجمة: عثمان نوبة
(٩) نفس المصدر السابق.
(١٠) روني ديكارت : مقالة الطريقة ترجمة جميل صليبا
(١١) عن كتاب ارادة الاعتقاد لوليم جيمس ترجمة محمود حب الله
(١٢) حياة الفكر في العالم الجديد. لزكي نجيب محمود ص ٣٤
(١٣) نفس المصدر السابق ص ٤١
(١٤) «ما هو الغرب» تاليف راشد الغنوشي ومصطفى النيفر ـ ص ٢٧ منشورات المعرفة ـ تونس ـ
(١٥) النظرة العلمية : برتراند راسل ص ٣١ تعريب عثمان نوبة
(١٦) الوجودية مذهب انساني لسارتر
(١٧) اسس ميتافزيقا الاخلاق ـ لكانط : ترجمة عبد الغفار مكاوي
(١٨) هكذا تحدث زاردشت «لنيتشه» نقلا عن «حضارة الطين» لشاكر مصطفى ص ٧٤
(١٩) ـ ثقافتنا في مواجهة العصر. لزكي نجيب محمود
ص : ٨ ـ ٩ ـ ١٠ ـ طبع دار الشروق
(٢٠) النظرة العلمية «برتراند راسل ص ٦ ترجمة عثمان نوبة
(٢١) تجديد التفكير الديني لمحمد اقبال ص ١٤٨ ـ مطبعة لجنة التاليف والطبع والنشر ـ مصر ـ
(٢٢) الفكر الالماني من لوثر الى نيتشة تاليف جان ادوار سنبلة.. تعريب بشير شيخ الارض
(٢٣) نقلا عن صحيفة «الصباح» التونسية ١٩ ـ ٨ ـ ٧٨
(٢٤) الانسان ذلك المجهول ترجمة عادل شفيق ص ٣٠
(٢٥) طه الآية ١٢٣
(٢٦) الانعام ٩١
(٢٧) مقدمة ابن خلدون ص ٤٥٩ و ٤٦٠ الطبعة الرابعة. دار الكتب العلمية
(٢٨) من «تاريخ الامام» محمد عبده جـ ٢ ص ٢٥٩ تاليف محمد رشيد رضا
(٢٩) عن رسائل الامام الشهيد حسن البنا
(٣٠) رواه مسلم
(٣١) الذاريات ٥١

دعوة إلى الرشد

- ☐ الغرب يكرس كل جهده لترسيخ عوامل الانحطاط في العالم الاسلامي
- ☐ الغرب يقف موقف الحذر من الحركات الاسلامية.
- ☐ توتر أنظمة الحكم في العالم الاسلامي ضد الحركات الاسلامية.
- ☐ الصليبية الجديدة.

« المعرفة » ع ٢/٥ - ٨/١/٧٩

دعوة إلى الرشد

بعد قرون طويلة من الجدب الحضاري في العالم الاسلامي، عومل فيها الاسلام في أفضل الحالات على أنه مجرد نحلة روحية وأثر من الماضي، وترسخ في الأذهان أن طريق العالم الاسلامي إلى النهضة والتحضر واحدة لا غير : هي النسج على منوال الغرب - في حلوه ومره كما ذكر الأديب طه حسين - اتجه تطور التاريخ في الربع الأخير من هذا القرن على الخصوص - وجهة أخرى اذ بدأ بشكل واضح فشل الحلول الغربية - الليبرالي منها والاشتراكي - في علاج مشكلات العالم الاسلامي - فشلا ذريعا، وبدأت بجانب ذلك تتفاقم أزمات الحضارة الغربية، وأخذ الاسلام يستعيد مكانته لا كمجموعة عقائد غيبية وتوجيهات اخلاقية وروحية فحسب بل كنموذج اجتماعي وحضاري جديد .. الأمر الذي أثار قلقا متزايدا لدى مراكز القيادة السياسية والفكرية والمالية في الغرب وامتداداتها في العالم الاسلامي.

وفي هذا المنظور كتبنا افتتاحيتنا هذه:

انحطاط الحضارة الاسلامية

لقد ظل العالم الاسلامي لقرون طويلة يقود ركب الحضارة في طريق الايمان والعدل والحرية حتى دبت فيه عوامل الانحطاط بفعل مؤثرات داخلية : أهمها : سيادة الحكم الفردي بدل الحكم الشوري وتفشي عقائد الجبر والتواكلية الصوفية وجمود الفقهاء وأخرى خارجية أهمها هجومات البرابرة المغول والصليبيين على العالم الاسلامي ..

النهضة الأوروبية

وإذا كانت الحضارة الاسلامية قد استطاعت ترويض المغول فأسلموا وصهرتهم في بوتقتها فقد كان أمرها مع الصليبيين مختلفا إذ كانت أوروبا مشحونة بالاحقاد والأطماع.. كما كانت تتحفز للنهضة مما جعلها أقدر على استيعاب الحضارة الاسلامية واستعارة منجزاتها الحضارية في مشروع نهضتها الكبرى التى بوأتها مركز القيادة العالمية. وأشبعت لدى الانسان الغربي غروره الموروث عن اليونان والرمان بأن مقامه في

الناس مقام السيد من العبد وأشبعت فيه حقده الصليبي الموروث عن العصر الوسيط، كما أشبعت فيه أخيرا جشعه الرأسمالي اليهودي إلى الربح والرفاه دون أي اعتبار لقيم العدل والحرية التي طالما تشدق بها ليخدر الشعوب المتخلفة.

الغرب يكرس كل جهده لترسيخ عوامل الانحطاط في العالم الاسلامي

من الطبيعي بالنسبة للغرب ـ وتلك أخلاقه ـ أن يبذل كل وسعه لترسيخ عوامل الانحطاط في العالم الاسلامي وافقاده هويته وتمييع قيمه ليبعد عنه كل أمل في النهضة واستعادة امجاده تكريسا لتبعيته لأوروبا، يستهلك طاقاته المادية والبشرية بثمن بخس لا يلبث أن يسترده منه مقابل مصنوعات ووسائل لهو وترفيه باهظة الثمن .. كان استبقاء هذه الوضعية للعالم الاسلامي يقتضي من أوروبا القيام بحملات عسكرية ترهب العالم الاسلامي، وهجومات فكرية روحية عن طريق المستشرقين والمبشرين لتشكيك المسلمين في صلوحية الاسلام لحل مشكلات العصر وفي التاريخ الاسلامي ولغة القرءان ونبي الاسلام (عليه السلام) والاشادة بالغرب وتاريخه وثوراته كما اقتضى ذلك ربط الحياة الاقتصادية في العالم الاسلامي بسلسلة من البنوك والشركات الاستغلالية التي تكبل مقدرات الامة وتربطها بالدولاب الغربي.

إلى جانب ذلك بذل الغرب جهدا كبيرا في تشجيع وتدعيم الحركات ذات الصلة الواهنة او المنبتة عن الاسلام او المعادية له، عن طريق المال والسلاح والاعلام، حتى تتسلق مراكز النفوذ.

الغرب يقف موقف الحذر من الحركات الاسلامية

هل نعجب من أوروبا وهذه سجيتها ان تقف من محاولات النهضة واستعادة الوعي والروح في العالم الاسلامي موقف الحذر والارتياب والتربص والتشويه والتهويل والاغراء والدسّ واثارة المشاكل وتحريك الاتباع العملاء في الداخل الذين أقامتهم حراسا لها في العالم الاسلامي لتتم عملية السرقة في أمان من صاحب البيت. وهذا الشعور المتوتر الحذر تجاه كل محاولة لايقاظ الوعي الاسلامي نجده بدرجات مختلفة

لدى الرجل الغربي - إلّا النزر القليل - سواء كان ملحدا كسارتر ام متدينا كالكاردينال "لا فجري"، ليبراليا كان كفولتير أم اشتراكيا كماركس ولينين حتى أصبح جزء من مكونات اللاشعور الغربي وذلك ما يحز في نفس المسلم . وان هذا الشعور قد ازداد حدة السنوات الاخيرة بفعل عوامل ثلاثة:

الاول: نمو الوعي الاسلامي

الثاني: أزمة الطاقة وما تولد عنها في الغرب من أزمات أجتماعية وسياسية

الثالث: استغلال قوى الضغط الرهيبة الاعلامية والاقتصادية التي يملكها الصهاينة في أوروبا والتي استغلت هذه الوضعية لتحميل العرب والمسلمين مسؤولية تلك الأزمات بفعل مطالبتهم بحقهم في التمتع بمواردهم وبذلك تجد قوى الضغط الصهيوني فرصتها الممتازة لاثارة أحقاد الغرب الصليبية واشعاره بالخطر الداهم الذي يهدد رفاهيته حتى يقف بكل قواه إلى جانب الصهيونية لتدمير كل محاولة للنهضة في العالم الاسلامي.

شواهد
على هذا الشعور المتوتر

واذا أردنا أن نسوق الشواهد على نفسية الحذر هذه والتربص التي يواجه بها الغرب محاولات النهضة واستعادة الوعي الاسلامي المفقود ويعبر عنها في أشكال مختلفة، واجهتنا صعوبة الاختيار لكثرتها .. فنقتصر على أمثلة - لن نستمدها من كتابات رجال التبشير المسيحي فهم محمولون على التعصب بحكم طبيعة عملهم - وانما نقتطفها مما تكتبه الصحافة الحرة ومن مواقف السياسيين المدافعين عن الحرية في العالم بزعمهم.. كتب المفكر الفرنسي الكبير ما كسيم رودنسون (ماركسي يهودي) إبان انعقاد أول مؤتمر قمة اسلامي في الرباط، كتب بجريدة لوموند ما معناه: إن انعقاد مؤتمر لرؤساء الدول الاسلامية على اختلاف مشاربهم أثار لدى الضمير الغربي مخاوف كثيرة لأنه يعيد إلى الأذهان وحدة العالم الاسلامي وغزوه لأوروبا.

- وكتبت جريدة لورور الفرنسية تعليقا على سماح الحكومة الايطالية لأول مرة باقامة مسجد في رومة تلبية لطلب المرحوم الملك فيصل: ان محمدا يغزو أوروبا.
- وءاخر ما طالعنا معسكر الدعاية والتشهير والحرب ضد ما ظهر في العالم الاسلامي خلال السنوات الاخيرة من بوادر الوعي والبحث عن الهوية وتجاوز سنين الجدب والتبعية والضياع، والبحث عن نموذج لمجتمع عصري ومتطور في الخزينة التي لا تفنى كنوزها: الاسلام بعيدا عن متاهات الفكر الغربي .. المقال الذى كتبه الصحفي الشهير

نانسي ج - وايت بجريدة نيوزويك الأمريكية ٢٠ نوفمبر ١٩٧٨ نقلا عن مراسلين للجريدة أحدهما بكوالمبور (هولغر جنسون) والآخر بالقاهرة (وليم شميت) المقال تحت عنوان «حرب جديدة مقدسة» يطفح بمشاعر السخرية والحقد والتشويه للحركات الاسلامية والتحريض ضدها ..

يعرض الكاتب لاجتماع المسلمين بالحج ساخرا من مناسكهم .. مفتريا على خطبائهم الذين «يتبارون في إلقاء الخطب السياسية العتيقة لمهاجمة الديانات الأخرى ، ويدعون اخوانهن لاعلان حرب مقدسة جديدة ضد تأثير الحضارة الغربية المنهارة!»

ويصف الثائرين المسلمين في ايران بأنهم : «ضد التعصير .. وأن هذه المشاعر المعادية للتعصير نجدها عند أغلب مسلمي العالم» ! ومن مظاهر رفض التعصير في رأيه «رفض الباكستان للقوانين الغربية والاستعاضة عنها بقوانين الشريعة الاسلامية التى تأمر برجم الزاني وقطع يد السارق (يذكر ذلك في لهجة ساخرة) كما أن من مظاهر رفض التعصير والتشبث بمبادىء رجعية عتيقة - في رأيه - ما انتشر في مصر من اتجاه نحو الأزياء الطويلة التي تغطي جسم المرأة وحتى رأسها .. وهذا الميل الى الأصالة،، لا نجده عند العامة فحسب بل نجده حتى عند المتعلمين ففي مصر يسيطر الدعاة المسلمون على ثماني جامعات من بين الاثني عشر جامعة مصرية .. ويلاقي حكم السادات أكبر معارضة من طرف اليمين المسلم،، وفي ماليزيا عاد جمع من الطلبة إلى وطنهم بحثا عن السلوى في التدين (!) كما عادت أبنة الوزير الأول من الدراسة في أوروبا وهي تشتم انحطاط المجتمع الغربي .. وأن أغلبية الطلبة الماليزيين ينادون بالرجوع إلى أحكام الشريعة وقد أجبروا التلفزة الوطنية هناك أن تقطع برامجها لتقدم أذان الصلاة» ويعلق الكاتب على مقتل الشيخ الذهبي «من طرف فئة قليلة من الشبان المسلمين (رغم أن هذا لم يثبت) باضافة فرية أن ذلك حدث «رميا بالرصاص في عينه اليسرى، وهي مأوى الشيطان حسب القرءان» (!) وفسر ذلك بأن الشيخ المذكور كان ضد العودة إلى الأصالة الدينية (!)

كما أخبرنا الكاتب عن منظمات سرية اسلامية توجب رمي غير المسلمين في البحر (!!) وأخرى تقوم بتدنيس المعابد غير الاسلامية (!)

«وهذه المنظمات الارهابية الاسلامية تشجعها - في زعمه - بعض الحكومات الاسلامية للتخريب مثل ليبيا التي تنفق على مجموعات تنتقل لنشر مفهوم الحرب المقدسة (!)»

وبين الكاتب ان استعمال القوة ليس جديدا فلقد «استعمل المتزمتون المسلمون القوة ضد الدول من قديم»!!

ويبدي الكاتب اشفاقه في الاخير على الحكومات في العالم الاسلامي التي: «تبحث عن كل الوسائل للحد من نشاط القوى الاسلامية وربط الشعب بمنطق العصر بدل المنطق العتيق الذي يربط كل نشاط الانسان بالله.

وفي بلدان مثل مصر والسودان ونيجيريا حيث تنادي الحركات الاسلامية بتطبيق الشريعة الاسلامية نجد القوى غير الاسلامية تبدي خوفها من الاضطهاد والتمييز (!) وكمثال لتشدد هذه الشريعة منع قبول شهادة غير المسلم(!)»

● وإن الترجمة ليصعب أن تنقل ما يزخر به المقال من مشاعر السخرية والاستفزاز والتشويه وايقاظ رصيد الغرب اللاشعوري من الخوف والحذر الذي ينطوي عليه الضمير الغربي إزاء كل نهضة اسلامية ترفض الذوبان والمسخ.

● أما عن مواقف السياسيين الغربيين من قضايا العالم الاسلامي فهي واضحة في تأكيد ما ذكرناه لدرجة أن المقولات التي تحلل على ضوئها السياسة العالمية عادة كالصراع بين اليمين واليسار والمعسكر الاشتراكي والرأسمالي تفقد قيمتها .. فكل التناقضات بين الشرق والغرب تنحل اذا تعلق الأمر بقضية إسلامية كقضية ثورة المسلمين في ايران ضد المسخ الغربي الذي يمارسه حكم الشاه فيها . فحيث تتوالى التطمينات للشاه بأن كارتر معه يطير زعيم الصين هوكوفنغ إلى إيران يشد أزره .. وتعلن روسيا تخوفاتها من الثوار المسلمين حتى لا يمتد تأثيرهم إلى الخمسين مليون مسلم المحبوسين وراء الستار الحديدي الروسي ومثلهم في الصين .. أما فرنسا فرغم مبادرتها الشجاعة بايواء الامام الخميني بعد أن ضاقت عليه أرض العرب والمسلمين على اتساعها فان الحكومة الفرنسية تتعرض لضغط كبير من طرف كثير من البرلمانيين والصحافيين لطرد الامام المسلم المتعصب الذي ينادي بحكومة اسلامية رجعية في عصر التقدم (انظر صحيفة Jeune Afrique ـ العدد ٩٣٢)

● وفي القرن الافريقي تقف قوى كثيرا ما زعمت لنفسها وزعم لها أذنابها في العالم الاسلامي بأنها تمثل قلعة التحرر ضد القوى الامبريالية تقف بكل قوتها وبشكل سافر مع الحكم الفاشي الأثيوبي وتقف ثورة أريتريا محرومة من كل دعم شرقي أو غربي كما وقفت جارتها الصومال من قبلها في صراعها ضد الفاشية الأثيوبية والدكتاتورية الاشتراكية الاستعمارية ،، وأغرب مافي الأمر وما يلطخ الجبين بالخزي موقف قوى تقدمية (!) في العالم العربي ضد هذه الثورة كليبيا واليمن الجنوبية.

توتر أنظمة الحكم
في العالم الاسلامي ضد
الحركات الاسلامية

ونحن لا نعجب أن تفرز قناة الأحقاد الغربية مشاعر الحقد ومواقف العداء ضد بوادر النهضة وطلائع البعث الاسلامي فقد تعودنا ذلك منها خاصة والضمير الغربي يرزح تحت وطأة الضغط اليهودي.

إنما العجب كل العجب أن تجد تلك الأغراءات والأحقاد وأساليب الدس آذانا صاغية ونظائر لها في العالم الاسلامي نفسه.

فحيث تأخذ الحياة تدب في المساجد التي أتى عليها حين من الدهر غدت أشبه ما تكون بمأوى العجزء فتعمر بيوت الله بدفعات الحياة من الأجيال الجديدة من المثقفين والعمال تكنس المساجد من الخرافات وأحاديث القصاص وخطب الجنائز لتحل محلها بيانات عن الاسلام في صورته الأصلية : عقيدة تسندها أحدث مكتشفات العقل البشري، وشريعة تحلل على ضوئها أوضاع العصر ومشاكله وتقدم الحلول المناسبة لها، وثقافة تكسر أغلال التقليد والجمود والتبعية والميوعة وتبعث مشاعر الاعتزاز بالانتماء لهذا الوطن وهذه الامة، وتحرك طاقات المسلم وتجندها للقيام بانجاز حضاري يستوعب مكاسب العصر ويوظفها لبناء مجتمع اسلامي تتآخى فيه المادة مع الروح والاقتصاد مع الأخلاق والفرد مع المجتمع والدنيا مع الآخرة..

حيثما ظهر الاسلام في الجامعات والمعاهد العلمية يفك أغلالها من الثقافة الاستعمارية المائعة، ومن أرهاب المنظمات اليسارية المتطرفة.

حيثما انسابت أثواب العفاف والحياء على المفاتن العارية تسترها وتحفظ للمرأة كرامتها واعتبارها إنسانا قيمته فيما يعتقد ويعمل لا في سيقان وأذرع وصدور تعرض كالبضائع في أسواق البغاء والنخاسة التي يسمونها ظلما (حفلات انتخاب ملكات الجمال) و(تحرير المرأة).

حيثما ارتفعت اصوات الخطباء تعلن بحزم أن الفقر في نظر الاسلام قرين الكفر وأن الحرمان من جهة والترف والتبذير من جهة أخرى لن تؤدي إلّا إلى الخراب وحرب الكل ضد الكل مما يسميه الاسلام فتنة.

حيثما حصل شيء من ذلك قل او كثر الا واشتغلت صفارات الانذار منذرة بالخطر، وتطايرت بسرعة البرق البرقيات والملحوظات وتصاعدت هجومات الخطباء آمرة بملازمة

اليقظة والحذر.

وبدأت الاشاعات حول اجراءات قمع وتضييق ومقاومة يزمع اتخاذها تفوح رائحتها الكريهة ولكن ماذا حدث من خطر في البلاد؟

هل عاقر المسلم أم الخبائث جهارا وفتحت دور البغاء والميسر على مصراعيها حيث يراق شرف الأمة ومالها على مذبح الشهوات؟

هل تجاهر دعاة الالحاد بالحادهم وتحدوا الاسلام في عقر داره، يسخرون من عقائد الأمة ويمزقون قرءانها في المدارس ويسب الدين بل يسب ربّ العزة صباحا وعشيا والناس لا يحركون ساكنا،يلهون ويمرحون ؟أم هل انتشرت الرشوة والمظالم،، والاستهتار بالحرمات والمقدسات حتى شربت الخمر في أيام رمضان ،، وحتى غدا المسلم غريبا عن لغته ودينه،،؟

ـ لو كان الامر هو ذاك لكان الخطب يسيرا..

ـفما يكون إذن الخطر إن لم يكن شيئا من ذلك ..

ـ إنهم الاخوانجية..

ـ ومن هؤلاء الاخوانجية يا صاحبي؟ صفهم لي حتى أتوقى من شرهم ولا أقع في مصايدهم.

ـ إنهم أولائك الرجعيون المتعصبون الذين لا يشربون خمرا ولا يزنون حتى بالنظر ولا يرتشون ولا يقامرون ولا يسرقون ولا يكذبون ولا يفحشون حتى باللسان،، يؤدون الصلاة في أوقاتها ويعمرون المساجد بالذكر وتلاوة القرآن وتعلم الدين،، الدين عندهم ليس تمتمات ولا انتماءات جغرافية وإنما عقائد وعبادات وسلوك ومناهج حياة،، العبادة عندهم تضبط سلوك الانسان في المسجد والشارع والسوق والمدرسة والبيت،، يدعون الى الصلاة والاستقامة ونبذ الخرافة والتعصب حيثما حلوا،، تصور أنهم لا يتعاطون حتى التدخين.

ـ إذا كان هؤلاء هم «الاخوانجية» فهم ليسوا شرذمة ضالة في الأمة كما تقول بل هم الأمة الواعية من المسلمين، إنهم طليعة المليار مسلم المتطلع إلى الرقي والحضارة في ظل الاسلام وهو سلام للعالم كله. وكان أولى من أن تشهروا بهم وتنعتوهم بأسماء لم يسموا بها أنفسهم أن تكونوا واضحين صرحاء فتحاكموا الاسلام وتشهروا به وتصفوه بالرجعيةوالعمالة لأنهم ليسوا إلّا صورته المتحركة (أو يحاولون أن يكونوا كذلك على الأقل)

الصليبية الجديدة

إن الصليبية الجديدة لا تتمثل فيما يرصده الغرب من أسلحة فتاكة لمقاومة الاسلام فذلك أمر قديم قدم هذا الدين وانما هي تتمثل في قوم من أبناء جلدتنا ويتكلمون بألسنتنا ـ كما ذكر رسول الله في حديث لمسلم ـ لبسوا خوذات الصليبيين عن وعي أو عن غير وعي وانتصبوا لمقاومة كل حركة تنبعث من اعماق هذا المجتمع وأصوله وتاريخه لا بمقارعة الحجة بالحجة والحوار النزيه وانما بالكيد والدس والتشهير الذي كثيرا ما تطور إلى تصفيات ومنازعات،، فهل كتب على هذه الامة أن يظل أبدا بأسها بينها شديدا فتخرب بيتها بيدها وتفقأ عينها بنفسها؟ ومن المستفيد من ذلك ياترى غير أعداء هذه الامة؟

ألم يئن الأوان لندرك أن أساليب التشهير والترهيب والتصفيات قد تجاوزها منطق العصر، ومتى استطاعت هذه الأساليب أن تحل مشكلا أو تجتث فكرة أو عقيدة من قلوب أصحابها حتى ولو كانت خاطئة؟ إذ العقائد والأفكار كالمسامير كلما أصبتها بالمطرقة ازدادت تمكنا،، خاصة إذا كانت ضاربةالجذور في أعماق الأمة وتاريخها كعقائد الاسلام،، أليس التاريخ مدرسة نتعلم منها ؟ فماذا استفادت مصر من المنازعات ضد الدين غير وضع البلاد في موضع المستسلم أمام عدو شرس،، وماذا أجدى عن الشاه رجال مخابراته وجبروتهم؟

دعوة إلى الرشد

إن خيرا من ذلك وارشد للجميع الحوار العلني الصريح مع كل من يخالفنا في الرأي، إذ الباطل تحت شمس الحرية لا ثبات لظله ولا استقرار، فهل استنفدت أساليب الحوار مع من وصفتهم جريدة العمل على لسان مدير الحزب:

بأنهم (يتسترون وراء الشعارات الدينية لا يرومون سوى إثارة الفوضى وتعكير الاستقرار وبث التفرقة. وإنه من حق المجموعة القومية أن تتوقى شر هذه الأقلية التي لا تهدف غير الفوضى والعنف وهو ما يقتضى اليقظة الدائمة)
"العمل" ٢٨ ـ ١١ ـ ٧٨

إنها دعوة إلى الرشد

يعلم الله إنها تنطلق من أفئدة واجفة مشفقة،، لا على أنفسنا وأيم الله، فعقائد الاسلام قد علمتنا في أبجديتها : «قل لن يصيبنا إلّا ما كتب الله لنا» وأن الرزق والموت والحياة والضر والنفع قد تكفل بها جبار السموات والأرض الـذي تعلن بياناته المشرقة تصف قوما مؤمنين في مثل حالنا «الذين قال لهم الناس : إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم ايمانا وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء واتبعوا رضوان الله»

ولسنا أيضا واجفين أو مشفقين على إسلامنا فهو أكبر من أن ترد جحافل نوره الزاحفة على كهوف عالمنا المظلمة.

وإنما نحن مشفقون على أمة حادت عن مسارها التاريخي فتـاهت وتردّت في فوضى التبعية والتخلف، وبدل أن تجعل شغلها الشاغل البحث عن هويتها من أجل الخروج من التخلف إذا بها يُزج بها في سلسلة من المنازعات والفتن الداخليـة وترتفع حدة التهجمات والافتراءات والتهديدات ضد الرجعيين «والمتسترين وراء الشعارات الدينية» فهلا علم هؤلاء الخطباء أن المشكل في حقيقته لا يكمن في وجود فئة من المشوشين أو الرجعيين المتعصبين أو «الأخوانجية» في أيران او الباكستان أو مصر أو تونس وانما هـو يتمثل أسـاسا في التنـاقض الجذري والعميق بـين الاوضاع القائمة في العالم الاسلامي المتأثرة الى حد كبير أو صغير بارث الثقافة الاستعمارية الغربية وبين ضمير هذه الامة وثقافتها وتاريخها الذي يمثل الاسلام روحها. والى أن يزول هذا التناقض الأساسي ـ ونأمل ان يكون ذلك قريبا ـ فيلتقى الجسد بالروح وينتفى هذا الاغتراب الذي تعيشه الأوضاع في العالم الاسلامي، سيظل الصراع قائما وتذهب أدراج الرياح كل الجهود المبذولة للتنمية لافتقادها للأسس والبواعث. من أجل ذلك نحن مشفقون.

مشفقون في الاخير ـ وليس آخرا ـ على الغرب نفسه الذي يحرك بشكل مباشر أو غير مباشر أصابع الاتهام ويوجه بنادقه ضد الاسلام ودعاته،، مشفقون عليه لأنه رغم تقدمه الصناعي الهائل وثرائه الواسع وسلطانه القاهر لم يجن ما كان يصبو إليه ويحلم به من سعادة واطمئنان واستقرار ،، إنه لم يجن غير القلق والاضطراب والخوف من المستقبل معرّضا قافلة الانسانية التي يقودها الى الهلاك بفعل ماديته

الكالحة . فهلا علم أن رفاهية بنيت على الحرام وعجنت ناطحات سحابها بدماء وعرق الشعوب الضعيفة وأن حياة مقطوعة الصلة عن خالق الحياة والانسان لن تثمرا قط غير الشر والدمار والتعاسة؟

ألم يئن للحرب الصليبية ضد الاسلام ودعاته التي يديرها الغرب بشكل مباشر أو غير مباشر أن تضع أوزارها ؟

والى متى سيظل الغرب يتعامل مع الاسلام والمسلمين من خلال الاحقاد وسوابق الأحكام التي ورثها عن عصوره الوسطى المظلمة؟ لماذا لا يتعامل مع الحقيقة الاسلامية مباشرة مستخدما منطق العصر وأسلوبه العلمي الموضوعي؟

ولماذا هذا الرعب كله من الاسلام وهو سلام للعالم كله؟ ألم يقرؤوا في البيانات القرءانية الخالدة: «وما أرسلناك إلّا رحمة للعالمين»؟

إنها دعوة الى الرشد والتعقل والحوار النزيه بعيدا عن الأحقاد وسوابق الأحكام وأساليب الكيد والدس لعلها تجد ءاذانا صاغية وقلوبا واعية في الداخل والخارج فينعم العالم بالعدل والسلام ويتصالح الانسان مع نفسه التي أضاعها في البحث عن اللّذة المحرمة ويتصالح مع أخيه الانسان ومع ربه في إطار عقائد الاسلام الواضحة وشرائعه العادلة فتلك «فطرة الله التي فطر النّاس عليها لا تبديل لخلق الله، ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون».

الثورة الايرانية ثورة اسلامية

- ☐ الحركة الاسلامية في ايران طليعة الحركة الاسلامية العالمية.
- ☐ الاسلام ايديولوجية الشعوب المستضعفة.
- ☐ موقف العالم من هذه الثورة.
- ☐ فلسفة أنصار النظام الكسروي.

الثورة الايرانية ثورة إسلاميّة

مواقف من الثّورة

يتساءل كثير من الناس مسلمين وغير مسلمين عن هذه الثورة في ايران التي زلزلت عرش أكبر امبراطور في آسيا تحميه أضخم الاجهزة السرية والعلنية باكبر قلعة للامبريالية في العالم الا وهي الولايات المتحدة وتقف الى جانبه بشكل أو بآخر كل دول المنطقة : السعودية والعراق وتركيا واسرائيل ومصر وروسيا والصين ، يتساءلون ما طبيعة هذه الثورة ؟ من الذي يحركها ؟ ماهي الدعائم التي تقوم عليها؟ ما أهدافها؟

ان الجواب عن هذه الاسئلة يقتضي ان نعلم

١ ـ ان الشعب الايراني شعب مسلم عريق يتبع المذهب الشيعي وهو أحد المذاهب المعروفة (المذهب الجعفري) حيث يتمتع الامام بتأثير معنوى هائل فيطاع طاعة تامة ويتصرف في خمس المال.

٢ ـ ان ايران تمتلك ثروة نفطية هائلة تجعلها ثاني دولة مصدرة للبترول.

٣ ـ ان ايران تحتل موقعا استراتيجيا هاما يجعلها تشكل اكبر حاجز امام التوسع الروسي في اتجاه الشرق الاوسط.

٤ ـ إن الغرب (انقلترا اولا ثم امريكا اخيرا) حرص على السيطرة على هذا البلد بواسطة عائلة (بهلوى) التي عمل الاستعمار من خلالها على :

ا ـ مسخ الشخصية الاسلامية للشعب الايراني بنشر الثقافة الغربية المائعة (الرقص ـ الزنا ـ القمار ـ الخمر) عن طريق التعليم والاعلام والفن،،،

ب ـ تفقير الشعب الايراني ذي الثروات الطائلة حتى لا يبقى له من شاغل سوى البحث عما يسد الرمق ويستر الجسد، مقابل الثروات الخيالية التى يمتلكها الشاه وعائلته (تقدر ثروته باربعين مليار دولار) وثروة اخته (٤مليارات)

ج - صرف مايبقى من ثروات الامة في شراء احدث الاسلحة من امريكا (٣٠٪من المزانية. وهي اكبر نسبة في العالم)

في هذا الوسط قامت الثورة الاسلامية في ايران تدعو الى تحقيق برنامج الاسلام في:

ا - محاربة الاستبداد الأسود الذي يمارسه الشاه بواسطة منظمته السرية الرهيبة (سافاك)، فالله خلق الناس احرارا ولا حق لاحد ان يستعبدهم

ب - محاربة الفوارق الطبقية الطاغية والتبذير والترف الذي يغرق فيه الشاه واعوانه ويبقى معه الشعب محروما من ابسط ضرورات العيش اذ الاسلام في حقيقته حرب على الفقر والاستغلال والترف ودعوة الى العدالة الاجتماعية. يقول الرسول عليه السلام (الناس سواسية) ويأمر القرآن الكريم بمحاربة المترفين وتوزيع الثروة العامة على الشعب (كي لا يكون دولة بين الاغنياء منكم)

ج - محاربة التبعية السياسية للامبريالية العالمية والدعوة لان تكون ايران دولة اسلامية مستقلة عن الشرق والغرب يحكمها نظام اسلامي.

د - تحرير المجتمع الايراني من الثقافة الاستعمارية المائعة التي تجعل اللذة هدف الحياة (الخمر، الزنا، القمار، الاغاني المائعة) باحداث الانسجام بين نظام المجتمع وعقيدة الشعب مما يوفر الاطار الضروري لنمو المجتمع وتطوره.

ان الاسلام ليس مجرد دعوة روحية بل هو عقيدة وعبادة ونظام سياسي واجتماعي شامل لا فرق فيه بين المادي والروحي. ولذلك فان الامام الخميني هو في الوقت نفسه امامٌ روحيّ للامة الايرانية وقائد ثورتها الكبرى في الحرية والعدالة والمساواة واستعادة الذاتية.

ورغم تعدد الاتجاهات الوطنية واليسارية والعلمانية في ايران فقد استطاع الخميني بنفوذه الروحي الهائل وتبنّيه بقوة واخلاص الدفاع عن مطالب الأمّة الاسلامية في الحرية والعدالة في اطار الاسلام ان يجعل المعارضة كلها تذعن لقيادته وتسلم بحلوله الجذرية التي اعلن عنها منذ ١٩٦٣، والتي تبتدىء بالاطاحة بالعرش الامبراطوري وارث كسرى وحكم المجوس واقامة حكم اسلامي تتمتع في ظله كل فئات الشعب بحقوقها في الحرية والعدالة،، ولم تتمكن عساكر الشاه (نصف مليون) ورجال المخابرات (٤٠٠ الف) من وأد الثورة الاسلامية فلقد خرج الشعب في محرم الماضي في مظاهرات كبرى

(٢٠ مليونا) يناد بصوت واحد: لا اله الا الله، الخميني ولي الله ـ الموت للشاه.

ورغم ءالاف الضحايا فقد استطاع الشعب ان يواصل مسيراته الكبرى فتعطلت كل شرايين الحياة ـ (الادارة ،الاسواق، المعاهد، شركات البترول) وكان يتقدم هذه المسيرات الكبرى اطفال المدارس والنساء والائمة والخطباء وبقية فئات الشعب،، انه شعب يريد العدالة والحرية والاستقلال في ظل الاسلام.

الحركة الاسلامية في ايران طليعة الحركة الاسلامية العالمية

ان الحركة الاسلامية في ايران وان كانت قاعدتها شيعية فانها تصب في التيار العالمي للبعث الاسلامي، مستهدفة ايقاظ الامة الاسلامية بكاملها ووضعها في القيادة الحضارية للعالم

ولقد أكد الاستاذ مهدي الحسيني في محاضرة له بمناسبة قدوم شهر محرم ١٣٩٩ تولى توزيعها الشباب الاسلامي الايراني في باريس، اكد على هذه الطبيعة العالمية للحركة الاسلامية في ايران، واضعا اياها على اعتبارها امتدادالثورة الحسين على الطغيان وثورة الامام البنا في مصر وثورة المودودي في باكستان والثورة الاسلامية في تركيا وفي افغانستان

يقول : «اننا نجد اليوم في مصر حركة اسلامية متصاعدة تقود المعارضة وتقدم الشهداء وتلتف حولها الطبقات الواعية من أبناء الامة وكلهم يهتفون بصوت واحد : يسقط عميل امريكا (السادات)،، انهم يمثلون ضمير الامة النقي الشجاع القادر على صنع المستقبل للعالم على انقاض هذا الواقع المتهاوى،، الفاسد،، وفي العراق حركة اسلامية متصاعدة وفي باكستان ينتفض الشعب المسلح في موجات ثورة عارمة،، وفي افغانستان حملت الحركة الاسلامية السلاح»..

الاسلام ايدولوجية الشعوب المستضعفة

«ان الصراع الوحيد القائم اليوم في العالم انما هو بين شعوب محرومة وقوى طاغوتية متسلطة عليها، بين شعوب مستضعفة وشراذم من المستكبرين الذين خافوا شعوبهم

واستسلموا للاجانب،، ان هذا الصراع يزداد يوما بعد يوم حدة وعنفا، وان الايديولوجية الوحيدة القادرة على قيادة الشعوب المحرومة والمستضعفة انما هي الايدولوجية الاسلامية الشجاعة التي تتصدى للطواغيت..

وحين تنتصر الحركة الاسلامية في ايران فانها تسجل بادرة عظيمة في الصراع المحتد اليوم في العالم بين قوى الطاغوت وقوى التحرر،، بين الانظمة الجبارة وبين الشعوب المحرومة المستضعفة، ولذلك فسوف تكون نموذجا يهتدي به كل الاحرار في العالمين الاسلامي والنامي وتصبح ايران قلعة للحرية ومركز الاشعاع الرسالي في العالم»

ان ثورة ايران هي ثورة الاسلام ضد الاستبداد والقهر والتبعية والاستغلال انها ثورة المستضعفين ضد الطغيان السياسي والاستغلال الاقتصادي «ونريد ان نمن على الذين استضعفوا في الارض ونجعلهم ائمة ونجعلهم الوارثين»

موقف العالم من هذه الثورة

(١) موقف الغرب:

وقف الغرب بشقيه الرأسمالي ـ ما عدا فرنسا ـ وشقه الاشتراكي بدون استثناء موقفا مناهضا لهذه الثورة وذلك :

ا ـ خوفا على مصالحه (الاقتصادية والدفاعية) ان تضيع وتهدد

ب ـ خوفا من شبح الاسلام الذي ترفع الثورة في ايران اخطر شعاراته « الحكومة الاسلامية »

ج ـ خشية كل من روسيا والصين من تأثير جكومة اسلامية في ايران على اكثر من مائة مليون مسلم يعيشون في ظل الارهاب الشيوعي في روسيا والصين .

(٢) موقف البلاد العربية والاسلامية والعالم الثالث عامة.

ا) مؤيدون متحمسون للشاه كبلدان الخليج والسعودية والمغرب والعراق وتركيا واسرائيل التي تستورد ٧٠٪ من محروقاتها من ايران والتي ارسلت مظليين لتأييد الشاه، ومصر التي استقبل فيها الشاه بحفاوة بالغة بعد أن خرج من بلاده باكيا يجر اذيال الهزيمة.

ب) متحفظون او مؤيدون للشاه باحتشام واعتدال فيحاصرون أنباء الثورة في ايران ولا يتحدثون عنها الا في الهوامش.

ج) مناصرون للثورة الايرانية ولكن بعد تجريدها من طابعها الاسلامي واضفاء الصبغة الاشتراكية عليها كما فعلت بعض الانظمة المجاورة لنا.

فلسفة انصار النظام الكسروي

واذا كان للدول الغربية والشرقية مبررات واضحة لموقفها المناهض لثورة ايران، واذا كان لاسرائيل من المصالح مع شاه ايران ما يبرر دفاعها المستميت عن نظامه خاصة وان الخميني نادى باستئصالها من الجذور، فما هي المصالح الكبرى التى تبرر وقوف هذه البلدان العربية والاسلامية مع طاغ متجبر وفوق ذلك مهزوم، يلعب الاطفال في ساحات طهران برأسه بعد ان اطاحوا بالتماثيل التي كانت تعمر الساحات ؟ هل فكرت هذه البلدان العربية والاسلامية في النتائج الخطيرة لموقفها هذا الذي لن يدوم والشعب الايراني دون الاطاحة بالشاه ولكنه (اي هذا الموقف) يفتح اخاديد من الحقد في قلب هذا الشعب الثائر على جيرانه واخوانه في الدين والانسانية.؟ فكيف نتصور مصير هذه المنطقة وخاصة منطقة الشرق الاوسط والخليج مع وجود هذه الاحقاد،؟ وبماذا يبرر فلاسفة السياسة في هذه المنطقة اشعالهم لنار الفتن والاحقاد بموقفهم هذا الذى لن تجني منه أمة العرب والاسلام الا مزيدا من التمزقات،،؟ اليس لنا الحق بعد ذلك ان نتساءل لأيّ مدى نحن احرار في اتخاذ مواقفنا حتى تعبر هذه المواقف عن مصالح شعوبنا وليس عن مصالح امم وشعوب اخرى هذا اذا تحدثنا بلغة المصالح ؟

اما اذا تحدثنا بلغة الانسانية فتبدو كل المواقف المناهضة للثورة الايرانية او المحايدة عارية من كل قيمة انسانية.، واي انسانية لمن يدعم ظالما مستبدا يُزهق من ارواح شعبه خمسة عشر الفا في يوم واحد ويعيث في البقية تشريدا وتجويعا وافسادا.

ولن نتحدث مع هؤلاء بلغة الاسلام اذ لو كان الاسلام هو الذي يكيف مواقفنا ويحكم أوضاعنا الخاصة والعامة لما انتهينا الى المذلة والهوان

٣) موقف الاسلاميين

اذا استثنينا ـ في حدود اطلاعي ـ ما كتبته هذه المجلة في اعدادها السابقة عن ثورة ايران وما كتبته مجلة النور المغربية والكتيب الذى صدر عن مركز «ءاخن» حول نفس القضية لم نجد الا صمتا او حديثا عابرا او كتابات حائرة تلقي ظلالا من الشك حول دوافع هذه الثورة ومدى اخلاصها ووفائها للشعارات الاسلاميةالتي ترفعها او مدى قدرتها على تحقيق اهدافها، تاركة احتمال وجود اصابع من الاستخبارات الشيوعية او الامريكية وراءها،،

ماهي دلالات هذا الموقف؟

ان من اخلاق الايمان ان يحسن الانسان الظن بالناس، خاصة اذا كانوا مسلمين

وبشكل اخص اذا كانوا الصفوة منهم وهم رجالات الحركة الاسلامية ـ مصابيح الدجى في هذا الليل البهيم ـ ولكن ليس ذلك يمنعنا من تحليل المواقف بموضوعية واستخراج العبر واسداء النصيحة مع اعترافنا بقصر الباع وقلة الزاد انه ليس امامنا لتفسير موقف الاعلام الاسلامي من قضية ايران الا ان نضع مجموعة احتمالات

الاحتمال الاول: ان تكون بعض المواقف التي يتخذها الاعلام الاسلامي ليست ثمرة لجهد حقيقي ودراسة موضوعية مبنية على احاطة بالمعطيات الضرورية للمشكل المطروح مما يعطى فرصة كبيرة لاحكامنا السابقة وافكارنا الثابتة واجهزة الاعلام العربية لتكيف مواقفنا وهي اجهزة قد مردت على النفاق والخداع وقلب الحقائق وما كان للاعلام الاسلامي ان يتساهل الى هذا الحد فى صناعة مواقفه،، ففي القضية موضوع حديثنا ـ قضية ايران ـ لم يبق شك لدى المطلعين حقيقة على مجرى الاحداث في ايران ان الاسلام هو المحرك الاساسي لهذه الثورة وان ما تبقى من اتجاهات وطنية او يسارية لا تعدو ان تكون هوامش للتيار الاسلامي الذي جرفها في الطريق حتى اختفت كل الرايات في ساحة الثورة تاركة مكانها للرايات الاسلامية كما ان الامام الخميني لم يخف قط الطبيعة الاسلامية للثورة واهدافها في الحرية والعدالة في ظل حكومة اسلامية،.. والعبرة هنا ـ اذا صح هذا الاحتمال ـ ان ندرك خطر تقييم الاشخاص والحركات، فالتقييم حكم «ولا تَقْفُ ما ليس لك به علم ان السّمع والبصرَ والفؤاد كل اولئك كان عنه مسؤولا» والخطأ في التقييم يجر حتما الى خطا فى القرار والموقف.

الاحتمال الثاني: ان يكون تراث عصر الانحطاط وما حفل به من صراعات سياسية وعقائدية ودموية بين ابناء الامة الواحدة (الخوارج، الشيعة، المعتزلة، اهل السنة) لا يزال حيا وفعالا ومؤثرا في مواقف حركات البعث الاسلامي رغم صراعها المرير مع عصر الانحطاط وجهادها للخروج منه،، وكأنّ ما احدثته تلك الصراعات من تمزق في صفوف الامة واضعاف لكيانها واسلامها للاعداء لم يكف

الاحتمال الثالث: ان تكون الحركات الاسلامية غير قادرة احيانا على الارتفاع الى مستوى المعركة الحقيقية في حاضر هذه الامة ومستقبلها،، وهي معركة ليست بحال معركة بين سنة وشيعة وخوارج واحناف ومالكية وشافعية وانما هى معركة الاسلام ـ الاسلام بكل اتجاهاته وتناقضات اهله الداخلية ـ مع الباطل والظلم والاستغلال والشر بكل مذاهبه واسمائه وخلفياته الايديولوجية،.

الاحتمال الرابع : ان نكون غير قادرين على ان نكيف مواقفنا وفق عقائدنا التي نحن بمقتضاها امة واحدة رغم تنوع مذاهبها وفرقها واجتهاداتها العقائدية والفقهية والحركية

يقول الرسول عليه السلام «المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله، ولا يحقره،.»

ان شيخ الاسلام ابن تيمية وهو من اشد علماء الاسلام حساسية وتدقيقا في قضايا العقيدة لم يخرج الشيعة الزيدية أو الامامية من ساحة الامة الاسلامية رغم نقده لما في مذاهبهم من بدع .

يقول رحمه الله:

«واما السلف والائمة فلم يتنازعوا في عدم تكفير المرجئة والشيعة المفضلة ونحو ذلك، ولم تختلف نصوص احمد انه لا يكفر هؤلاء» (١)

ومن التاريخ الحديث للحركة الاسلامية نذكر بالعلاقة الوثيقة التي كانت تربط بين الامام الشهيد حسن البنا وبين الامام الكاشاني الزعيم السابق للحركة الاسلامية في الاربعينات والخمسينات في ايران حيث وضعا برنامجا للتعاون والتنسيق لقيام الدولة الاسلامية وتاييدها من الجميع في أي مكان تقوم فيه - حسبما بلغني ممن اثق فيه - فضلا عن ان حركة« نواب صفوي » الفدائية في ايران كانت امتداد التفكير الاخوان.

وايا كان الاحتمال هو الاقرب الى الصواب فليس هناك ما يبرر موقف الصمت او اثارة الشكوك،، فالذي يبدو واضحا ان دولة شيعية قوية ستولد في ايران وستكون طرفا اساسيا في تحديد مصير المنطقة فلا مناص من مد الجسور الاسلامية المشتركة للتعاون معها في تصفية الوجود الاستعماري وقاعدته اسرائيل.

ذلك موقف تمليه عقائدنا ومصالحنا وانسانيتنا.

رجاء ملح:

ان تصحح الحركة الاسلامية موقفها من قضية عادلة وانسانية وفوق ذلك اسلامية تصارع اعتى قوى العصر،، نريدها وقفة حازمة تعلن بصراحة ووضوح وقوة وقوف العاملين للاسلام في كل مكان وانصار الحرية والعدالة مع اخوان العقيدة رواد الحرية والعدالة في ايران،،، أولئك الذين رفعوا راس الاسلام عاليا في الدنيا كلها،. فلاول مرة في التاريخ يتوقف مصير امبراطورية جائرة عاتية تدعمها الدول الكبرى واذنا بها، ويتوقف مصير عرش تحميه سادس قوة عسكرية فى العالم ،، يتوقف مصير الامبراطورية والعرش وحماته على كلمة يقولها شيخ معمم في المنفى. ولأول مرة في التاريخ تقام الصلاة الجماعية في اكبر الساحات بباريس، ولندن، وواشنطن اثناء قيام المجاهدين الايرانيين بمسيراتهم الكبرى تاييدا للثورة في ايران.

كلمة اخيرة:

ان الشعوب المستضعفة في الشرق والغرب الباحثة عن النور والحق والعدل والحرية لتنظر بعين الامل الى رواد البعث الاسلامي لتخليصها من الاستبداد والفقر والضياع والحيرة، على حين يقف الطواغيت في ذهول ورعب امام هذا العملاق الذي اخذ ينفض ءاثار النوم على عينيه(٢) فهل نكون قادرين على الارتفاع الى مستوى اسلامنا وما تعلقه الانسانية على عملنا من ءامال في انقاذ تراثها من عبث اليسار واليمين وتحريرها مما تعانيه من الوان الظلم والاستغلال والضياع والتمزق،؟

اننا لن نقدر على ذلك حتى نجعل **همّنا واحدا** ان ترتفع راية الاسـلام في انفسنا وواقعنا وعالمنا فتقوم للاسلام دولة تحكم العالم بدستور القرآن: دستور التوحيد والعدل والحرية، **وصفنا واحدا** يضم كل عامل للاسلام، **وعدّونا واحدا**، كل شيطان من الجن والانس يكرس الظلم والطغيان في هذا العالم، واملنا واحدا، ان نفوز بارفع وسام علق على صدر بشر : الشهادة

«وما يلقّاها الا الذين صبروا وما يلقّاها الا ذو حظ عظيم».

---

(١) الفتاوي ج ٣ ص ٣٥١ ط ١ ـ ١٣٨١ ـ مطابع الرياض.

(٢) اوصى الرئيس كارتر في المدة الاخيرة اجهزة استخباراته بالقيام بدراسة مفصلة على كل الحركات الاسلامية في العالم ـ جريدة الصباح، لاكسيون ٢٢ ـ ١ ـ ٧٩.

قادة الحركة الاسلامية المعاصرة:
البنا - المودودي - الخميني

- ضرورة التجديد.
- مصطلح الحركة الاسلامية المعاصرة.
- أهم العناصر المشتركة.
- الخصائص الذاتية.

قادة الحركة الاسلامية المعاصرة:

البنا ـ المودودي ـ الخميني

- ☐ ضرورة التجديد.
- ☐ مصطلح الحركة الاسلامية المعاصرة.
- ☐ أهم العناصر المشتركة.
- ☐ الخصائص الذاتية.

قادة الحركة الاسلاميّة المعاصرة

البنا ـ المودُودي ـ الخمَيْني

(١)

« إنّ الله يبعث لهذه الأمّة على رأس كل مائة سنة من يجدّد لها دينها»

أبو داود عن أبى هريرة.

ضرورة التجديد

لقد كان الانسان وسيبقى ابدا في حاجة الى النبوّة لكي يفقه معنى وجوده ويستبين نهج حياته ليقوم بدور الخلافة.. فجاءت الرسالات تترى حتى نزلت اية: «اليوم اكملت لكم دينكم واتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الاسلام دينا» فكانت اعلانا صريحا بان الانسان قد ترشد وانه قد فقه قانون السير الذي اراده الله لحياة البشر فما عادت به حاجة الى ان يجلس الى جانبه سائق حتى يقود سيارته.

غير ان البشر تعرض لهم خلال مسيرتهم عوارض من الجهل بقانون السير او بطريقة تطبيقه ازاء حالات جديدة من التعقيد.. فكانت الحالة تدعو الى وجود رجال يعيدون للقانون الالهي نقاوته وينفون عنه ما التبس به من أوهام البشر وتجاربهم الناقصة.. ويعالجون على ضوئه ما يستجد عبر تطور الحياة من مشكلات على ضوء النصوص الثابتة والغايات الكبرى للشريعة.. مما يعيد للدين شبابه ويحفظ العلاقة بين المتطور والثابت بين القرآن والزمان.. وحتى يبقى القرءان قادرا ابدا على هداية البشرية في طريق الحق والخير والعدل..

خلود الاسلام

وان خلود الاسلام وبقاء امته انما يرجعان الى امرين

أ ـ مافي طبيعة هذا الدين من مرونة وانسجام مع الطبيعة البشرية وقدرة على تلبية احتياجات الانسان مهما بلغ مستوى تطوره.

ب ـ «ان الله عز وجل قد تكفل بمنح الامة الاسلامية رجالا اكفاء اقوياء يرثون الأنبياء»(٢) ويقومون بمهمة تنقية الدين من الشوائب وتقديم حلول لمشاكل العصر على ضوء مبادىء الدين.

الانقلاب الخطير

أسس النبي عليه السلام دولة كانت تجسيدا رائعا لمبادىء الاسلام في العدل والحرية والاستقامة واستمرت هذه الدولة بعد وفاته تحت قيادة اصحابه فرأت البشرية من خلالها آمالها ومثلها العليا وقد تحققت.. فدخل الناس في دين الله افواجا مما احدث ـ بالاضافة الى ما جرته حروب الردة من خسائر في صفوف الاصحاب الكرام ـ ما سماه أبو الاعلى المودودي بحق «الانقلاب الخطير في مجرى التاريخ الاسلامي اذ تسبب في تقلص عدد المسلمين في الدنيا من ذلك النمط المثالي الرائع الذي كان مسلما حقا يطابق قوله فعله، ومن جهة اخرى تصاعدت نسبة الذين هم وان كانوا دخلوا الاسلام اعجابا بمبادئه الا ان الناحية السلوكية فيهم (واحيانا العقائدية ايضا) لم تكن منطبعة كليا بطابع الاسلام.. وهذه الظاهرة قادت الى انقلاب خطير في التاريخ الاسلامي هو تحويل الخلافة الى ملك عضوض.. فبدأت بهذا الانقلاب **اولى النكبات وهي التباعد التدريجي بين الدين والسياسة** حتى لم يبق من الخلافة ـ مع مرور الزمن ـ الا رسمها كما يقول ابن خلدون (٣)» وجاء الاستعمار الحديث ليهدم حتى هذا الرسم (الخلافة العثمانية) لتنشأ في العالم الاسلامي الدولة العلمانية والدولة الاشتراكية والدولة التي تزين دستورها باسم الاسلام.

صدمة سقوط الخلافة

ولقد احدث سقوط الخلافة وما سبقه ولحقه من غزو استعماري صدمة عنيفة في شعور المسلم أيقظته من نومة الانحطاط وازالت عنه الطمأنينة المزيفة بانه على كل حال من «خير أمة أخرجت للناس»!

حيرة وتقييم مختلف

ومما زاد في وقع هذه الصدمة واستفزاز شعور المسلم ما صاحب الحملة الاستعمارية

على العالم الاسلامي من غزو ثقافي تبشيري. يجتث الثقافة الاسلامية من جذورها وينشئ جيلا من المسلمين منبتا عن جذوره مولعا بالمستعمر شان المغلوب مع غالبه.. فلا عجب والحال هذه ان كان السؤال المطروح في العالم الاسلامي في أوائل هذا القرن «لماذا تأخر المسلمون وتقدم غيرهم» (٤) وكان الجواب على نحوين متناقضين لا يزالان حتى اليوم يقسمان العالم الاسلامي الى معسكرين متصارعين

الجواب الاول:

ان مشكل التخلف يكمن في الاسلام ذاته فلابد من تطويره وتحويره حتى ينسجم مع الغرب فيلحق المسلمون بركب الامم المتقدمة. وتطور هذا الجواب عند الماركسيين.. الى الدعوة الى التخلي عن الاسلام جملة ومحاربته.. وبذلك كانت لبيرالية طه حسين تمهيدا لماركسية لطفي الخولي وعبد الله العروي.

الجواب الثاني:

ان المشكل يكمن في المسلمين لا في الاسلام.. **تخلى المسلمون عن الاسلام في صورته الحقيقية فحدث الانحطاط.. والحل: حركة تجديد** تمسح عن الاسلام غبار الانحطاط فيستعيد حيويته وقدراته القيادية على ايجاد مجتمعات اسلامية ليست متقدمة فحسب بل تمثل اعلى صور التقدم..

واذا كان الاتجاه الاول قد تبلور في مجموعة من الحركات الوطنية والقومية والاشتراكية التي استمدت وتستمد صورها ومثلها من الغرب الرأسمالي والاشتراكي.. وهي التي حكمت العالم الاسلامي.. في مرحلة ما بعد الاستقلال .. وظهر فشلها واضحا في إحداث نهضة في العالم الاسلامي.. بل اتجه المسلمون في ظل قيادتها الى مزيد من التبعية للغرب ومزيد من الهزائم الاقتصادية والعسكرية والممارسات الدكتاتورية البشعة.. فان الاتجاه الثاني قد عبر عن نفسه على لسان عدد من المفكرين والعلماء المجددين كالافغاني واقبال ومصطفى صبري والسنوسي وابن باديس.. وتبلور واخذ شكلا واضحا في ثلاث اتجاهات كبرى اخترناها موضوعا لحديثنا ـ هذه المرة ـ لأنها ليست معروفة بالشكل الكافي او هي معروفة في صورة مشوهة صنعها اعداؤها.. ثم ان هذه الاتجاهات أخذ دورها ـ لا على المستوى المحلي بل على المستوى العالمي ـ يتنامى ويزداد.. ورغم انها تندرج في خطها العام في سياق حركة التجديد المتواصلة عبر التاريخ الاسلامي.. فان مفهومها للتجديد اخذ بعدا ءاخر هو التاسيس (اي اعادة البناء من

الاساس) ذلك انه طالما بقيت الدولة الاسلامية قائمة ولو في شكلها الانحطاطي فان عمل المجددين كان عبارة عن عملية اصلاح وترميم وتقويم للمعوج ونفي للدخيل عن الاسلام (وفي هذا الاطار كان عمل ابن حزم وابن تيمية) أما والبناء قد سقط جملة واصبح الاسلام غير معترف له بالحاكمية والسلطان،، لزم ان يكون التجديد لا اصلاحا بل تأسيسا . وما نشهده اليوم على ساحة العالم الاسلامي هو تجديد من هذا النوع، فقد سقط المجتمع الاسلامي القديم وانتهت بذلك دورة من دورات عمل الاسلام الحضاري،، واليوم يبدأ العالم الاسلامي بنجاح ثورة الاسلام في ايران والباكستان دورة حضارية جديدة،، وهذه الاتجاهات الكبرى في الحركة الاسلامية المعاصرة هي: الاخوان المسلمون، والجماعة الاسلامية في باكستان والحركة الاسلامية في ايران، ما هي المبادىء والاهداف والوسائل التي تجمع بينها؟ ما هي خصوصيات كل منها؟

استدراك

وأحب ان اصارح القراء الكرام اني ترددت كثيرا في طرق هذا الموضوع رغم انه منذ خطر ببالي ظل يلح علي بقوة.

اما ترددي فمأتاه:

١ـ ما يمكن ان يثيره الموضوع من حساسيات.

٢ـ ما لا حظه بحق الاستاذ فتحي يكن من ان «تاريخ الحركة الاسلامية المعاصرة حافل بالتجارب على كل صعيد وان بقي حتى الآن بدون دراسة او تقييم بل حتى من غير كتابة وتسجيل، وهذه ظاهرة لا يمكن ان تكون مقبولة في نطاق حركة مرشحة لتولي ريادة الامة وقيادتها بالاسلام في أصعب وادق مراحل حياتها.. فضلا عن انها ظاهرة مرضية من شأنها ان تبقى الحركة في الدوامة.. دوامة التكامل والتأكل تبقيها من غير تاريخ»(٥)

٣ـ ما اشعر به من حرج امام تقييم رجال كبار وعلماء فطاحل، مجاهدين، لست أنا إلّا تلميذا صغيرا من تلاميذهم.

اما الحاح الموضوع بقوة علي فسببه ما الفيته لدى الكثير من جزئية وتمزق في الرؤية جعلت الاتجاهات الاسلامية في الحركة الاسلامية المعاصرة وكأن كلا منها أمة برأسه فلا تفاعل ولا صلة بينها في المناهج والوسائل والأهداف.. بل اصبح يروق للبعض بنية حسنة او سيئة، رغم قلة الدراسات في هذا الموضوع ان يصدر احكاما قطعية تعطي صورة شائهة عن هذه الاتجاهات في الحركة الاسلامية المعاصرة باذلا كل الجهد في ابراز التناقض والارتباك، وان الحركة الفلانية فشلت لكذا وكذا.. والأخرى نجحت لكذا وكذا،، فضلا عن ان «تقييم» العمل الاسلامي لتجاربه امر لا مناص منه للخروج من دوامة التكامل والتأكل.

وهذا ما حرّكني - رغم قلة الزاد - للقيام بمحاولة تقديم فكرة موجزة عن هذه الجماعات او الاتجاهات الثلاثة والله ولي التوفيق.

مصطلح الحركة الاسلامية المعاصرة

عنينا بهذا المصطلح اتجاهات ثلاثة من بين اتجاهات الدعوة الاسلامية الكثيرة، يجمعها: فهمها الشمولي في نظرتها للاسلام وموقفها الحركي في اقامة مجتمع اسلامي على اساس هذا التصور الشامل عن طريق اقامة تنظيم يعمل على انشاء دولة اسلامية وهذا المفهوم ينطبق أكثر ما ينطبق على ثلاث اتجاهات كبرى: الاخوان المسلمون، الجماعة الاسلامية في الباكستان، وحركة الامام الخميني في ايران،،

وما تبقى من اتجاهات اسلامية اما انه تابع بشكل او ءاخر لأحد هذه الاتجاهات او هو مبتدىء لم يتبلور بعد،، او انه قاصر عمله على جزئية من جزئيات الاسلام والعمل الاسلامي كالدعوة والوعظ والارشاد وتعليم الفقه، والذكر.

أهم العناصر المشتركة

- **فكرة الشمول**.فالاسلام في هذه الاتجاهات الثلاثة يؤخذ على انه كلّ مترابط كل جزئية فيه ترتبط بغيرها فالعقيدة والشريعة والعبادة كلٌ متكامل ومن ثمّ لا مجال للتفريق بين الدين والسياسة والدين والدولة،، والنصوص الصادرة عن كل من الاتجاهات الثلاثة كثيرة اكتفي بهذا النص للامام الخميني لأن فكره معروف بشكل أقل «ان حصر واجبات الفقهاء وعلماء الدين بمراسم العبادات وبيان احكامها وشرائطها من طهارة ونجاسة ودعاء فحسب هو من مخلفات سموم المستعمرين،، قاتلهم الله أنا يؤفكون.

«إن أول واجبات الفقيه العارف باحكام الشريعة الاسلامية هو النهضة والقيادة من أجل إعلاء كلمة الله في الارض والجهاد المستمر لتطهير ارض الله من اعداء الله عز وجل،، عرّفوا الناس بحقيقة الاسلام حتى لا يظن جيل الشباب ان اهل العلوم في زوايا النجف يرون فصل الدين عن السياسة وانهم لا يمارسون سوى دراسة الحيض والنفاس ولا شأن لهم بالسياسة. ان النضال السياسي واجب ديني» (٦)

- ومن نتائج فكرة الشمول **هذه العمل على تكوين دولة اسلامية**. ولقد بذلت الاتجاهات الثلاثة جهودا جبارة لتحقيق هذا الهدف «وما لم تقم هذه الدولة فان المسلمين جميعا ءاثمون»(من رسالة المؤتمر الخامس للبنا)

ـ ومن فروع النظرة الشمولية للاسلام **اعتبار المسلمين** كلهم على ما بينهم من اختلافات **كيانا واحدا** فرقته احداث الزمان وفرض على المسلمين بعث الكيان الدولي للاسلام»

يقول سيد احمد ابن الخميني: «ان ايران ستواصل الكفاح الثوري حتى تحرير كل البلدان الاسلامية وترفع العلم الفلسطيني الى جانب علمنا » (٧) ومن هنا يأتي الاهتمام بقضية فلسطين وتضحيات الاخوان الجسيمة فيها.. واهتمام المسلمين كلهم بقضية ايران وفرحتهم العارمة بانتصارها.

ان ما يؤرق علماء الاجتماع الغربيين ان العالم في ذهن المسلم لا يزال ينقسم الى دار اسلام ودار حرب(٨)

ـ الاهتمام بالقضية الوطنية:

انه لا تناقض في نظر الحركة الاسلامية بين العالمية والوطنية، اذ الوطنية هي منطلق العالمية.. **ان عناية المسلم باصلاح وطنه واجب ديني** اذ كلما تقدم هذا الوطن الا واصبح اقدر على اعانة الأوطان الاسلامية الاخرى والناس حيثما كانوا.

«ان الجماعة الاسلامية ليست بجماعة تستهدف القومية او الوطنية ولا تقتصر دعوتها على امة بعينها ووطن بعينه بل الدعوة التي ترفعها عالمية الاهداف.. غير ان الجماعة تؤمن اننا معشر المسلمين في باكستان ما دمنا لا نجعل بلادنا مثلا حيا للنظام الاسلامي. فاننا لا نقدر على اقناع الدنيا بسلامة هذه العقيدة»(٩) وكذلك كان البنا يرجو ان تقوم الدولة الاسلامية في مصر وتنطلق الى غيرها.. كما كان اهتمام الاخوان كبيرا بل تضحياتهم كبيرة في حرب القنال ضد الانقليز وهم بحق محرروا مصر من الاستعمار.. أما الجماعة الاسلامية في الباكستان فقد ضحت بما يزيد عن عشرة ءالاف من أبنائها في الحرب ضد الانفصال.

فالمسلم وطني وليس احد اولى منه بهذه الصفة لانه الامتداد الحقيقي لثقافة الوطن وامجاده وغيره ممن لا يحملون دعوة الاسلام هم غرباء عن هذا الوطن من مخلفات المستعمر.

ـ الاهتمام بالقضية الاقتصادية والاجتماعية

وذلك ، تطبيقا في الحقيقة لفكرة الشمول، فرجال الحركة الاسلامية في حرب متواصلة ضد الفقر وما يقابله من ترف وتبذير لثروات الامة وهم مع اقرارهم بمبدا الملكية الاّ انهم يقيدونها بعدة قيود تمنعها من ان تصبح وسيلة استغلال وتجعلها في

خدمة الجماعة «فيجب على ولي الامر ان يساعد الناس على ايجاد اعمال لهم ويتعهدهم حتى يصلح حالهم، فاذا كان دخل الانسان لا يكفيه او كان غير قادر على العمل فهو في كفالة الدولة.. فان لم تكف الزكاة لسد حاجات الفقراء اصبح فرضا على كل من عنده فضل من المال ان يعود به على الفقراء.. فاذا منع الفقير حقه فله ان يقاتل عليه»(١٠)

ـ التحرر من التبعية السياسية والاقتصادية للشرق والغرب فهم جميعا فينا طامعون وبنا متربصون.

ـ التحرر من ثقافة الغرب:

فعلى الرغم من ان رجال الحركة الاسلامية لا يرفضون ان يقتبس العالم الاسلامي من الغرب علومه الصحيحة وصناعاته ومهاراته، فهم يحاربون ـ الى حد العنف ـ مذاهب الغرب المادية وثقافته المائعة.

يقول الامام الخميني «ان الثقافة هي اساس كل سعادات او مصائب الشعب فاذا كانت الثقافة غير صالحة فان الشباب الذين يتربون في محيط هذه الثقافة سيصبحون مفسدين وان **الثقافة الاستعمارية تقدم الى الوطن شبابا يملكون قابلية الاستعمار.. .. ان هذه الثقافة اخطر من سلاح هؤلاء الجبابرة، ان ثقافتنا اليوم استعمارية وليست بيد الصالحين**»(١١)

ـ الاعتقاد في كمال الاسلام وقابليته للتحقيق

يقول المودودي: «ان الاسلام صالح لكل زمان ومكان اثبت قابليته في الماضي ويحظى بنفس القابلية اليوم، وسيظل كذلك ابد الدهر، وانما الامر يتوقف على وجود شعب في الدنيا ينهض للأخذ به كاملا غير منقوص» (١٢)

فهذه الحركة ضد كل عملية ترقيع او حذف في الشريعة الاسلامية، يقول الخميني «ولو ان البلاد الاسلامية بدل اعتمادها على الشرق او الغرب اعتمدت على الاسلام وإمكاناتها الذاتية ووضعت تعاليم القرءان التحررية نصب اعينها لما اصبحت اليوم اسيرة الصهاينة» (١٣)

ـ السلفية:

ونعني بها استمداد الاسلام من اصوله دون تعصب لما جدّ عبر تاريخ الاسلام من نظريات وفهوم.. فالاصل ما ورَد في الكتاب والسنة وعصر الخلفاء.

يقول البنا «وتستطيع ان تقول ولا حرج عليك ان الاخوان المسلمين: دعوة سلفية

لانهم يدعون الى العودة بالاسلام الى معينه الصافي من كتاب الله وسنة رسوله»(١٤)

سأل مندوب جريدة لوموند الامام الخميني عن الدولة الاسلامية التي يدعو اليها فأجاب:

«ان القاعدة الوحيدة التي نستند اليها هي عصر الرسول وعصر الامام علي»(١٥) ويقول أيضا إننا نريد ان نحكم بالاسلام كما نزل على محمد (ص) لا فرق عندنا بين سنة وشيعة لان هذه المذاهب لم تكن موجودة في زمن الرسول» الأمان عدد ٥

ومن مقتضيات هذه السلفية، محاربة العقائد الباطلة والخرافات،، مما يعرّض ابناء الحركة الاسلامية لـ «تهمة» الوهابية.

الشيء الذي جعل الامام الخميني يندد بأولئك الذين لا شغل لهم الا بالجزئيات واتهام فلان بكذا وءاخر بكذا يقول: «هناك اجهزة معروفة تسعى لاثارة الضجة حول مسائل ثانوية.» فعلى سبيل المثال يضيعون مناسبات ثمينة وفرصا غالية في الحديث عن ان زيدا من الناس كافر او ان فلانا مرتد او ان الشخص الفلاني وهابي المذهب» (١٦) وفي بيان أصدره محمد المهدي الشيرازي ورد: «ان الثورة الاسلامية في ايران عامة ومتجاوزة للفروق المذهبية كافة» (١٧)

ولا تعني السلفية هنا كما هي عند البعض حربا على المذاهب الفقهية او العقيدية،، كلاّ فهذا تمزيق لكيان الأمة، وانما تعني:

ا ـ التحري في معرفة حكم الله من الكتاب والسنة قدر المستطاع

ب ـ عدم التعصب للمذهب والاشتغال بالدعوة اليه حتى يصبح المذهب بديلا عن الاسلام.

ج ـ التسامح مع المخالف واعتبار اخوة الاسلام فوق كل الفروق الجزئية.

ـ ومما يمكن الحاقه بهذه السلفية: هو تجميع المسلمين حول ماهو معلوم من الدين بالضرورة ابعادا للخلاف وتوحيدا للصفوف حسب القاعدة الذهبية «نتعاون فيما اتفقنا عليه ويعذر بعضنا بعضا فيما اختلفنا فيه»

ـ التوكل على الله:

ان الحركة الاسلامية تؤكد في تربيتها على ضرورة الاخذ بالاسباب ولكن مع الاعتقاد ان هذه الاسباب لا تؤدي الى نتائجها الا باذن الله

يقول الخميني محرضا الدول الاسلامية في حرب رمضان على تعبئة كل القوى ضد الصهاينة «ان واجب جميع الدول الاسلامية وخاصة الحكومات العربية وبعد الاتكال

على الله وقدرته الازلية تعبئة جميع طاقاتها(١٨)»

ـ الشعبية:

ان الحكومة الاسلامية ليست حركة فئة معينة من الشعب، انها ضمير الامة المتحرك واعماقها الثائرة، ومن ثَمّ فهي ترفض مقولة الصراع الطبقي وتعتبر ان الاسلام والاسلام وحده قادر على ازالة كل الوان المظالم والاستغلال داخل المجتمع،، ولكن في مجتمع لا يطبق الاسلام حقيقة تتولد الفوارق الطبقية،، والحركة عندئذ تجد نفسها في صف الفقراء والمضطهدين كما كان النبي عليه السلام يفعل اذ يرفض الاغنياء الجلوس مع الفقراء فينحاز الى الفقراء بامر من الله «واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا» (١٩) « عبس وتولى أن جاءه الأعمى » (٢٠)«اللهم احيني مسكينا وامتني مسكينا واحشرني في زمرة المساكين» (٢١)

ولقد استطاعت الحركة الاسلامية المعاصرة ان تحرر ـ الى حدّ ما ـ الاسلام من الطبقة الحاكمة «والاسلام يتحول كل يوم وفي اكثر من بلد من ان يكون ملكا لحاكم الى ان يكون ملكا للشعب والذي حدث في ايران هو تسلم الجماهير للاسلام،، لقد كان الاسلام مرفوعا في السياسة العربية على يد الطبقات الرجعية في معرض الرد على تطلع الامة العربية نحو الوحدة والتحرر الاقتصادي والاجتماعي،،، وقد اعطت هذه الجماهير الاسلام معناه الحقيقي والاصيل كقوة روحية رافضة للظلم ورباط حضاري وثيق،،، بدات في ايران عملية لعلها من اهم ما يمكن ان يطرأ في مسيرة حركات التحرر في المنطقة كلها وهي تحرر الاسلام من ضغط السلطات العاملة على استخدامه في وجه مد الحركات الوطنية»(٢٢)

وانه ما كان للحركة الاسلامية في مصر ان تصمد وتبقى امام سلسلة الاضطهادات المتوالية التي تعرضت لها على يد عملاء الشرق والغرب لولم تجسد في كثير من الفترات امل الشعب المصري في التحرر من الانقليز والصهاينة واستعادة المجد السليب.

وماكان للامام الخميني ان تلتحم القوى الشعبية في ايران وتسلمه قيادها وتحبه حد الموت «يول موت، يول خميني: اما الموت او الخميني» وما كان له ان يطوي كل احزاب المعارضة ورجال الدين فيدفعها مرة امامه ويجرها اخرى لو لم تجسد حركته امل الجماهير العريضة في التحرر والعدالة والعزة والاستقلال وكذا الامر بالنسبة للمودودي فقد رسم للشعب الباكستاني خطة الحرية والعزة والاستقلال فاستجابت له الامة وتحدت كل القوى والانقلابات وحالات الطوارىء، انه لابد من عمل كبير لتحرير الاسلام

من الانظمة المستبدة التي تتمسح به لتخدير الجماهير والتي تربط ربط اقتران في اذهان شعوب الارض الباحثة عن العدل والحرية وامن الضمير بينه وبين الترف والاستغلال والتبعية الذليلة للشرق والغرب.

«ان مواجهة الشيوعية (والراسمالية) من وراء هذه الانظمة القائمة والحكام الحاليين تعطي للاسلام مضمونا سياسيا واجتماعيا واخلاقيا غير مضمونه الحقيقي وتشوه صورته في اذهان المحرومين والاجيال الجديدة الصاعدة.

«يجب ان نربط ربطا حقيقيا بين الاسلام وحاجات الشعوب الحقيقية وءامالها المشروعة في الحاضر والمستقبل، اننا بهذا الربط نجعل الشعوب الاسلامية تعتز وتشعر اعمق الوعي والشعور بان نضالها من اجل الاسلام هو في نفس الوقت نضال من اجل حياتها وحاجاتها وءامالها»(٢٣).

ان حركة ما لا تنتصر في مجتمع الا ان تكون تجسيدا لآماله وءالامه وان الحركة الاسلامية انما حالفها النجاح ـ حين حالفها النجاح ـ لانها تصدت لرفع اصوات النكير ضد اعداء الشعب واعلنتها حربا لا هوادة فيها ضد كل عدو داخلي او خارجي لهذه الامة، يستغل طاقاتها ويذل كرامتها،، وانما تزحزحت عن مكانتها في المجتمع ـ في بعض الاوقات ـ بسبب موقفها غير الواضح او غير القوي من القضايا الكبرى التي تؤرق الشعب،، وان الحركة الاسلامية في اكثر من موطن مدعوة من اسلامها ان تغادر مواقع الحذر والتردد وتلتحم بضمير الشعب وقضاياه لتعبر عنه في قوة وحسم ووضوح، معتمدة على ربها والتحامها بصفوف الشعب. يقول محمد مهدي الحسيني «ان الثورة الايرانية شعبية بحتة، لم ولن تستمد اي دعم او مال من اية حكومة او اي جهة اجنبية»(٢٤)

-التنظيم:

من عناصر التجديد الاساسية في الحركة الاسلامية المعاصرة وخاصة في العالم الاسلامي السنّي، عنصر التنظيم،، فلقد ظل المسلمون ـ السنّة ـ منذ قيام الخلافة الاسلامية يعيشون مطمئنين، فلم يشعروا بالحاجة لتنظيم انفسهم وهم يستظلون بظل دولة اسلامية ولذلك كانت الحركات الاصلاحية في التاريخ الاسلامي السني، اعمالا فردية ترتبط بشخص العالم المصلح،، انطلاقا من شرعية الانظمة القائمة،، وانه حتى اذا حصلت مظالم والوان من الفساد فليس في ذلك طعن في الاصل ـ شرعية الدولة ـ وانما هو خلل جزئي في البنيان يمكن اصلاحه،، ولم ينتبه رجال الاصلاح في العالم

السني الى ضرورة التنظيم الا بعد ان زال الوهم وسقطت الخلافة فسقطت الشرعية،، وعندئذ فالموقف الاصلاحي لم يعد كافيا اذ البيت قد سقط ويحتاج الى تأسيس جديد،، ولعل اول من تنبه لفكرة التنظيم وربطها بفكرة تاسيس الدولة الاسلامية هو الامام البنا،، نعم كانت هناك في العالم السني تجمعات صوفية ولكنها بعيدة عن المجال الذى نتحدث عنه وهو تأسيس الدولة الاسلامية،، بينما كان مبدأ التنظيم سائدا لدى الخوارج والشيعة من المسلمين الذين طوروا فكرة التنظيم والعمل الجماعي حتى دخلت هذه الفكرة في المكونات الاساسية لعقلية الشعب ،، وذلك راجع الى ان الشيعة والخوارج من المسلمين كانوا في اغلب فترات تاريخهم احزاب معارضة، تعمل على الاطاحة بالسلطة التي تعتبر عندهم غير شرعية، وذلك حتم عليهم ان ينظموا صفوفهم وان يتخلصوا من العقلية الفردية التي سادت العالم السني والعربي منه خاصة.(٢٥)

ولعل «البنا» هو اول مصلح سني يدخل فكرة التنظيم ضمن مفهوم الاسلام الشامل كوسيلة لتحقيق هذا المفهوم في الواقع،، ويبدو ان فكرة التنظيم عنده هي تطوير لمؤسسة تقليدية هي «الطريقة»، غير انه طورها لتصبح اداة سياسية وحضارية عامة تحكمها لوائح وقوانين اساسية ولها درجات ومقاييس مضبوطة للانتقال من درجة الى اخرى،، ولكل درجة مصطلح خاص يعبر عنها،، ولها ايضا اساليب معينة في اتخاذ القرارات .

ولقد حدد المودودي في المؤتمر التاسيسي للجماعة الاسلامية سنة ١٩٤١ طبيعة هذه الجماعةواهدافها ووسائلها ومقاييس القبول فيها والرفض منها واسلوب اتخاذ القرارات داخلها.

اما الحركة الاسلامية في ايران فقد استفادت كثيرا من تراثها الحضاري السياسي،، لقد انضج تراثها السياسي مؤسسات صلبة للعمل الجماعي تجعل الطائفة كلها وحدة سياسية واقتصادية وتربوية يعترف فيها الجميع بسلطة الامام، وبحقوقه،، الخ، ولقد كان هذا التراث السياسي عاملا اساسيا من عوامل نجاح الثورة،، اذ كانت الثورة تتحرك من داخل المؤسسات التاريخية «الحسينيات والمساجد» وعلى يد ائمة هذه المساجد المرتبطين ماديا ومعنويا بسلطة الامام،، وكان عمل الخميني هو تحديث هذه المؤسسات وتوعيتها توعية سياسية وتعبئتها تعبئة كاملة لتحقيق هدف واحد والربط بينها وبين الشباب الثائر الذي اتصل بالاسلام من خلال كتابات بعض الكتّاب الثائرين الذين درسوا في الغرب واستوعبوا ثقافته دون ان يذوبوا في اطارها،، كان لهؤلاء دور كبير في الربط بين الاسلام والكفاح ضد الاستبداد السياسي والاستغلال الاقتصادي وتحرير الجيل المتغرب من الايرانيين من هيمنة الفكر الالحادي واهم هؤلاء الدكتور علي شريعتي الذي استشهد على يد زبانية الشاه.

وفي رسالة للخميني الى الشباب الايراني يقول: «مزيدا من الاهتمام بالدولة الاسلامية،، اتحدوا وتنظموا ورصوا صفوفكم يجب على العقلاء والكوادر المتقدمة ان ينظموا هذه الثورة ويقيموا العلاقات التنظيمية» (٢٦).

ويبدو ان الثورة كانت تحتم وجود جهاز تنظيمي سري يتولى قيادة الشعب وربط الاتصال بين القيادة والشعب.

يقول الامام في احدى رسائله: واخيرا لابد من التنبيه الى نقطة هامة،، يجب على الاشخاص المهمين الذين بيدهم المبادرة والذين تعهدوا العمل وتحملوا المسؤوليات ان يتجنبوا الكشف عن انفسهم والاقتراب من دائرة الضوء،، عليهم ان يعتبروا من الحوادث والتجارب السابقة ويبادروا الى العمل في ظل الاسلام واطر موازينه بدقة، ويحذروا من الاشخاص الذين هم ليسوا في هذه الاطر مائة بالمائة (٢٧).

ويبدو ان مايطلق عليه اليوم بلجنة الخميني وهي القائمة على حراسة النظام والتصدي لاعداء الثورة من اليساريين،، وملاحقة انصار النظام السابق،، هو صورة من صور الجهاز السري للامام.

وكما كان للخميني تنظيمه السري كان للبنا كذلك،،

غير ان المودودي،، يعلن بوضوح وتاكيد رفضه للعمل السري ويحذر منه بشدة.

في النقطة الرابعة في منهاج الجماعة الاسلامية بالباكستان ورد: «لا يقوم كفاحها لاجل الوصول الى غاياتها على النشاط السري على غرار الحركات السرية في العالم بل انها تعمل كل ما تعمل علنا في وضح النهار» (٢٨) والاختلاف هنا يبدو انه راجع الى اختلاف الظروف.

وسواء كان هذا التنظيم سريا او علنيا فهو على كل حال اذ يعمل ضمن مبادىء الاسلام وقيمه يتسلح بضمانة اساسية تجنبه التورط في عمل الاجهزة السرية الاجرامية في العالم، من سطو واعتداء وترهيب،،

الخصَائصُ الذاتية :

اذا كنا قد استعرضنا بتوسع اهم مجالات اللقاء بين الفروع الثلاثة للحركة الاسلامية المعاصرة،، وهي كما هو ظاهر كثيرة،، فانه من المناسب لتقديم صورة اوضح عن الحركة الاسلامية التعرف عن المميزات الخاصة لكل فرع من فروعها والحديث عن الخصوصيات يندرج ضمن مبدأ ـ نحسبه من الاسلام ومن طبيعة الحياة ـ هو التنوع

داخل الوحدة،، وفي هذا الصدد يمكن ان نرى في كل اتجاه من هذه الاتجاهات داخل الحركة طابعا مميزا رغم مبدأ الشمول الذي يؤمن به الجميع.

١ـ بالنسبة لحركة الاخوان:

ابرز ما يلاحظه المتتبع للشخصية الاخوانية: العمق الروحي والانضباط، فالامام البنا هو قبل كل شي مرشد، داعية، الى جانب كونه منظما ممتازا.

ولقد كان لتكوينه الثقافي وبـيئته الأولى وعصره الذي سادته التنظيمات الاثر الفعال في تكوين هذه الشخصية لقد مثل البنا عودة الوعي المفقود للعالم السني،، الوعي بغياب الشرعية الاسلامية للسلطة،، واعداد الوسائل لاستعادتها،، غير ان معطياته الخاصة ومعطيات عصره لم تمكنه من تنظير عمله وواقعه (٢٩)فكان يعوز عمله ـ كما يبدو ـ شيء من الوضوح في الرؤية فسّره الاستاذ نبيه عبد ربه بانه «تكتيك حركي» (٣٠) ولكن في قضية استراتيجية اساسية كقضية بناء الدولة كيف يجوز ان تبقى غامضة، في ذهن القاعدة،، بل في ذهن الشعب كله؟، اذا كنا نريد لمشروعنا ان يتحقق على يد هذا الشعب،، فلابد للشعب ان يستبين الموقف الاسلامي من السلطة القائمة والسبيل لتغييرها،، والا ظلت مواقفه والجماعة كلها مرتبكة وتعذرت تعبئة الطاقات،، نعم دخل البنا الانتخابات وكان مؤمنا بنجاح النظام النيابي،، ولكنه منع من ممارسة حقه فغضبت الجماهير واحتشدت في اجتماع ضخم تهتف (الى البرلمان يا بنّا) ثم ما لبث ان اطلق احد المحتشدين نداء ءاخر مناقضا له (الى البنّا يا برلمان) فرددته الجماهير كالرعد «بوعي وحماس» (٣١) واي وعي لجماهير تهتف بشعارين متناقضين وباسلوبين متناقضين للوصول الى الحكم،، الطريق الديمقراطي (الى البرلمان يابنا) والطريق الثوري (الى البنا يابرلمان) وذلك ان تكون الحركة غير معترفة بالنظام القائم وتطالب بالغاء مؤسساته وتقديم استقالتها لدى زعماء الحركة،، كما فعل الخميني،، لقد حاول البنا ان يكون ديمقراطيا في بلد عريق في الاستبداد،، الديمقراطية فيه ليست الا وسيلة لتخدير الشعب.

وهذه القضية لا تزال غامضة،، رغم اهميتها اذ كان الجو ـ كما يبدو ـ مهيأ في مصر للقيام بعمل ثوري ولكن البنا كبت جموح الجماهير ورغبتها في الثورة، ولعل السبب تاثره بالموقف السني التقليدي «تجنب الفتنة»، (٣٢) ولكن ومع ذلك فالذي لا ريب فيه ان حركة البنا قد نشرت الرعب في قلوب المستعمرين واصبح معها مصير الوليد الجديد للاستعمار في فلسطين (اسرائيل) في خطر، فكان لزاما ان يضطهد. يقول روبير «ولو طال عمر هذا الرجل لكان يمكن ان يتحقق الكثير لهذه البلاد (٣٣) فقد مات في سن مبكرة(٤٣ سنة)، ومع ذلك كان اثره في الامة لا يقدر.

ب ـ الجماعة الاسلامية في الباكستان،،

اذا استمددنا خصوصيتها من خلال مؤسسها (المودودي) ظهرت واضحة صفاتها البارزة: التنظير والتنظيم،، ولكون التنظيم جاء متاخرا عن التنظير اكثر من عشرين سنة اذ كان المودودي سنة ١٩٢٠ رئيس تحرير لمجلة ولم يؤسس جماعته الا سنة ١٩٤١ فان سير الجماعة اتبع خطة واضحة منذ البداية

فقد حدد طبيعة دعوته :

١ ـ دعوتنا للبشر كافة وللمسلمين خاصة ان يعبدوا الله وحده،

٢ـ ودعوتنا لكل من اظهر الرضى بالاسلام دينا ان يخلصوا دينهم لله ويزكوا انفسهم من شوائب النفاق واعمالهم من التناقض

٣ـ ودعوتنا لاهل الارض ان يحدثوا انقلابا عاما في اصول الحكم الحاضر الذي استبد به الطواغيت،، وان ينزعوا الامامة الفكرية والعلمية من ايديهم» (٣٤)

ولكل جانب من هذه الجوانب لدعوته شرح وتفصيل ثم يحدد البرنامج العلمي لتحقيق هذه الجوانب.

ـ الجزء الاول: تطهير الافكار وتعهدها بالغرس والتنمية لنجلي للناس صراط الاسلام الصحيح بعد ان نزيح عن وجهه كل ما تغشاه من حجب الجمود على القديم وان ننقد على القرب علومه ونظامه للثقافة والمدنية ونبين للناس ما فيها من الفساد،، ومن الصحيح وان نوضح كيف تطبق مبادئ الاسلام على المسائل والشؤون الحاضرة،، حتى يقوم في الارض نظام صالح للمدنية، وعلى اي صورة تكون في هذا النظام كل شعبة من شعب الحياة،، فهكذا نحن نبذل الجهود في احداث الانقلاب في الافكار وتغيير مجرى الحياة وتزويد العقول بالغذاء الفكري للنهضة الجديدة.

ـ الجزء الثاني: استخلاص الافراد الصالحين وجمعهم في نظام واحد وتربيتهم تربية اسلامية بمعنى الكلمة.

ـ الجزء الثالث: السعي في الاصلاح الاجتماعي وهو يشمل اصلاح كل طبقة في المجتمع حسب احوالها على قدر ما تتوافر وسائلنا، فنقسّم اعضاءنا الى مختلف مجالات العمل بحسب كفاءاتهم، منهم من يُعنى بشؤون الفلاحين منهم من يهتم باحوال العمال، التجار، الصناع، المعاهد، الكليات، الأدب، البحث،، غايتهم جميعا القضاء على الفوضى الفكرية والعملية والخلقية التي شملت الامة، وان يحدثوا في افراد الامة من العامة والخاصة الفكرة الاسلامية الصحيحة والسيرة الاسلامية الرشيدة ثم يبيّنوا الوسائل العملية لاصلاح كل فئات المجتمع واعانتها على حل مشاكلها.

ـ الجزء الرابع: هو اصلاح الحكم :انه اذا كان زمام السلطة بايدي الصالحين المؤمنين فانهم يحدثون في سنوات قلائل من التغييرات الهامة في نظم التعليم والقانون والادارة ما لا يمكن ان تاتي به الجهود غير السياسية في مدة قرن كامل، اما كيف يتأتى هذا التغيير فليس له من سبيل في نظام ديمقراطي الا الخوض في معارك الانتخابات وذلك بان نربي الرأي العام ونغير مقياس الناس في انتخابهم لممثليهم (٣٥).

وهكذا سارت الجماعة في طريقها الواضح متحملة مختلف المحن التي تعرضت لها ولكن أصرت على المضيّ حتى لاح الفجر واقر النظام القائم في الباكستان مبدا تطبيق الشريعة الاسلامية بداية من ربيع الثاني الماضي غير ان الحكومة الاسلامية لم تقم بعد في انتظار الانتخاب. ولقد اعان على تنفيذ هذا البرنامج ـ بعد عون الله ـ وجود تراث ديمقراطي في شبه جزيرة الهند عموما، مما جعل الانظمة الاستبدادية لا تعمر طويلا فما ان تقوم حتى يشتد الشعب في رفضها والثورة ضدها حتى تسقط حدث ذلك في الهند كما حدث في الباكستان،، بالاضافة الى وضوح المودودي في برنامجه وتقييمه للانظمة التي قامت في الباكستان من انها اذ تقوم على مبدا الانتخاب فهي قانونية يعترف بها ويعمل من خلال مؤسساتها ولكنه يسلبها الصفة الشرعية، لانها لا تحكم بكتاب الله ،، ويعمل على تغييرها من خلال مؤسساتها وقوانينها.

ج ـ الحركة الاسلامية في ايران :

اما الحركة الاسلامية في ايران بزعامة الخميني فقد كانت تعمل في وسط سياسي شبيه بالنظام السياسي الذى كان سائدا في مصر قبل الثورة وبدأ يستعيد ملامحه.

ان «الحكم في ايران كان في ظاهره برلمانيا ديمقراطيا يقوم نظريا على الدستور والمجلس اما في واقعه فكان حكما فرديا متعسفا قضى على الحركات الديمقراطية واذل رجل الفكر وتصدى لرجال الدين (٣٦) ولقد كان موقف الخميني منذ ان تسلم الامامة بل حتى قبلها واضحا من الشاه ووالده،، كتب سنة ١٩٤١ «ان الاوامر التي تصدرها حكومة رضا شاه الدكتاتورية لا قيمة لها وينبغي ان تحرق » (٣٧) وفي تعليقه على قانون الحصانة الذي وافق عليه مجلس النواب والشيوخ والذي يعطي للامريكي المقيم بايران الحق في الا يحاكم امام القضاء الايراني، يتبرأ من الحكومة ومؤسساتها ويسحب ثقته منها فتصبح في نظره ونظر الشيعة عامة، لا هي قانونية ولا هي شرعية.

«ان ابتعاد الحكام عن الشعب وانعدام شعبيتهم هو الذي جر هذه المصائب وانني اعلن ان ما وافق عليه المجلسان هو مخالف للقرءان وتعاليم الاسلام وليست له اية صفة قانونية، انه ضد الشعب المسلم وان اعضاء مجلس الشعب ليسوا ممثلين للشعب،، ان رأيهم لا قيمة له (٣٨).

ولما ارادت الحكومة ان تضع يدها على المساجد وتتولى امر تسييرها وتعيين الائمةوالخطباء لها افتى الخميني «وعلى المسلمين اعتبار كل من يتعين من قبل منظمة الاوقاف او منظمات الحكومة الفاسدة غير عادل واعلان فقدان عدالته من على المنابر وان لا يحضروا مجالسهم وجماعاتهم وان يفضحوهم ويطردوهم من المجتمع الاسلامي وان لا يذهبوا الى المساجد التي تشرف عليها دائرة الاوقاف والامتناع لمدة محدودة عن الذهاب الى المساجد احتجاجا على اجراءات السلطة اللاشرعية (٣٩) ولما كون الشاه حزب « ريسا خير » اصدر الخميني الفتوى التالية:

ونظرا لمخالفة هذا الحزب للدين الاسلامي ولمصالح الشعب الايراني المسلم فانه محرم ومحظور على كل مسلم الانتماء اليه والدخول فيه، اذ الدخول فيه اعانة على الظلم ومعاداة للامة، وعلى علماء الاسلام تحريم الدخول في هذا الحزب (٤٠).

وعندما استبدل الشاه التاريخ الهجري بالتاريخ الامبراطوري تهجم الخميني بشدة على هذا الاجراء وافتى «بان هذا التغيير خيانة كبيرة وبما ان هذا التاريخ معاد للاسلام ومقدمة لمحو اسمه لذلك يحرم على الجميع استخدامه لان في استخدامه دفاعا عن الظلم والظالمين ومعاداة للاسلام مدرسة العدل والحرية»(٤١).

وهكذا عرّى الخميني النظام الشاهنشاهي وجرّده ، لا من الشرعية التي استظلت بظلها الانظمة المحاربة لشريعة الاسلام في العالم الاسلامي فحسب، بل من قانونيتها على اعتبار انه قائم بغير ارادة الشعب، فساهمت سياسة الامام هذه الجريئة في تجنيد الامة الايرانية ضد طاغيها،، وقد أعان على ذلك سلطته الروحية الواسعة باعتباره اماما تدين له الامة بالطاعة وتعتبر أوامره فتاوى يأثم مخالفها،، وقد قدم اليه نظام الشاه بما ارتكبه من مظالم وتفقير للشعب واعتداء على مقدساته وتمكين للاجانب من حقوق لهم في البلاد تجعلهم سادة، قدّم فرصا للخميني أحسن هذا استغلالها فصوب اليه لكمات قاتلة انتهت به الى ماءال اليه فرعون «فاليوم ننجيك ببدنك لتكون لمن خلفك ءاية » (يونس ٩٢)

وقد استخدم الخميني كل نفوذه ليجمع الامة كلها ويدفعها بقوة في وجه الشاه لتحطيم سلطانه ولاقامة دولة اسلامية،، يقول «ان املنا ان يتحد الجميع،، ان يتحد علماء الدين والمجتهدون وطلبة العلوم الدينية وطلبة الجامعة والتجار والفلاحون والعسكريون وسائر فئات الشعب ضد هذا الخبيث الخائن يجب على جميع فئات الشعب ان يتكاتفوا ويتضامنوا في رفض هذا النظام الفاسد، واذا ما اتحدت كل فئات الشعب فان باستطاعتها تجريد غير الصالحين من السلاح وكسر قرون الثور المتوحش» (٤٢).

وهكذا تظهر شخصية الخميني قائدا عقائديا وسياسيا ثائرا وكادحا يحمل هموم الكادحين، عبّر بأمانة ووضوح عن ءامال شعبه وءالامه، بلورها وصبها في اتجاه واحد: اسقاط الشاه واقامة حكومة اسلامية . سأله مندوب جريدة لوموند: ماهو الدور الذي ستقومون به في ايران في المستقبل؟

فاجاب: اني متحدث (اي باسم الشعب) اعرب عن مطالب شعب ايران المحروم من حقوقه» (٤٣) يقول ايضا: «ندعو لتكوين دولة اسلامية صحيحة،، نتعاون مع الجماهير للتخلص من المتسلطين» (٤٤)

وتجاوزت مطالبه في الحرية رجال الكتلة الوطنية الذين كانوا يطالبون بتطبيق الدستور فطالب الخميني بالغاء النظام القائم جملة، وتجاوزت مطالبه في العدالة اليساريين الذين كانوا يتاجرون باسم العمال،، فكان بحق رجل العقيدة والسياسة والثورة الاجتماعية.

كلمة اخيرة

لعله ظهر بجلاء ما بين هذه الاتجاهات الثلاثة في الحركة الاسلامية المعاصرة من عناصر كثيرة للقاء لتبادل التجارب وتوحيد الجهود ان رجل التربية والتنظيم في حاجة الى ان ينقل تجربته الى رجل السياسة والتنظير ويتعلم منهما. وهكذا الحال مع البقية،، فيغدو التنوع، تكاملا والتباعد وحدة واتصالا واثراء للتجربة الاسلامية المعاصرة التي يتوقف على نجاحها مصير البشرية المهددة تهديدا مباشرا لا في اقتصادها وثرواتهاوكرامتها واخلاقها بل في وجودها ذاته،، ان شبح الموت والدمار، شبح حرب عالميةثالثة يخيم على العالم وينذر بالويل،، فالى متى يبقى تراث البشرية ومصيرها تحت رحمة وقيادة الانسان الغربي الذي استحكمت فيه شهواته وغرائزه في الربح على كل اعتبار ءاخر؟

ان بشائر النصر والامل في انسانية يحكمها ربها، لا اهواء البشر، فتسعد بعد عهد طويل وتنعم بالحرية الحقيقية والعدالة والاخوة والطمأنينة، بدات تلوح وليس من قبيل الصدفة ان يبرز الامل بظهور دولتين للاسلام، بعد غياب طويل للدولة الاسلامية، ويحدث ذلك في هذه السنة بالذات السنة الاخيرة من القرن الرابع عشر. الا يذكر ذلك بوعد رسولنا الكريم عليه السلام : « يبعث الله على راس كل مائة سنة من يجدد لهذه الامة دينها » (رواه ابو داود عن ابي هريرة) ثم بشرى اخرى،، الحدث الهام الذي يمكن ان نعده حدث القرن بعد حدث انتصار ثورة ايران والباكستان وهو التقاء ممثلين عن كثير من الحركات الاسلامية بالامام الخميني «وقد كان اللقاء مشهدا من مشاهد عظمة

الاسلام وقدرته في الوقت اللازم على اذابة الفوارق العنصرية والقومية والمذهبية وقد اكد لهم الامام الخميني انه ظل دائم الثقة في منفاه في ان رصيده هو رصيد الثورة الاسلامية في العالم وهو كل مسلم موحد يقول لا اله الا الله ومكانها ليس ايران فقط ولكن كل دولة اسلامية تجبّر حاكمها على الدين الاسلامي وتصدّى لتيار حركته، وان الله الذى اكرم الخميني بالنصر على الشاه سوف ينصر كل خميني على شاهه وقد اكد الوفد للامام الخميني ان الحركات الاسلامية ستظل على عهدها في خدمة الثورة الاسلامية في ايران وفي كل مكان بكل طاقاتها البشرية والعلمية والمادية.

وكانت الحركات الاسلامية الممثلة في الوفد هي الاخوان المسلمون ، حزب السلامة التركي، الجماعة الاسلامية في باكستان، الجماعة الاسلامة في الهند، جماعة حزب ماشومي في اندونيسيا، جماعة شباب الاسلام الماليزي، والجماعة الاسلامية بالفيليبين» (٤٥).

امل يشبه اليقين: لقد شهد المسلمون في القرن الرابع عشر هجري هزائم مريرة على جميع المستويات ولكنهم ـ بفضل الله ـ لم ييأسوا، وظلوا صامدين يرفضون الاستسلام ويوالون التضحيات تحت قيادة رجال الحركة الاسلامية حتى كلل الله كفاحهم في السنة الاخيرة من هذا القرن ببوادر نجاح بارزة،وان الذى نأمله بل نعتقده ان الاسلام في القرن ١٥ هـ سيواصل جهاده المرير للدفاع عن قيمه ومواقعه،، ولكنه سينتقل من موقع الدفاع الى موقع الهجوم ليحرر العالم من ظلام المادية وجورها واستغلالها وليبني عالما ينتهي فيه تمزق الانسان بين ضميره وواقعه ويتآخى فيه العلم مع الدين، والاقتصاد والسياسة مع الاخلاق، والدنيا مع الآخرة،والانسان مع اخيه الانسان في ظل شريعة الاسلام،، شريعة الامن والعدل والحرية «ولتعلمن نبأه بعد حين»

---

(١) قال المحدث اسماعيل العجلوني انه يعم حَمَلة العلم من كل طائفة
(٢) حسن البنا مواقف في الدعوة والتربية ص ٣١ نشر دار الدعوة تاليف عباس السيسي
(٣) عن كتاب «الاسلام اليوم» لابي الاعلى المودودي
(٤) هو عنوان كتاب الفه الامير شكيب ارسلان
(٥) مجلة الشهاب العدد ٢٠ سنة ٦
(٦) عن كتاب: دروس في الجهاد والرفض للامام الخميني
(٧) الاذاعة الايرانية يوم ٢٣ ربيع الاول ١٣٩٩، ٢٠ ـ ٢ ـ ١٩٧٩
(٨) جريدة لوموند
(٩) الجماعة الاسلامية في سطور، اعداد دار العروبة، لاهور، باكستان
(١٠) حسن الهضيبي: مجلة «المسلمون» العدد الرابع السنة الاولى

(١١) دروس في الجهاد والرفض ص ٢٦٥ ـ ٢٦٦
(١٢) المودودي: الاسلام اليوم
(١٣) دروس في الجهاد والرفض ص ١٥٧
(١٤) رسالة المؤتمر الخامس
(١٥) جريدة لوموند العدد ١٠٣٤٤
(١٦) دروس في الجهاد والرفض ٢٦٤
(١٧) دروس في الجهاد والرفض ص ١٨١
(١٨) مجلة الاخبار العدد ١٢ السنة ٣
(١٩) سورة الكهف ـ ٢٨
(٢٠) سورة عبس الايتان ١ و ٢
(٢١) حديث رواه البخاري
(٢٢) منع الصلح عن النهار العربي ـ الدولي
(٢٣) الاستاذ العطار مجلة الرائد
(٢٤) مجلة الاخبار العدد ١٢ سنة ١٣
(٢٥) يكتفي ابن خلدون في تفسير العقلية الفردية عند العربي بربطها بالبداوة ولم ينتبه الى دور العامل السياسي والا فكيف نفسر نشوء الروح الجماعية عند الشيعة العرب او الخوارج
(٢٦) دروس في الجهاد والرفض
(٢٧) دروس في الجهاد والرفض ص ٢٢٤
(٢٨) الجماعة الاسلامية في سطور ص ٩ طبع دار العروبة لاهور
(٢٩) انظر الاسلام غدا، لعبد السلام ياسين مطابع النجاح ٢١ رجب ١٣٩٣ ص ٤٤٨
(٣٠) مجلة الشهاب السنة السادسة عدد ١٩
(٣١) حسن البنا ص ١٣٠ تاليف عباس السيسي طبع دار الدعوة
(٣٢) في كتاب «لماذا اغتيل الامام الشهيد ص ٧٣ وثيقة هامة جدا في هذا الصدد فحواها ان الاخوان العائدين من حرب فلسطين وقد راوا مخطط الملك في ابادة الاخوان بدا تنفيذه استاذنوا الامام البنا في ردع الملك فقال رحمه الله «اتريد ان تشعلها حربا أهلية كالتي وجدت في اليونان، ، ، انما نصبر ونحتسب ونحقن الدماء».
(٣٣) نفس المصدر
(٣٤) تذكرة دعاة الاسلام ص ٥ تاليف: المودودي مطبوعات الجماعة الاسلامية بباكستان
(٣٥) نفس المصدر ص ١٥ ـ ٢٠
(٣٦) النهار العربي والدولي ١٩ ـ ٢ ـ ٧٩
(٣٧) جريدة السياسي بتاريخ ١٨ ـ ٢ ـ ٧٩
(٣٨) دروس في الجهاد والرفض ص ١١٧
(٣٩) نفس المصدر ص ١٧٦
(٤٠) نفس المصدر ص ١٩٠ ـ ١٩٤
(٤١) دروس في الجهاد والرفض ص ٢٠٣
(٤٢) نفس المصدر
(٤٣) مجلة الرائد العدد ١٥
(٤٤) دروس في الجهاد ص ١٥٤
(٤٥) جريدة العرب التي تصدر بلندن العدد ٤٠٩ تاريخ ٢٦ ـ ٢ ـ ١٩٧٩

العمل الاسلامي وقطاع الطرق

- ☐ موسى يتربى في قصر فرعون.
- ☐ الاعلام والسحر.
- ☐ قانون المنعكس الشرطي.
- ☐ العمل الاسلامي والفتنة.
- ☐ الدعوة الى الاسلام وتهديد الوحدة القومية.
- ☐ الدعوة الى الاسلام والتكالب على السلطة عن طريق التستر بالدين.
- ☐ العمل الاسلامي والرجعية والتأخر.
- ☐ بين العمل الاسلامي والعنف.

العمل الاسلامي وقطاع الطرق

لا تزال ظاهرة الاتجاه نحو الاسلام في صورته الشاملة ... تلك الظاهرة الآخذة في الانتشار السريع على حساب ظاهرة التغريب على الطريقة الرأسمالية التي سادت العالم الاسلامي في النصف الاول من القرن العشرين ، او التغريب على الطريقة الماركسية التي سادت الربع الثالث من هذا القرن .

لا تزال هذه الظاهرة التي تكتسح مختلف الاصناف الاجتماعية وخاصة الشباب والفقراء .. لا تزال تثير حيرة وارتباكا - خاصة بعد نجاح الثورة الاسلامية في ايران والباكستان .. تبعث في نفوس حماة التغريب والمستفيدين منه في الشرق او الغرب وامتداداتهما في العالم الاسلامي مخاوف كثيرة والوانا من الرعب والفزع جعلت هذه الاوساط تعيش فيما يشبه حالة الطوارىء .. فانطلقت صيحات الفزع وارتفعت اصوات النكير على «الرجعية» على السنة رجال السياسة والمفكرين والخطباء ومراسلي الصحف ومعلقيها .. واتجه الجميع للقيام بدور يشبه دور قاطع الطريق امام مسيرة الاسلام المظفرة الزاحفة على عالم الضياع .. عالم التبعية والاستغلال والاستبداد .. تبشر بالانسان الجديد «المتوحد» مع ذاته .. والمجتمع الجديد ، مجتمع العزة والمساواة والحرية في ظل الاسلام العظيم .

«موسى يتربى في قصر فرعون»

ورد في بعض الاثار ان احد فراعنة مصر - وكم عرفت مصر من فراعنة ! - كان منشغل البال بقضية الشعوب الواقعة تحت سيطرته ، يمتص عرقها ويستبيح كرامتها .. وكان ككل طاغ مترف يخشى ثورة الشعب .. وتنامت مخاوفه حتى غدت تطارده في احلامه فرآى ذات ليلة ان ولدا لاحد تلك الشعوب المستعبدة له سيولد فتكون نهايته على يده ، فقام من نومه منزعجا وصمم على قتل كل ولد ذكر يولد لذلك الشعب .. غير ان ولدا واحدا قد نجا - باعجوبة - من القرار الصارم فرقت لحاله زوجة فرعون ورغبت في الابقاء عليه تربيه فيملأ فراغ القصر .. حتى اذا شب الولد واكتمل رجولة عافت نفسه ما يمارسه الفرعون من ظلم واستغلال فطفق يندد بالملك الظالم داعيا

الشعب الى الثورة .. وكان لكلمات هذا الشاب ـ المؤيد بالمعجزات ـ وقع كبير في نفوس المحرومين المضطهدين .. فلم يجد فرعون بدا من استخدام احد الاجهزة الفعالة التي يقوم عليها حكمه وهم السحرة الذين بثهم في كل صقع من البلاد يـزيفون الحقـائق ويفسدون العقول يمهدونها للرضى والقبول بكل ما يصدر عن الفرعون .. حشر فرعون سحرته ودفعهم الى تحدي دعوة الحق وتزييفها .. ولكن بطل السحر وزهق الباطل امام صولة الحق .. فلجأ فرعون الى ما يلجأ اليه كل طاغ كلما اعجزه الكذب والتزييف .. لجأ الى العصا .. الجيش . ولكن الحق كان ولا يزال اقوى من العصا . فهلك الفرعون وجنده وانتصرت ثورة الشعب بقيادة موسى تحت راية الاسلام .

والقصة على بساطتها تتكرر اليوم تلقي اضواء كاشفة عن علاقة الغرب بالاسلام فبعد ان ظن الغرب انه قد قضى على كل امكانية لخصوبة الاسلام ونهضته عن طريق سيطرته على الحياة الثقافية والاجتمـاعية في العـالم الاسلامي ، فـأنشأ اجيـالا من المسلمين منبتة عن الاسلام وحضارته وتاريخه ، واستباح خيرات المسلمين ، اذا بحركة وعي ويقظة تنطلق من قلب العالم الاسلامي من قلب المراكز الثقافية التي ظن الغرب ان سيطرته عليها قد تمت .. وهكذا اشبه يوم الاسلام امسه .. فالاسلام اليوم هو موسى الذي تربى في قصر فرعون ..

الاعلام والسحر

واذا كان فرعون الامس عندما ادرك ان خطته في القضاء على امكانية الثورة لم تنجح لجأ الى السحرة يتحدى بهم موسى محاولا تزييف الحق الذي معه واخماد الثورة التي حملتها دعوته فان فرعون العصر (الغرب) بعد ان عجز عن القضاء على الاسلام بواسطة العنف ، لجأ الى ممارسة اسلوب آخر هو الاعلام .. الاعلام عند فرعون هذا الـزمان المترف الطاغي يحمل قوة الساحر وأشد عند فرعون الأمس وكما ينفث الساحر في صدور الناس من الاوهام مما يجعلهم خاضعين لسلطانـه لا يرون الاشيـاء والوقـائع وحتى انفسهم ومن حولهم الا على النحو الذي يريد الفرعون «ما أريكم الا ما أرى» (١) فان رجل الاعلام اليوم ـ غالبا ـ يقوم بنفس الخدمة لفرعون الزمان بفاعلية اكبر مستفيدا من تطور العلم والصناعة والدراسات الاجتماعية والنفسية لمختلف الشعوب .. وهكذا يمثل ضاغطة قاهرة موجهة تفوق فاعليتها فاعلية القنابل الذرية .. فقد تحكم الغرب في مصادر الاخبار ومسالك توزيعها عن طريق وكالاته وصحفه واذاعاته .. يلون الاحداث والوقائع والاشخاص كما يشاء لخدمة مصالحه واستمرار سيطرته واستنزافه لخيرات البشرية ويظن الناس اليوم ـ اكثر من اي وقت مضى ـ انهم قد تحرروا ولكنهم ودون شعور منهم

تكيف اذواقهم وآراؤهم واتجاهاتهم وسياساتهم بحسب المخطط الغربي الذي يقتضي انه لكي يستمر الغرب في ازدهاره ورفاهه وقوته يجب العمل على ابقاء الشعوب في وضع الخادم الأمين الوفي لسيده .. وخاصة شعوب العالم الاسلامي لما لها من قيم حضارية وانسانية تأبى عليها الذل والاستكانة والتبعية فلا عجب والحال هذه ان يقف الغرب - الرأسمالي والاشتراكي وامتداداتهما في العالم الاسلامي - من تطلعات العالم الاسلامي تجاه النهضة والتحرر - وهي تطلعات لا تنفصل ابدا عن الاسلام - موقفا معاديا حاقدا . وكما حشر فرعون بالأمس سحرته لحرب دعوة موسى الاسلامية يحشر الغرب اليوم سحرته (أجهزة اعلامه) في عملية رهيبة لواد هذه التطلعات .. حتى اذا افلتت من حساباته احدى هذه التطلعات ونجحت - كما حدث في ايران وباكستان - حشر سحرته وجنده لقطع الطريق عنها حتى لا يمتد تأثيرها الى بقية اطراف العالم الاسلامي المخدر بسحر الغرب والى العالم كله الذي يئن تحت قبضة الفراعنة الاستعماريين في ثوب تحرري والفراعنة الشيوعيين في ثوب اشتراكي .

قانون المنعكس الشرطي

واذا كان الاعلام اليوم يقوم بالدور الذي كان يقوم به الساحر بالأمس من دعم لسلطة فرعون والتصدي لدعوة الحق وتشويهها وقطع الطريق عنها ان تنشر وتعمم فتوقظ وتشحذ وتجند .. وتبدد الظلمات . كان لزاما على جنود البعث الاسلامي ورواد تحرير الانسانية ان يقفوا طويلا امام هذه الظاهرة يكشفون آثارها المدمرة ويحللون القوانين العلمية التي تقوم عليها .. وان أهم هذه القوانين النفسية تلك التي كشفها ابو حامد الغزالي واثبتها «بافلوف» تجريبيا . قانون المنعكس الشرطي .. ويقوم على فكرة بسيطة : انه كلما تكررت ظاهرتان وتتابعتا في الحدوث حصل بينهما اقتران وارتباط على نحو ان احداهما تستدعي الاخرى .. رغم ان العلاقة بينهما قد تكون غير موجودة في الأصل .. فاذا كان الناس يحبون احدى الممثلات فيكفي ان ترتدي ثوبا معينا او تدخن صنفا معينا من السجائر حتى تنتقل محبتهم الى ذلك الصنف من الثياب او السجائر فيقبلون عليه .. والدعاية تستفيد كثيرا من هذا القانون ..

ان الدعاية ضد الاسلام وتشويه رجاله وحركاته لقطع الطريق دونها .. لتستفيد من كثير من القوانين النفسية والاجتماعية مثل هذا القانون .. تستغل ما ترسب في تراثنا وواقعنا من كره لكثير من المفاهيم ، كالفتنة والتفرق والتكالب على السلطة والتأخر

والعنف .. فتعمد الى تحريك ذلك الرصيد من الكره في العقل الجمعي لهذه المفاهيم وتجتهد عن طريق التكرار المتنوع لتوجد ارتباطا شرطيا بين هذه المفاهيم وبين الدعوة الاسلامية ورجالها .. قاطعة الطريق امام اي تطلع للعالم الاسلامي في اتجاه التحرر من التبعية والاستغلال والاستبداد .

وسنعمد في عجالة الى القاء بعض الاضواء الكاشفة على هذه الارتباطات آملين في ان تتحرر منها امتنا وتنجو من القبضة الجهنمية التي تطوقها .. وتخنق انفاسها .

الارتباط الأول :

العمل الاسلامي والفتنة :

ان لمفهوم «الفتنة» في طيات العقل الجمعي لأمتنا اشعاعات مخيفة ورواسب مزعجة ترسبت عبر عصور طويلة من التقاتل بين المسلمين بداية من القتال بين علي ومعاوية وهو احد اكبر الاحداث المؤلمة في تاريخنا .. الذي اجتهد بعض كبار المفكرين في احياء ذكراه بتأليف كتاب حوله : «الفتنة الكبرى» .. فتأتي وسائل الاعلام وهي بصدد حملاتها ضد المد الاسلامي المتصاعد لتحرك ذلك الرصيد من الالام الكامن في اطواء العقل الجمعي تحت عنوان «الفتنة» وتجتهد في ربط العمل الاسلامي به على انه فتنة مؤكدة هذا المعنى بآيات من القرآن تحذر من الفتنة و«الفتنة اشد من القتل» (٢) وبذلك ينفر الناس من هذه الدعوة .. وتحارب دعوة القرآن بالقرآن نفسه ولو كان هؤلاء طلاب حق وليسوا طلاب «فتنة» لكلفوا انفسهم جهدا يسيرا في الرجوع لكتب التفسير ترفع عنهم الجهل وتبصرهم بمعاني هذه الآية من التنزيل .

ذكر المفسرون (ابن كثير ، القرطبي ..) سبب نزول هذه الاية : «ان بعض المسلمين قتلوا رجلا من المشركين خلال الاشهر الحرم وهي اشهر تقدسها العرب وتمتنع عن الحرب فيها ، ولم يكن هؤلاء قد علموا بدخولها ولا امروا بالقتل فاستغل الاعلام القرشي المضاد للدعوة الاسلامية هذه الحادثة وطفق يردد بان محمدا الذي يزعم انه داع لدين ابراهيم كيف يأمر أتباعه بانتهاك الأشهر المقدسة فانزل الله هذه الآية : «يسألونك عن الشهر الحرام : قتال فيه ؟ قل قتال فيه كبير وصد عن سبيل الله وكفر به والمسجد الحرام واخراج اهله منه اكبر عند الله والفتنة اكبر من القتل ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم ان استطاعوا» (٣) .

«أي ان كنتم قتلتم في الشهر الحرام فقد صدوكم عن سبيل الله ـ مع الكفر به ـ وعن المسجد الحرام واخراجكم منه وانتم اهله اكبر عند الله من قتل من قتلتم والفتنة اي جبر المسلم على الخروج عن دينه ورده الى الكفر بعد ايمانه فذلك اكبر عند الله من القتل» فالفتنة هنا بمعنى الكفر والشرك والمعصية وما تبع ذلك من اضطهاد المسلمين واخراجهم من مكة وهم يعبدون الله وصدهم عن عبادة الله والدعوة اليه . فتلك عند الله جريمة اكبر من القتل بل القتل اخف على المؤمن من الخروج عن الدين ومصادرة حريته في عبادة الله والدعوة الى ذلك ، وهل للحياة من قيمة بدون حرية .. **فالفتنة اذن هي منع حرية المعتقد والدعوة اليه وممارسة الارهاب ضد الدعاة الى الله .. وفي دعوتهم رحمة للبشرية وتحريرها من الوهم والاستبداد والاستغلال فأي فتان اذن اكبر من ذلك الذي يجعل رزقه الكذب على الدعاة الى الله وتشويه دعوتهم والتنفير منها انه مجرم في حق نفسه والانسانية لأنه يحرمها من رحمة الاسلام وعدله .**

الارتباط الثاني :
الدعوة الى الاسلام وتهديد الوحدة القومية :

ان استقرار مجتمع ما شرط اساسي لتقدمه وأمنه وازدهاره وسعادته . ومن شروط تحقيق ذلك تضامن افراده .. غير ان تاريخنا حفل بكثير من تجارب التمرد والعصيان واعتماد السيف ـ احيانا ـ لحل الاختلاف في الرأي مما جر على الأمة خسائر فادحة في الاموال والانفس رسبت في العقل الجمعي للأمة توجسا من كل حركة تغييرية وميلا الى الرضى بالاوضاع القائمة مخافة ان يأتي ما هو اسوأ منها وهذه النظرة السوداوية الى المستقبل عبّر عنها العقل الجمعي في هذا المثال العامي « شد مشومك ... لا يجيك ما أشوم منه» حافظ على وضعك فانه على شؤمه قد يجيء ما هو اكبر منه شؤما .

وتستفيد وسائل الاعلام المضادة للعمل الاسلامي من هذا الرصيد الذي لا تفتأ تنميه بالتركيز على اخبار الانقلابات والثورات وابراز ما صاحبها من خسائر وآلام ودمار .. مما يجعل عمل المصلحين في هذه البلاد يصطدم بجدار من الخوف المرَضي على وحدة الأمة ومصالحها .

ولكن هل يصدّق عاقل ان الدعوة الى الله واستعادة الانسجام المفقود بين الأمة وعقائدها ـ والتناقض بينهما اليوم حادّ ـ مهدد لوحدة صفوفها واستقرارها ؟ .. الجميع يعلم حالة العرب من التفرق والتناحر قبل ان يكرمهم الله بالروح الجامع : الاسلام .. أليست شخصية الأمة انما تتمثل قبل كل شيء في الثقافة التي توحد تصوراتها وقيمها واذواقها وعاداتها وتطبع افرادها على اختلافهم بطابع واحد .. حتى يغدو ضياع تلك الثقافة ضياعا للأمة ؟ . فهل يتصور دارس جاد امكانية الفصل بالنسبة لامتنا بين الدين

الاسلامي والثقافة الا اذا انفصل الروح عن الجسد ؟ ألم تغدو امتنا بابعاد الاسلام عن ساحة التوجيه ومركز القيادة في المجتمع الى ما يشبه هيكلا بلا روح مما جعلها ارضا خصبة للغزو الاستعماري بمختلف اشكاله ؟. فتمزقت الصفوف بين يمين ويسار وفصائل شتى تتبع كل ناعق في حضارة الغرب وولّد عند افرادها روح اللامبالاة والانصراف الى المتعة واللهو بعيدا عن التفكير في مصلحة الأمة ورفعتها ، وتهيأ المناخ الملائم لظهور النزعات الشعوبية والعرقية (الطورانية ، الفارسية ، الفرعونية ، البربرية ، الفينيقية) وفي مستوى وطننا هذا : (أهل الشمال ، أبناء العاصمة ، السواحلية .. اهل الجنوب . ويستمر التمزق داخل كل وحدة من هذه الوحدات) نتيجة غياب الروح الجامع : الاسلام . فكيف يصدق عاقل ان تكون الدعوة الى التحام الأمة بدينها والروح بالجسد دعوة الى الفرقة والتشتت ؟. لنستمع الى الذكر الحكيم ينطق بفصل المقال : «والّف بين قلوبهم .. لو انفقت ما في الارض جميعا ما الفت بين قلوبهم ، ولكن الله ألّف بينهم» (٤) ورحم الله علامتنا عبد الرحمان بن خلدون فقد كان مرآة صافية لانوار القرآن ـ كما وصفه محمد اقبال ـ وافضل دارس اجتماعي لمكونات الشعب العربي يقول «فصل في ان العرب لا يقوم لهم الملك الا بصبغة دينية لانهم لخلق التوحش الذي فيهم (يقصد الفردية) اصعب الأمم انقيادا بعضهم لبعض» .

انه ما تمزقت الأمة الى عصبيات عرقية وجهوية واحزاب عقائدية وسياسية متناحرة الا يوم ان غاب الروح الجامع عن مركز القيادة والتوجيه في حياتنا الاجتماعية .

الارتباط الثالث :

الدعوة الى الاسلام والتكالب على السلطة عن طريق التستر بالدين

لا تفتأ الصحافة تردد هذا الارتباط نقلا عن كثير من السياسيين ورجال الفكر حتى غدت هذه المقولة جزءا لا يتجزأ من برنامج اغلب الاجتماعات وبديهية من البديهيات التي لا يحتاج صاحبها الى البرهنة عليها ـ رغم ان العلم قد رفض اليوم وجود حقائق بديهية ـ وكثيرا ما تتولى الصحافة من تلقائها ابراز هذه المقولة كما فعلت الزميلة «الصباح» في نقلها لأحد خطب المسؤولين فتبرعت بعنوان بارز للخطبة «القليبي يحلل الديمقراطية في الاسلام ويشهر بأساليب الاخوانجية ومغالطتهم» ولا يتردد وزير للاعلام سابق ، يعد اليوم ضمن قائمة المحللين السياسيين المرموقين والموسومين بالدقة والعمق ، في تأكيد هذه المقولة المجانية دون ان يشعر بحاجة الى البرهان والتثبت وهو يدلي بشهادته امام مراسلين اجانب لاعانتهم على فهم ظاهرة اقبال الشباب في العالم الاسلامي على التدين يؤكد شهادته فيقول : لنضع الأمور في نصابها «ان الحركات الاسلامية المعاصرة

ـ خلافا للظاهر ـ ليست حركات دينية ، انها حركات سياسية» نقلت هذا التحليل «الموضوعي» مجلة عالمية ضمن تحقيق عن الحركات الاسلامية تحت عنوان «الغرب في مواجهة الحمى الاسلامية الشديدة» وجسدت هذه الفكرة في غلاف يحمل صورة كارتر في مواجهة البيت الحرام في مكة ولأهمية هذا التصريح و «موضوعيته» فقد اعادت زميلتنا «الديمقراطية» نشره للقراء التونسيين للتعبير عن تعاطفها مع العمل الاسلامي في بلادنا والعالم !!

ونحن مبدئيا لا نرى اي حرج في التأكيد على ان السياسة جزء من برنامج الاسلام الشامل في توجيه الحياة .. فالاسلام يرفض بشدة المقولة الغربية «الفصل بين الدين والدولة» اذ الدولة في الاسلام يجب ان تكون خادمة للدين قائمة على حراسته وتنفيذ امره ورفع كلمته في الدنيا .. وبالتالي ليس جريمة ان تكون للمسلم غايات سياسية فهو يصر على ان لا يحكم الا بالاسلام .. انه يريد الحرية في بلاده والعالم . انه يرفض الاستبداد واحتكار المواطنة لفئة خاصة من الناس كما يرفض الاستغلال بكل صوره والتبعية للشرق والغرب ويعتبر ان الامة المسلمة كيان واحد وان المسلمين من واجبهم الديني ان يعملوا على تطبيق برنامج الاسلام الشامل في كل جوانب حياتهم .. فأي حرج في ذلك او جريمة حتى يضطر المسلم الى التخفي او التستر ..؟ بل ان ذلك واجب وطني فضلا عن كونه واجبا دينيا .. ولو كان تفكير المواطن واهتمامه بقضايا وطنه السياسية وغيرها وسعيه للمشاركة فيها وتوجيهها وفق قناعاته جريمة لكان كل الحكام في الدنيا اليوم مجرمين لانهم كلهم لم يصلوا الى الحكم ولم يحافظوا عليه الا بسعي حثيث وجهد كبير .. بل نرى من الجريمة الا ينشغل المواطن بمستقبل بلاده السياسي .. كل ما في الأمر ان تكون مشاركته السياسية مندرجة ضمن الاطار الاخلاقي والدستوري للبلاد . والمسلم في هذا الصدد مقيد بمبادىء اخلاقية انسانية لا يستطيع انفكاكا عنها وهي ترفض بشدة المبدأ السائد في الحياة السياسية اليوم «الغاية تبرر الوسيلة» فكم تكون الحياة السياسية طاهرة بعيدة عن الكذب والدس لو التزم كل الاطراف السياسيين بما يلتزم به المسلم ؟

لو كان ذلك مبدءا محترما في حياتنا السياسية ما سمح طرف سياسي برمي مخالفيه بهذا الوصف «التستر بالدين» ففي ذلك تجاوز للاخلاق ومنطق العلم الذي اعرض في الحكم على الناس عن المنهج الاستبطاني الذي يقتضي ان يتسلل الانسان الى اعماق الاخرين يبحث فيها عما يكمن فيها من نوايا وغايات واغراض مبيتة يفسر بها سلوكهم .. او يحكم عليهم من خلال حكمه على نفسه .. فقد انتهى العلم الى رفض هذا المنهج العقيم لما فيه من اغراق في الذاتية واكتفى بملاحظة سلوك الاخرين الواقع تحت الملاحظة والتجربة للحكم عليهم .. وهذا تماما ما يقتضيه المنهج الاسلامي في الحكم على الناس .

يقول الرسول عليه السلام : «أمرت ان احكم بالظاهر ..» ولقد انتهر بشدة احد اصحابه حكم بكفر رجل رغم نطقه بالشهادة محتجا بانه ما نطق بها الا حيلة فقال له عليه السلام «هلا شققت على صدره .. ؟» .

فكم نحن متخلفون في حياتنا السياسية عن عصرنا ومناهجه العلمية وعن ديننا وطرائقه في الحكم .. وأمر آخر .. انه اذا كانت الغاية من رمي الدعاة الى الله بالتستر وراء الدين هي صرف الناس عنهم وتشويه سيرتهم وقطع الطريق عن دعوتهم فقد اخطأ الرماة المرمى . وذلك أن الأمة الاسلامية وان كانت على جهل كبير بدينها فلم يبلغ بها الجهل حد عدم التمييز بين الدين الحقيقي والدين المزيف .. ان الحلال بيّن والحرام بيّن .. فهناك قدر من المعلومات عن الدين يعرفه كل المسلمين .. فمن من المسلمين لا يعلم ان الصلاة والصوم من الواجبات الدينية وان السرقة في كل اشكالها والكذب والزنى والخمر محرمات ؟ . ومن ثَم يسهل على الشعب التمييز بدقة بين المتسترين بالدين وبين المتدينين حقا من خلال موقفهم من هذه القيم الواضحة البينة .. انه يرتاد المساجد ليعرف الاتقياء ويمر امام الخمارات ونوادي القمار والمطاعم في رمضان ليلقي بنظرة شفقة على الاشقياء المتسترين بالدين .

الارتباط الرابع :

العمل الاسلامي والرجعية والتأخّر :

تجتهد وسائل الاعلام في الربط بين نهضة الاسلام الحديثة وبين الرجعية والتأخّر مستفيدة من اللبس الحاصل بين الاسلام في صورته الاصلية وهو عدل كله ورحمة وحرية ، شهد تطبيقه بذلك فانتقلت به شعوب بكاملها كالعرب والبربر والترك من المرحلة البدائية الى وضع حضاري ممتاز .. وبين الدين في صورته الانحطاطية : زوايا وشطحات ودروشة واستغلال واستبداد .. متجاهلة ان الحركة الاسلامية اذ تدعو الى الاسلام فانما تدعو لتلك القيم الخالدة المجسدة في الدين المنزل لا في الدين التاريخي الذي لا تزال آثاره تسري في الأمة مدعومة بكثير من المؤسسات والكيانات السياسية المتعفنة المتمسحة بالاسلام وهي بالقياس اليه لا شيء .

على ان التقدم والتأخّر مفهومان نسبيان .. أنت متقدم أو متأخر بالقياس الى من ؟ ونحن مبدئيا نرفض ان يكون الغرب هو المقياس للنموذج الانساني المأمول .. ونعتبر ان التسليم به مقياسا جريمة كبرى لا في حق الاسلام فحسب بل في حق الانسانية ايضا .. وان ذلك ليس الا تجسيدا لاثار الاستعمار الراسخة في اعماق امتنا الى اليوم .. نعم الغرب خطوة في الطريق يجب استيعاب مكاسبها .. ولكن اذا لم يقع انقاذ تراث الانسانية ومكاسبها من قبضته الجهنمية كان الخطوة الاخيرة في طريق الدمار .

يقول الرسول عليه السلام : «أمرت ان احكم بالظاهر ..» ولقد انتهر بشدة احد اصحابه حكم بكفر رجل رغم نطقه بالشهادة محتجا بانه ما نطق بها الا حيلة فقال له عليه السلام «هلا شققت على صدره .. ؟» .

فكم نحن متخلفون في حياتنا السياسية عن عصرنا ومناهجه العلمية وعن ديننا وطرائقه في الحكم .. وأمر آخر .. انه اذا كانت الغاية من رمي الدعاة الى الله بالتستر وراء الدين هي صرف الناس عنهم وتشويه سيرتهم وقطع الطريق عن دعوتهم فقد اخطأ الرماة المرمى . وذلك أن الأمة الاسلامية وان كانت على جهل كبير بدينها فلم يبلغ بها الجهل حد عدم التمييز بين الدين الحقيقي والدين المزيف .. ان الحلال بيّن والحرام بيّن .. فهناك قدر من المعلومات عن الدين يعرفه كل المسلمين .. فمن من المسلمين لا يعلم ان الصلاة والصوم من الواجبات الدينية وان السرقة في كل اشكالها والكذب والزنى والخمر محرمات ؟ . ومن ثَم يسهل على الشعب التمييز بدقة بين المتسترين بالدين وبين المتدينين حقا من خلال موقفهم من هذه القيم الواضحة البينة .. انه يرتاد المساجد ليعرف الاتقياء ويمر امام الخمارات ونوادي القمار والمطاعم في رمضان ليلقي بنظرة شفقة على الاشقياء المتسترين بالدين .

الارتباط الرابع :

العمل الاسلامي والرجعية والتأخّر :

تجتهد وسائل الاعلام في الربط بين نهضة الاسلام الحديثة وبين الرجعية والتأخّر مستفيدة من اللبس الحاصل بين الاسلام في صورته الاصلية وهو عدل كله ورحمة وحرية ، شهد تطبيقه بذلك فانتقلت به شعوب بكاملها كالعرب والبربر والترك من المرحلة البدائية الى وضع حضاري ممتاز .. وبين الدين في صورته الانحطاطية : زوايا وشطحات ودروشة واستغلال واستبداد .. متجاهلة ان الحركة الاسلامية اذ تدعو الى الاسلام فانما تدعو لتلك القيم الخالدة المجسدة في الدين المنزل لا في الدين التاريخي الذي لا تزال آثاره تسري في الأمة مدعومة بكثير من المؤسسات والكيانات السياسية المتعفنة المتمسحة بالاسلام وهي بالقياس اليه لا شيء .

على ان التقدم والتأخّر مفهومان نسبيان .. أنت متقدم أو متأخر بالقياس الى من ؟ ونحن مبدئيا نرفض ان يكون الغرب هو المقياس للنموذج الانساني المأمول .. ونعتبر ان التسليم به مقياسا جريمة كبرى لا في حق الاسلام فحسب بل في حق الانسانية ايضا .. وان ذلك ليس الا تجسيدا لاثار الاستعمار الراسخة في اعماق امتنا الى اليوم .. نعم الغرب خطوة في الطريق يجب استيعاب مكاسبها .. ولكن اذا لم يقع انقاذ تراث الانسانية ومكاسبها من قبضته الجهنمية كان الخطوة الاخيرة في طريق الدمار .

وامر آخر ان ربط حركات البعث الاسلامي بالتأخر يوحي بأن عزل الاسلام عن مراكز التوجيه الاجتماعي في محاولة لتقليد الغرب و «اللحاق بركب الحضارة» قد حقق آمال المسلمين او شيئا منها في النهضة والرقي . وما يشهده العالم الاسلامي من عجز وارتباك في مواجهة مشكلاته الكبرى ليس الا تعبيرا عن فشل حركة التغريب على الطريقة الليبرالية او الاشتراكية في الآمال التي اطلقتها منذ بدايات هذا القرن على يد الكماليين والصفويين .. ثم على يد البعثيين والناصريين . ولولا ذلك ما وجد مبرر لتطلع المسلمين نحو البديل الذي ارتبطت امجادهم وحضارتهم به .. الاسلام العظيم . فأي تقدم صنعه هؤلاء المتغربون لشعوبهم الا ان نعد الفقر والبطالة والاستبداد والتبعية والضياع تقدما ؟ وأي تقدم صنعه الشاه او بوتو لبلاديهما حتى يزعما ويزعم انصارهما انهما ذهبا ضحية تجربة تطوير خاضاها في بلاديهما .. ؟

الارتباط الخامس :

بين العمل الاسلامي والعنف

وتستفيد وسائل الاعلام في هذا الصدد مما ترسب في العقل الجمعي للانسانية من ذكريات الحروب الدينية في العصور الوسطى وما جرته من دمار وتهديد للحياة .. فتعمد الى تحريك ذلك الرصيد من المخاوف لمواجهة الحركات الدينية وتصف عملها بانه ضرب من الحرب المقدسة Guerre Sainte فاذا كانت البشرية تبغض الحرب فان هؤلاء يقدسونها !! وتستفيد اليوم ايضا من كثير من الاحكام بالاعدام الصادرة ضد مورطين في حماية انظمة مستبدة في ايران وباكستان !! باعثة امواجا من الرعب والفزع العام مما يتربص بالانسانية من خطر هذه الحركات !! جاعلة من اولئك الحكام المورطين واعوانهم ابطالا اسطوريين ونماذج رائعة للقادة المتنورين !! ولكنهم ذهبوا ضحية تعصب الاسلاميين وحقدهم وطبيعتهم العدوانية العنيفة تجاه كل عمل تقدمي تطوري !! ولقد اتخذت الحملة ضد الباكستان وايران شكل الحرب الصليبية الجديدة بالتعاون مع الأوضاع المحلية ، واعتبرت «جون افريك» (ان قضية بوتو تهم الضمير العالمي فقد اغتيل في ساحة الانسانية) فيا عجبا لهذا الضمير العالمي في اي «جب» كان مسجونا عندما كان هؤلاء القادة «المتنورون» (بوتو ، هويدة ، الشاه) يعطون امرهم للجيش باطلاق النار على الجماهير ويعطلون الدساتير والمحاكم ويملأون السجون بالمناضلين وابطال الحرية ، ويعيثون في الأمة فسادا ؟ . أين كان الضمير العالمي نائما ـ ولا يزال كذلك ـ تجاه قضايا الانسانية الحقيقية ؟ . هل يرضيه ما يرتكبه الصهاينة والطغاة في فلسطين واثيوبيا وافغانستان وجنوب افريقيا والكمبودج والفليبين وتنزانيا ؟ .. اين الضمير العالمي والمسلمون دماؤهم على المشانق جرت وتجري انهارا في مصر وايران والباكستان والفليبين وتايلاند وافغانستان والتشاد واوغندا .. ثم يتهمون بعد ذلك بالقتل والارهاب والعنف ؟ .

هل بلغ الاعلام في العالم الثالث والعالم الاسلامي حد التبعية الذليلة لاجهزة الغرب المشحونة بالحقد التاريخي ضد العروبة والاسلام . والتي تتوجس خوفا على مصير رفاهها الذي قام على نهب ثروات المسلمين وشل قدراتهم وقطع الطريق امام كل محاولة للتحرر الحقيقي والانطلاق الذاتي ؟

كلمة أخيرة

نحن اذ نشير الى هذه الحرب المنظمة القائمة على اسس علمية مدروسة فليس قصدنا ايغار الصدور ضد احد .. فالاسلام رحمة كله .

وانما نحن ننبه المسلمين الى خطر ما يحاك ضدهم من مؤامرات لغرس وتكريس التناقض بينهم وبين دينهم وبين حكامهم وشعوبهم فبدل ان تتجه قوى المسلمين حكاما ومحكومين الى تلمس طريق الخلاص وردم الهوة التي حفرها الانحطاط بيننا وبين ديننا وزادها الغرب اتساعا لتكريس الانحطاط والتبعية ، وبدل ان يتجهوا جميعا الى الذود عن كيان هذه الأمة المهدد وهو لا ينفصل بحال عن الاسلام الحقيقي . تتجه هذه القوى بتحريض من الغرب واجهزته الاستعمارية والصهيونية الى مزيد من التناقض والتناحر والاتهامات المتبادلة فلمصلحة من تردد اجهزة الاعلام في العالم الاسلامي نفس الاتهامات الغربية ضد التحرك الاسلامي ؟ اما الغرب ، أعني شعوبه فهو الاخر ضحية .. وسائل الاعلام التي تتحكم فيها القوى الرأسمالية الصهيونية الماركسية الحاقدة على كل ما هو انساني . العاملة على المحافظة على حالة الضياع والاغتراب عن النفس والاستغلال التي يعيشها الانسان الحديث .. هذه الاجهزة ترى اليوم في الاسلام الزاحف على ظلمات العالم ومظالمه يبددها وعلى النفوس الممزقة يعيد اليها الأمل واليقين .. وعلى الحضارة يعطيها بعدا انسانيا .. ترى فيه اكبر خطر على مصالحها . فالى متى تستمر الاسنانية تلهث وراء جلاديها وقطاع طريق سعادتها .. ؟

والى متى تستمر وسائل الاعلام في تمثيل دور الساحر ؟

اننا واثقون ان الاسلام الذي ابطل مفعول سحرة فرعون وقوض عروش الاكاسرة والقياصرة لقادر على ان يكسر الاغلال التي تكبل البشرية اليوم .

«قل يا اهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم الا نعبد الا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا اربابا من دون الله فان تولوا فقولوا اشهدوا بانا مسلمون» . (٥) .

هوامش

(١) غافر ٢٩ - (٢) البقرة ١٩١ - (٣) البقرة ٢١٧ - (٤) الأنفال ٦٣ - (٥) آل عمران ٦٤

الحاجز النفسي آخر الحصون

- ☐ الغزو الفكري.
- ☐ الصلح مع اليهود.
- ☐ الحوار المسيحي الاسلامي.
- ☐ المطران كابودجي محرر القدس.

« المعرفة » ع ٦ س ٥ـ٢٥/٦/٧٩

الحاجز النفسي آخر الحصون

تحرص الأمم في مرحلة تكوينها على ان يتم هذا التكوين بعيدا عن المؤثرات الخارجية ، فتمارس نوعا من العزلة عما يحيط بها .. وفي هذا الصدد نفهم زجر النبي عليه السلام لعمر بن الخطاب عندما وجد بيده صفحة من التوراة .. كما نفهم حملة الغرب على الحضارة الاسلامية في عصر انبعاثه والامر نفسه بالنسبة للولايات المتحدة التي لم تتفتح على العالم الا خلال الحرب العالمية الثانية ، ،والاتحاد السوفياتي الذي لم يفتح بابا في ستاره الحديدي الا مع خروتشوف في الخمسينات ، اما الصين فلم تبدأ انفتاحها على العالم الخارجي الا اخيرا على يد «هواكو فينغ» ..

اما بالنسبة للعالم الاسلامي الحالي فقد سار بعيدا عن هذه القاعدة : ومرحلة التفتح ـ في شكله العام ـ تأتي بعد ان تتم مرحلة التكوين الحضاري .

وفي هذا الصدد كتبنا هذه الافتتاحية .

الحاجز النفسي آخر الحصون

ان بقاء الامة واستمرارها عبر الاجيال لا يتم الا بالمحافظة على العناصر المكونة لشخصيتها والمانعة لها من الذوبان في كيانات اخرى .. فالأمة ككل كيان حي تدافع عن نفسها بالمحافظة على مقوماتها .. فتقيم بذلك بينها وبين غيرها حواجز مادية واخرى نفسية .. فالدولة ـ مثلا ـ من مهماتها الدفاع عن كيان الأمة بما تقيمه من جيش للدفاع عن الحدود وبما تقيمه من نظام جمركي ورقابة اقتصادية للدفاع عن الكيان الاقتصادي ومن مؤسسات تربوية واعلامية للمحافظة على ثقافة الأمة وشعورها بتميزها بين الامم ... وان وجود الأمة يمكن ان يستمر بسقوط وانهيار الدولة اذا استطاعت تلك الامة ان تحافظ على ثقافتها ـ كما حافظ اليهود على كيانهم آلافا من السنين ـ اذ ثقافة الأمة ـ وهي مجموعة القيم والمفاهيم والآداب التي تشكل الروح الجامع للأمة والتي يعطي لافرادها شعور الانتماء الى مجموعة والتميز عن بقية المجموعات الأخرى ـ هي التي تشكل الحاجز النفسي الأخير للأمة بعد سقوط الحواجز المادية .. فاذا نجحت الأمة في المحافظة عليه تكون قد انقذت وجودها من التلاشي والذوبان واذا فشلت في هذه المعركة فقد فقدت آخر أملها في البقاء واستعادة الكيان المادي لها ـ الدولة ـ يوما ما .

ولقد اقام الاسلام للمحافظة على امته حارسين : الخلافة او الدولة والثقافة الاسلامية (عقائد ، عبادات ، آداب وفنون ، ومساجد ومدارس وايمة ودعاة) يدعم احدهما الآخر ويسنده في المحافظة على كيان الأمة وترقيتها .. غير انه بفعل عوامل كثيرة داخلية وخارجية سقطت الدولة الاسلامية (الخلافة) فسقط بذلك الحاجز المادي للأمة .. ولم يبق امام العدو للاجهاز عليها الا الحاجز النفسي ـ الثقافة ـ الذي جعل الأمة رغم ذلك لا تزال تشعر بتميزها عن غيرها من الأمم وتأبى عن محاولات التذويب .

الغزو الفكري

ولقد انصبت جهود الغربيين منذ قرن على معالجة هذا الحاجز النفسي بعد ان اسقطوا دولة الخلافة .. وفي هذا الصدد تندرج سيطرتهم على برامج التربية والتعليم في العالم الاسلامي وكذا برامج الاعلام بواسطة بعثاتهم التعليمية والتبشيرية التي انشأت جيلا من المسلمين لا ينظر الى نفسه وثقافة امته والعالم الا بمنظار معلميه واساتذته الغربيين .

الصلح مع اليهود

وان اخطر ما في الصلح مع الدولة اليهودية وفتح ابواب العرب امام وسائل اعلامها ومؤسساتها الاقتصادية وخبرائها تأثيرها الفعال على بقية الحواجز النفسية لأمتنا تلك الحواجز من النفرة من اليهود والنظرة اليهم على انهم اعداء الله والانسانية يفسدون في الارض حيثما حلّوا ... ذلك الشعور الذي غرسه الاسلام في نفوس المسلمين ورسخته الثقافة الاسلامية خلال القرون الطويلة .. فيأتي اليوم مشروع الخيانة الساداتية يعمل في ذلك الشعور تمزيقا وتبديدا ليُحل محله شعورا آخر بتفوق اليهود واعتبارهم رسل حضارة الى عالم العرب وبشارة امل للنهضة والرقي .

الحوار المسيحي ـ الاسلامي

انعقدت في السنوات الاخيرة عدة مؤتمرات لهذا الحوار في عدة بلدان فازت فيها تونس بقصب السبق فشهدت مؤتمرين حتى الآن .. تجمع هذه المؤتمرات مجموعة من علماء المسيحية والاسلام للحوار حول موضوعات محددة تهم الديانتين .

وليست فكرة الحوار بين المسلمين وغيرهم من ابناء الديانات بجديدة فقد كانت

المناظرات بين المسلمين وغيرهم قائمة منذ العهد الاول للاسلام .. ولكن الجديد هو الروح التي اخذت تفرض نفسها على هذا الحوار .

لقد كان المسلمون ، قبل ان يبرز فيهم الساسة المهزومون والعلماء المهزومون،ينطلقون في حوارهم من ارضية عقائدية تقوم على اعتبار الاسلام الحقيقة المطلقة الوحيدة المنزلة من عند الله والتي حافظت على نقاوتها من كل شوب ، الحقيقة التي استوعبت كل رسالات الانبياء السابقين وحررت دعوتهم من الوان الزيف والتحريف التي داخلتها عبر القرون .. وبالتالي فقد غدت الطريق الوحيدة الى عبادة الله ومرضاته والمنهاج الوحيد الذي ارتضاه لهم الى الابد فمن تبعه نال سعادة الدارين ومن خالفه شقي فيها .. ومن ثم نفى الاسلام بشدة مصطلح الديانات السماوية اذ الدين واحد «ان الدين عند الله الاسلام» «الاسلام الذي ارسل به كل الانبياء واكتمل خالصا صافيا برسالة النبي العربي محمد عليه الصلاة والسلام» من هذا المنطلق كان المسلمون يناظرون المسيحيين واليهود وغيرهم يكشفون لهم ما في ديانتهم من زيف واختلاق وتناقض ويدعونهم من ثم الى الحقيقة الخالصة «الاسلام» دين كل الانبياء وفي هذا الصدد تندرج كتابات الغزالي وابن حزم وولي الله الدهلولي .. اما وقد بليت هذه الأمة بالهزيمة النفسية بعد الهزيمة المادية فقد تغير الأمر ..

يجلس علماء المسلمين مع قادة التبشير المسيحيين ليتحدث هؤلاء واولئك كل من «وجهة نظره» حول المشكل المطروح .. باحثا عن وجهات النظر المتقاربة .. مقارنا بين الحقيقة الاسلامية والحقيقة المسيحية وكأنهما من مستوى واحد .. واذا لم يصل المبشر المسيحي ان يحقق الا امرا واحدا هو اعتراف المسلم به ممثلا لدين سماوي يحمل الحقيقة كغيره ، اعتبر نفسه قد فاز بامر عظيم زحزح به «المسلم عن موقع» كان يعتصم به لقرون طويلة .. وكثيرا ما يتجاوز المبشر هذا المغنم فيدفع المسلم باسم الموضوعية العلمية الى ان يتنازل عن مواقع اخرى هامة او يضعها موضع الشك مثل فكرة «ختم النبوة» كما حدث في المؤتمر الاسلامي المسيحي الاخير بتونس .

ولا يظنن احد ان هذا الحديث يسارع الى القاء التهمة واصدار الاحكام المسبقة على جهود علمائنا المسلمين الذين نشطوا في هذا المؤتمر ـ وفيهم اصحاب الفضل ـ فقد حاولت ان اقنع نفسي بغير التسمية التي وصلت اليها من خلال تتبع اعمال المؤتمر وهي انه خطوة في طريق تذويب بقية الحواجز النفسية التي تحتمي بها امتنا .. حاولت ان اقنع نفسي بغير هذه التسمية فبحثت في المحاضرات الكثيرة التي القيت في المؤتمرين الذين انعقدا بتونس عن محاضرة فيها نقد علمي لاصول المسيحية ودعوة الطرف الآخر لان يراجع منطلقاته .. دعوة تنطلق من نفس مشبعة ومطمئنة بروح هذه الآية «ان الدين

عند الله الاسلام» او الآية الاخرى «لقد كفر الذين قالوا ان الله ثالث ثلاثة» فما ظفرت عبر سيل الكلام الذي القي بما يطمئنني ان روح الغزالي وابن حزم وابن تيمية لا يزال شيء من حرارتها يجري في كيان علمائنا ممثلي الاسلام اليوم .

المطران كابودجي محرر القدس
القدس .. بالامس حررها صلاح الدين واليوم كابودجي

ويبلغ هذا الاتجاه في تمييع الحواجز النفسية ذروته في الزيارة التي قام بها اخيرا المطران كابودجي لبلادنا .. ان السواد ، زي المطرنة ، قد ارتبط في ذاكرة الشعب التونسي بالفترة الحالكة من تاريخنا ، فترة الاستعمار الفرنسي حيث هجم تحت مظلته على بلادنا جيش من الغربان السوداء ـ حسب تعبير زعمائنا في ذلك الوقت لتقيم مؤتمرا تبشيريا سمي «المؤتمر الافخراستي» تأكيدا للصفة النصرانية لتونس بعد تحررها من الاسلام .. ولكن الشعب استيقظ فانجلت الغربان واشرقت الشمس .. واليوم تعود هذه الغربان في شكل مؤتمرات للحوار وفي شكل حملة دعائية لتحرير فلسطين .. تحرير القدس .. ان شعار تحرير فلسطين حبيب لنفس كل مسلم يذكره بامجاد عظيمة للاسلام انجزها المسلمون بقيادة عمر بن الخطاب الفاتح وصلاح الدين المحرر .. اليس حمل هذا الشعار من قبل المطران كابودجي كفيلا بازالة الصورة القاتمة التي رسمها التاريخ في ذاكرة المسلم حول التبشير ودوره في الاستعمار ؟ اليس ذلك كفيلا بتذويب بقية الحواجز النفسية التي بقيت امتنا تحتمي بها بعد سقوط الحواجز المادية .

ان الاسلام وهو درع هذه الأمة يتجرد في استعمال المطران من كل معنى اصطلاحي انه يغدو عبارة مطاطة من عبارات اللغة العربية تنسحب فوق المسلم والنصراني واليهودي .. على السواء .

اسمعوا الى المطران : «كلنا مسلمون منا من أسلم عن طريق القرآن .. منا من اسلم عن طريق الانجيل .. منا من اسلم عن طريق الحكمة الرب ابونا . تزوجت القدس .. عهد الله اليَّ بتحرير القدس» .

تنبيه

ـ وتأكيد المسلم على الصفة الاسلامية لتحركه الثوري لا يمنعه ابدا من دعوة محبي الحرية والعدالة في بلادنا والعالم مهما اختلفت منطلقاتهم العقائدية والمذهبية للقضاء على الانظمة الظالمة المستبدة مثل النظام العنصري الصهيوني في فلسطين .

وبهذه المناسبة لا بد لنا من كلمة نوجهها لابناء الثورة الفلسطينية .. نقولها لهم في صراحة .. ان ارتباط الامة الاسلامية بفلسطين لا ينفصل ابدا عن ارتباطها بالاسلام وتاريخه . بالاسلام فتحت .. وبالاسلام تحررت وبالتخلي عنه ضاعت .. فهل بقي لكم امل وقد خانتكم الانظمة الغربية والاشتراكية وهي كلها معترفة باسرائيل .. واكتويتم بنيران اتباعها الليبراليين والاشتراكيين في العالم العربي هل بقي لكم امل في البابا ومبعوثيه مثل المطران كابودجي .. ان لكل ثورة ثقافة عقائدية تحدد ايديولوجية المقاتل .. ولقد آن الآوان لتحدد الثورة الفلسطينية انتماءها العقائدي بوضوح حتى تكون لهذه الثورة ارضية صلبة تنطلق منها تخرج بها عن الوضع المائع الذي يجعل من الفلسطيني رجعيا مع الرجعيين واشتراكيا مع الاشتراكيين ومسلما مع المسلمين ونصرانيا مع النصارى ويهوديا مع اليهود .. ويوم ان تحدد الثورة بوضوح انتماءها العقائدي للاسلام سوف تجد مليارا من المسلمين وراءها يفدون بأرواحهم ويقولون مع الخميني : ان امنيتي ان اقاتل في فلسطين واموت على ارضها شهيدا ..

واغتنم قائد الثورة الاسلامية فرصة لقائه مع ياسر عرفات ليؤكد له بعد طرد السفارة اليهودية من طهران التأييد المطلق للثورة الفلسطينية وان الجيش الايراني وجنود الثورة سوف يقاتلون بجانبهم .. وليدعوه الى التخلي عن شعار الدولة اللائكية .

لقد اتخذ شعار تحرير فلسطين مدخلا للتبشير بالقومية العربية والمذاهب الاشتراكية وحتى الدعاية النصرانية بدأت تأخذ نصيبها . اما آن الآوان للقضية أن يتبناها اصحابها ويأخذوها من ايدي المتاجرين بها ؟

ان العالم الاسلامي يعيش ازمات على جميع المستويات ولقد فشلت الوصفات المتنوعة التي قدمت علاجا لهذه الازمات لانها تجاهلت البناء النفسي والثقافي للامة بل تركته مسرحا لهجمات كثيرة من الشرق والغرب .. فظلت تتحرك ولكن بلا وعي ولا ضمير ولا حماس .. ومن ثم كان على العاملين للاسلام وهم يحملون اعباء اعادة بناء الامة والانطلاق الحضاري بها - ان يدركوا ان هذا البناء يحتاج الى اساس ثقافي متين ينطلق من الاسلام مستوعبا ثقافة العصر ومكاسبه مجسدا لها في بدائل اسلامية في ميدان الفن والادب والاعلام والاقتصاد .. فيعود للأمة شعورها بذاتها واعتزازها بهذه الذات مع قدرة على هضم عصرها وتقديم الحلول الناجعة لمشكلاته .. بعيدا عن الانغلاق والذوبان .. فتحفظ لأمتنا الحواجز النفسية التي تفصلها عن غيرها وتكون تلك الحواجز بمثابة المصفاة لكل ما يحيط بنا من الوان الثقافة .. ونكون بذلك قد مهدنا الطريق امام الاسلام ليستعيد شخصيته الاجتماعية والسياسية ويقوم بمهمته في انقاذ امتنا والعالم .

التكوين العقائدي أوّلا

- ما المقصود بالتكوين العقائدي على وجه التحديد؟
- أولوية التكوين العقائدي بالنسبة لماذا؟
- ضرورة أولوية التكوين العقائدي.

« المعرفة » ع ٧ س ٥ ـ ٧٩/٧/٢٥

التكوين العقائدي أوّلاً

« ألا وان في الجسد مُضغة اذا صلُحت صلح الجسد كله واذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب » حديث شريف

مقدمة

حقيق على دعوة تتصدى لمهمة اعادة بناء الانسان والعالم ، ودون ذلك عقبات كؤود واخطار جسام ، الا تفتر لحظة عن التذكير باسسها واهدافها وخصائصها وطرائق الوصول اليها حتى لا ينسى افرادها ـ لحظة ـ ما انبعثوا منذ انطلاقتهم لتحقيقه ودوافعهم الى ذلك ، مهما تشعبت بهم الدروب وتضخمت الصعوبات وتكاثرت الضغوط وتألب الاعداء ، وحتى تضمن بقاءها ونقاءها وتطورها بعيدا عن الانكسارات والانحرافات في الفكر والسلوك ، ذات اليمين او ذات الشمال ..

الفكر والواقع

الصراع بين الفلاسفة حول اولوية الفكر أو الواقع وايهما تابع للآخر صراع غدا تقليديا .. فعلى حين يؤكد المثاليون سبق الفكر وان الواقع صدى له يؤكد الماديون سبق الواقع وان الفكر مرآة له .. اما الاسلام ـ فيما افهم ـ فلا يرى لهذا الجدل مبررا اذ لا يوجد تناقض حقيقي بين هاتين المقولتين ولا ضرورة لرد احداهما الى الاخرى . ان الواقع (المادة) كالفكر قيمة اصيلة في هذا الوجود .. ولكن الذي غفل عنه الفكر الغربي ـ فضلّ بسبب ذلك ـ هو قطعه للعلاقة الصميمة بين الفكر والواقع من جهة وبين المصدر الذي صدرا عنه وهو الله عز وجل من جهة اخرى اذ هما ليسا مستقلين عنه بل يتأثران به في صور مختلفة منها الوحي ، فالفكر يتأثر بالواقع ولكنه يتلقى ـ ايضا ـ تأثيرات علوية «الوحي .. الالهام» فيؤثر بدوره في الواقع ويرتقي به ويضفي عليه جلالا وطهرا . كما ان الواقع بدوره قد يضغط على الفكر فيتجه في فهم الوحي اتجاهات شتى قد لا تخلو من انحراف اذا لم يكن هذا الفكر مشبعا بمفاهيم الوحي ومقاصده مدركا لاسرار لغته مهتديا بسنن الرجال الممتازين الذين تنزّل الوحي على قلوبهم فكانوا اكثر به التحاما .. مستوعبا التجربة التاريخية في فهم التنزيل الحكيم فيغدو فكرا عقائديا ، يتحرك في الواقع لينشىء الشخصية الاسلامية والحضارة الاسلامية ، بدل ان يكون مجرد مرآة ينعكس عليها الواقع ويوجهها .. في الحديث «يولد الولد على الفطرة فأبواه (الواقع) يهوّدانه او ينصّرانه او يمجّسانه» . ورغم ما للواقع من ثقل وتأثير على الفكر والسلوك يبقى المحرك الاساسي للانسان مفاهيمُه وقيمه التي تتأثر من جهة بالواقع ومن جهة اخرى بالوحي فايهما غلب عليها انطبعت بطابعه .

ان الواقع يرتقي بقدر تشبع الفكر وامتصاصه لمفاهيم الوحي ويتدهور بقدر انفصاله او انحرافه عنه .. كما ان الفكر يجمح الى المثالية والخيال كلما انفصل عن الواقع فينحط وهو يتردى في الابتذال ويغدو عبدا للاندفاعات الغريزية والعدوانية كلما انقطع عن مدد الوحي وكأن عمله خارج ميدان الزمان والمكان .. ومن هنا تبرز اهمية التكوين العقائدي في تحديد الشخصية الاسلامية على اعتبار العقيدة محور ومحرك هذه الشخصية ومنطلقا لتغيير السلوك والواقع .. رغم ما للسلوك والواقع من تأثير ايجابي او سلبي في العقيدة ، (تأثير الأعضاء في القلب ، المخ) ولكن يبقى المخ المركز الاساسي في صيانة العضوية وتوجيهها ، في الحديث : «ان في الجسد مضغة .. الخ الحديث» .

ما المقصود بالتكوين العقائدي على وجه التحديد ؟

- التكوين الذي يحدد المفاهيم الاساسية للعقائد الاسلامية .. مثل مفهوم الالوهية والنبوّة والبعث ، ويتولى غرسها في اعماق النفس وتعهدها بالرعاية حتى لا تذوي .
- التكوين الذي يحدد منزلة الانسان في الوجود وعلاقة العقل بالوحي .
- التكوين الذي يحدد سلّما للأوّليات بين القيم مثل قيمة العلم . والعمل ، والتقوى والتفكير .
- التكوين الذي يحدد الأسس الضرورية للحياة الاسلامية في مختلف جوانبها السياسة .. الاقتصاد ..
- التكوين الذي يحدد موقف المسلم من الواقع بجميع تعقداته وعناصره .. ما هو اسلامي وما هو غير اسلامي .
- التكوين الذي يزود الفرد بالبواعث الضرورية للاقبال على المعرفة في نهم وولع .
- التكوين الذي يحدد المفاهيم الاساسية للحركة الاسلامية .. الجماعة .. الشورى .. السمع والطاعة ..

اولوية التكوين العقائدي بالنسبة لماذا ؟

أ : بالنسبة للتكوين الشرعي التفصيلي الذي يحتاج لنفير طائفة خاصة من المسلمين .

ب : بالنسبة للتكوين الثقافي المتخصص الذي يجعل المسلمين مستوعبين لثقافة عصرهم ولتراث الانسانية في مختلف جوانبه وابعاده الادبية ، الفلسفية ، الاقتصادية والسياسية ..

ج : التكوين السياسي الذي يجعل المسلمين مطلعين على دقائق وتفاصيل المذاهب والتكتلات والاحزاب السياسية .. غير ان هذا التكوين الثقافي والسياسي يحتاج هو الاخر الى ان يفرّغ له عدد من المسلمين قد رسخت اقدامهم في العلوم الشرعية ومقاصد الشريعة ، حتى يأمنوا على انفسهم الضلال .. ومن خلال دراساتهم يتمكن المسلمون من الاطلاع على التراث الثقافي والحياة السياسية لدى الشعوب غير الاسلامية .. وان عدم مراعاة هذه القاعدة ـ التي نبه اليها ابن خلدون ـ في الاطلاع على التراث الثقافي

للحضارات الاخرى أوقع المسلمين ولا يزال يوقعهم في سلسلة من الانحرافات والتمزقات والوان من الضياع .. وتلك لعمري جريمة الجهاز التربوي في العالم الاسلامي الذي جعل شعار التقدم (بزعمه هو) التفتح على الثقافات الاخرى قبل ان يتم تأصيل الفرد في بيئته الثقافية فكان ذلك سبب ما نشاهده من ضياع وانبتات وانفلات .

ضرورة اولوية التكوين العقائدي

ا ـ اثره الكبير على الشخصية الفردية فكرا وسلوكا

ان الفرد المسلم يتعرض اليوم في اطار هذه المجتمعات الجاهلية (التي لا تقوم على اسس الاسلام وقيمه ولا تخضع لنظمه وتعاليمه) يتعرض لضغوط كبيرة .. فهو ممزق بين واقع يزخر بكل انواع الاغراءات وبين مثل اسلامية تأبى عليه الانسياق . ان حاله حال السمكة التي تحيا خارج الماء .. وهو من ناحية اخرى بحكم سيطرة الاعلام الجاهلي والفكر والنظم الجاهلية يتعرض الى عملية ترويض دقيقة تشبه عملية «غسل المخ» ذلك ان وسائل الاعلام بما تملكه من طاقات هائلة على التأثير تعمل بدأب محركة اوتارا مختلفة من نفس المسلم لتنتهي به الى حالة من الشك في نفسه واخوانه ودينه والجماعات الاسلامية العاملة وتاريخها وعلماء الاسلام الاتقياء المجاهدين ، واضعة بينه وبينهم حاجزا من الريبة والشك ، وفي الوقت نفسه تعمل على تذويب الحواجز النفسية التي صنعها الاسلام وتراثه الثقافي وتربيته بين المسلمين وبقية الثقافات والتجمعات والقيم والمذاهب الجاهلية .. ولربما بلغت عملية الترويض هذه بالبعض الى حالة اصبح معها ينفر ايما نفور من مفكري الاسلام وجماعات المسلمين وينشرح مقابل ذلك صدره الى ثقافة الغرب ومذاهبه واحزابه اليمينية او اليسارية .. وتراه ـ في احسن الحالات ـ يجهد نفسه في تقريب مفاهيم الاسلام الى مفاهيم الغرب كما كان يفعل اتباع الفلسفة اليونانية من المسلمين اذ جعلوا همهم تأكيد ما بين الفلسفة والشريعة من اوجه الاتصال .

ولقد استطاعت اجهزة الدعاية الغربية ـ يمينها ويسارها ـ ان تزلزل كثيرا من المسلمين وان تجندهم دون ان يشعروا لمحاربة المبادىء التي نشؤوا عليها والتنكر للعلماء والمفكرين الذين بهم اهتدوا والاعراض عن الجماعات التي في حضنها تربوا فيكون حالهم كالتي نقضت غزلها من بعد قوة انكاثا .

ان الدعوة الاسلامية المعاصرة ، قد استطاعت بفضل الله ـ رغم كل الصعوبات

والعراقيل والمكر الظاهر والخفي لقوى الغرب العتيدة وامتداداتها في العالم الاسلامي ـ ان تجتذب الى صف الاسلام وبيوت الله افواجا غفيرة من ابناء هذه الأمة وخاصة من فئة الشباب التي انتشلتها الدعوة الاسلامية من براثن الغرب ومتاهاته حيث كانت تبحث عن ذاتها فما وجدت غير السراب فلما سمعت النداء اتجهت اليه بقوة .. لقد راعها ما في الاسلام من قيم الحرية والعدل والمساواة والقوة والرحمة والتقدم .. ولكن كان الحماس للاسلام هو الغالب على تعامل الجيل الجديد مع الاسلام حتى اذا انحسرت موجة الحماس قليلا لم يجد الشباب المسلم من يسدد خطاه ويعمق تصوراته العقائدية ومفاهيمه عن الاسلام ويرغبه في الاقبال على علوم الشريعة والتبحر فيها قبل التفتح على الثقافات الاجنبية .. مما يجعل هذا الشباب معرضا للانحرافات على مستوى السلوك ومستوى الفكر لانه في الوقت الذي نجد فيه انفسنا وسط عالم يسيطر عليه الغرب بتقنياته واساليبه في الحياة وفلسفاته وندرك حجم التناقضات الصريحة بين الانموذج الاسلامي للحياة والانموذج الغربي نجد انفسنا مضطرين للتعامل مع الانموذج الغربي ، المسيطر على حياتنا .. ومن هنا تبرز اهمية التكوين العقائدي في صيانة الشخصية الاسلامية من الذوبان في اتون الغرب وحماية هذا الجيل المقبل على المساجد من الانحرافات اليمينية او اليسارية او الباطنية او الاندفاعية الهوجاء ، ولقد نبه كما ـ المحنا ـ العلامة ابـــن خلدون الى خطر اطلاع الشباب على الفلسفة قبل التعمق في علوم الشرع .

العمق الروحي والحضارة

لقد كشف المفكر الكبير مالك بنبي رحمه الله اهمية البعد الروحي في تكوين الحضارة وذلك ان الحضارة تمرّ بمراحل ثلاث : مرحلة الروح ومرحلة العقل ومرحلة الغريزة ، فالجيل الأول من بناة الحضارة تسيطر على روحه فكرة او قيمة او عقيدة سيطرة تامة الى درجة الذوبان فيها مما يجعل كل طاقات الانسان تتجه الى البناء والعطاء الحضاري .. وفي الجيل الثاني او المرحلة الثانية ، مرحلة العقل ، تنمو العلوم والمعارف ويتضخم العمران وتوضع الفكرة موضع النقاش فتكثر المذاهب والفرق وتستيقظ الغرائز التي كانت محكومة بطاقة الروح وتقوى وتتجه الى فرض نفسها على الشخصية لأن العقل أعجز من ان يسيطر عليها وآية ذلك ما نشاهده في الحضارة المعاصرة من اقتران بين الازدهار العمراني والانطلاق الغريزي (الجنس ، الظلم ، الحرب ، الاستغلال) لما تعانيه الروح من ضعف فتضعف الارادة ويعجز العقل عن مراقبة السلوك .. حتى اذا تم للغرائز تحررها اذنت شمس الحضارة بالأفول ومن هنا كانت ضرورة تعميق التكوين الروحي (العقائدي) لدى هذا الجيل المحاط بالفتنة من كل مكان واعطائه الاولوية على اي

تكوين اخر ، ذلك انه اشد خطرا علينا من الغزو الفكري الذي يشنه اعداؤنا ضدنا لتشكيكنا في هويتنا الاسلامية ، هذا الاسلوب الغربي في الحياة الذي فرض علينا والذي يملك وسائل متنوعة لايقاظ واطلاق الغرائز والاندفاعات .. مضعفا طاقات الروح والارادة والمقاومة في شبابنا فيدمره شر تدمير ، ولن ينجيه من هذا المصير المهلك تفوّق في المحاكمات المنطقية وقدرة على التحليل السياسي وسعة اطلاع على الثقافات العالمية .. انه لا بد من إحكام البناء العقائدي وتعميق الروابط الروحية بين الانسان وربه (الصلاة ، الذكر ، التلاوة) وبين الانسان واخيه الانسان (الجماعة) «عليكم بالجماعة من شذ عن الجماعة شذ الى النار» .

ب ـ التكوين العقائدي وسلامة الجماعة

ان ضعف التكوين العقائدي المؤدي الى ضعف الروح ووهن الارادة وانطلاق القوى الحيوانية في الانسان لا يقتصر خطره على الفرد فتضعف عنده قوى المقاومة وتزل به الاقدام وتصاب شخصيته بالانحلال ، بل يتجاوز خطره الى الجماعة فتضعف قدرتها على توجيه الافراد بسبب نمو النزعات الفردية والتمركز حول الذات وحب التميز والظهور وروح التمرد والميل عن حياة الجد اللائقة بداعٍ يحمل هموم الاسلام ويتصدى لتصحيح مسار الانسانية واعادة بناء الحياة .. الميل عن ذلك الى حياة الهزل والميوعة والتنطع والتمرد والحط من قيمة الدعوة واعلامها وايمة الهدى من السلف الصالح . وذلك هو مصير دعوة تغفل تعميق الأسس العقائدية وتمتين الاواصر الروحية لدى افرادها .. فالقرآن المدني وان كان موضوعه الاساسي التشريع للمجتمع الجديد في المدينة وبناء الدولة الاسلامية فإنه لم يهمل قط التذكير بالاسس والمبادىء العقائدية وربط احداث الحياة وتشريعات المجتمع بتلك الاسس .. ففي تلك الاسس حياة تلك التشريعات وسندها الدائم وفيها سر صلاح الفرد والجماعة .. فلا بد اذن من مجاهدة مستمرة «والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا» .

العقلية الفردية

وأثرها في حياة العرب وواقعهم:

- ☐ الاختلال في حياة العرب.
- ☐ فشل متكرر.
- ☐ تكامل وتآكل في الجماعات الاسلامية.
- ☐ العرب ومكارم الأخلاق.
- ☐ كيف عالج الاسلام هذه العقلية الفردية؟
- ☐ الجماعة والذاتية.
- ☐ الحنين الى الجاهلية.
- ☐ تحول في بنية المجتمع.
- ☐ التغريب تكريس للفردية.
- ☐ الفردية رصيد لا ينبغي اغفاله

العقلية الفرديّة
وأثرهَا في حيَاة العرب وواقعهم

فصل

في ان العرب لا يحصل لهم الملك الا بصبغة دينية من نبوة او ولاية او اثر عظيم من الدين على الجملة .

والسبب في ذلك انهم لخلق التوحش الذي فيهم أصعب الأمم انقيادا بعضهم لبعض للغلظة والانفة وبعد الهمة والمنافسة في الرئاسة فقلما تجتمع اهواؤهم فاذا كان الدين بالنبوّة او الولاية كان الوازع لهم من انفسهم وذهب خلق الكبر والمنافسة منهم فسهل انقيادهم واجتماعهم .. الخ» .

ابن خلدون المقدمة ص ١٥١ ط . دار القلم - بيروت -

ميول متناقضة

جهز الانسان بمجموعة من الميول والمشاعر والغرائز المتناقضة للمحافظة على بقائه ونموه وتطوره ، ومزج بينها بحسب نسب دقيقة جدا كلما اختلت بالزيادة او النقصان دخل من ذلك على الشخصية الاختلال والانحراف والاضطراب ... من هذه المشاعر والميول شعور الإنسان بذاته وحبه لها . هذا الشعور الذي يدفعه الى السعي فيما يجلب اليها النفع ويدفع عنها الضر . غير ان هذا الشعور قد ينمو ويتضخم فيصبح انانية .. ويتصل بهذا الشعور اعجاب المرء بنفسه ، وقدر منه ضروري للشخصية كالثقة بالنفس

والاعتداد بها ، لكنه اذا تضخم غدا مرضا خطيرا من امراض الشخصية فيكون طغيانه على حساب ميول اخرى فيها كالميل الى الاجتماع وهو ميل ضروري للمحافظة على بقاء النوع البشري وتطوره واقامة العمران . ويتولد من تضخم الشعور بالذات الاعتداد المفرط بالنفس وشدة الانفة وحب الرئاسة وفقدان الاستعداد للعيش في جماعة لما يقتضيه ذلك من حد للحرية الفردية وتنازل لصالح الاخرين وخضوع لرأي الجماعة .. وكثيرا ما يكون طغيان هذا الشعور بالذات سببا في انفراط عقد الجماعات وتفرقها وتنازعها وذهاب ريحها فلا يتم لها اجتماع عندئذ الا بقوة قاهرة لمستبد طاغ او عصبية غالبة تكبت الحرية الفردية وتطحن شخصية الانسان وشعوره بذاته فتحوله الى مجرد رقم او متاع او آلة تصفيق وهتاف لكل غالب .

الاختلال في حياة العرب

ولا يبرز الاختلال بين النزعة الفردية والروح الجماعية في حياة شعب من الشعوب كما يبرز في تاريخ العرب وواقعهم فقد عاشوا تاريخهم ـ عدا فترة قليلة منه ـ متنقلين من النقيض الى النقيض بين حياة فوضوية Anarchique لا تكاد ترى فيها الا روابط اجتماعية واهنة اضعف من ان تحد من طغيان النزعة الفردية والميل الى التصعلك على القبيلة وهي ابسط الاشكال الاجتماعية والسياسية وبين حياة اجتماعية تسودها اشكال من الديكتاتورية الغاشمة ، بداية من الدولة الاموية فالعباسية فالعثمانية مرورا بملوك الطوائف والمماليك الى العصر الحديث حيث تسود العرب انظمة من الحكم وان اختلفت اسماؤها وانتماءاتها فهي تلتقي حول الاسلوب الفردي في الحكم .. على هيئة الزعيم الاوحد والحزب الواحد . **وسادت بذلك الانظمة العسكرية او شبه العسكرية مما جعل الشعوب العربية تعيش في حالة اغتراب وغياب وتساق بالعصا والاعلام المطبل والمزمر الى صناديق الاقتراع في البلاد التي تراعي هذه الشكليات لتعلن عن موافقتها بـ ٩٩،٩٩ ٪ للمرشحين الذين اختارهم وزكاهم النظام نفسه** . أليس ذلك من قبيل تزكية الانسان نفسه ؟ فاذا حصل في الغد انقلاب ضد المرشحين الذين انتخبوا اليوم بـ ٩٩،٩٩ ٪ حصل الانقلابيون الجدد على نفس النسبة من نفس الجماهير في الغد !

فشل متكرر

لقد تكررت محاولات الوحدة في تاريخ العرب الحديث مرات عديدة على يد الرجعيين (وحدة الهلال الخصيب على يد نوري السعيد) ثم تكررت على يد التقدميين من

الناصريين والبعثيين (بين سوريا ومصر ، ثم بين مصر وسوريا والعراق ، وبين ليبيا ومصر ، وبين ليبيا ومصر وسوريا ، وبين ليبيا ومصر والسودان ، وبين تونس وليبيا ، وأخيرا وليس اخرا بين العراق وسوريا) ، ولكن لاقت جميعا نفس المصير وسبب ذلك طغيان النزعة الفردية لدى الحكام ، وتعلقهم الشديد بالرئاسات ، وبسبب غياب الشعوب من ناحية اخرى ...

تكامل وتآكل في الجماعات الاسلامية

وان هذه العقلية الفردية لدى العرب لا تقتصر آثارها السيئة على الجاهليين من العرب بل تتجاوزهم الى الاسلاميين انفسهم فما ان تحصل جماعة اسلامية على قدر معين من النمو حتى يدب فيها داء العرب (الفردية) فتنبت الخلافات بين الزعامات وينحاز الافراد كل الى جانب ويستمر الجدل حول الاشخاص حتى ينتهي بالانقسام والتعادي والتدابر وتضييع الطاقات - وهي قليلة - في الخصومات الداخلية ، منشغلة عن العدو المشترك الذي يخطط للاجهاز على الجميع ، والملاحظ ان ظاهرة التشرذم والتفتت هذه في الجماعات الاسلامية في العالم العربي لا نجدها بنفس الحدة - على الاقل - في العالم الاسلامي الاعجمي ...

العرب ومكارم الاخلاق

لقد عرف العرب منذ جاهليتهم بمآثر ومكارم وخصال امتازوا بها على غيرهم من الشعوب المجاورة لهم كالكرم والشجاعة وشدة البأس والوفاء والفصاحة والنبل وهي صفات اهلتهم - بفضل الله - الى حمل الرسالة الخاتمة الى الانسانية قاطبة فأصبحوا بذلك قادة ودعاة مقامهم مقام الآمر الناهي (يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر) واصبحت لغتهم مستودعا للوحي وارضهم قبلة للناس ، وما كان العرب قوما خاملين ولا ركنوا للذل يوما ..

لقد اعانهم في اكتساب هذه الصفات مناخ صعب فلا ينال واحدهم حاجياته الضرورية الا بجهد جهيد وتوتر عقلي مستمر وحيوية وسرعة في التنقل بحثا عن المرعى او تقلبا في الاسواق والامصار الشامية والعراقية واليمنية وكذا الاسواق المحلية .. وكم تكون تلك التنقلات محفوفة بالمخاطر عبر صحراء قاسية وطرق وعرة غير آمنة فلا طبيعة تيسر للعربي عيشه ولا دولة تحفظ امنه .. فلم يبق امامه الا ان يعتمد على ذكائه وحيويته وحنكته وشدة بأسه لكي يحفظ بقاءه . فهل من عجب بعد ذلك ان يكون العربي شديد

التعلق بحريته وان يأنف من كل سلطان يحد منها حتى انه ـ نتيجة لذلك ـ لم تقم للعرب دولة في جاهليتهم ـ اللهم عدا دويلات صغيرة على اطراف الجزيرة تعيش تحت حماية الدول الكبرى (فارس والروم) ولم تعرف حياتهم في الجاهلية مظهرا للنظام السياسي غير القبيلة وتقوم على النسب المشترك والولاء .. ولم يكن للقبيلة سلطة تذكر على افرادها ومع ذلك فقد عرفت حياة العرب ظاهرة التمرد على هذا الرباط الاجتماعي البسيط ، وذلك فيما عرف بالصعاليك والصعلوك رجل متمرد على سلطة القبيلة يتولى بنفسه امر تدبير معاشه والدفاع عن ذاته .

وكانت الحروب الضروس بين القبائل ظاهرة اخرى من ظواهر الفردية في حياة العرب .

كيف عالج الاسلام هذه العقلية الفردية ؟

يقول العلامة ابن خلدون : «فصل في ان العرب لا يقوم لهم الملك الا بصيغة دينية وذلك انهم لخلق التوحش الذي فيهم اصعب الامم انقيادا بعضهم الى بعض ، فلا ينقادون الا بنبي او ولي» (١) .

لقد كان العرب هم المعدن الثمين الذي شاد به الاسلام بنيانه على الارض .. ولقد اختير هذا المعدن لما تميز به من صلابة ونقاوة ومقاومة . وان ما امتاز به العربي من نزعة فردية الى جانب خصاله الاخرى (الشجاعة والكرم وشدة البأس) جعلته شديد الانفة واثقا ومعتزا بنفسه عزيزا تأبى عزته الذل والامتهان ، ومثل هذه الصفات ضرورية للانسان العقائدي المعول عليه في تحطيم الامبراطوريات وبناء العالم على اسس جديدة ولكن على شرط ان تهذب هذه الخصال ويحال بينها وبين التطرف وتوظف في خدمة هدف كبير وان تربى وتغرس الى جانبها الروح الجماعية فتتوازن الشخصية بين الذاتية والجماعية ، وذلك ما فعله رسول الله عليه السلام فقد نجح فيما فشل فيه السابقون واللاحقون في توحيد العرب ، لقد روض النبي عليه السلام الانسان العربي فاستل من شخصيته ما فيها من عناصر سلبية كالعزة والانفة .. فجعل عزته بالحق لا بالباطل وجعله يأنف ولكن من المنكر والفواحش ومذمومات الاخلاق وسفاسف الامور لقد روضه على الطاعة في الحق والمعروف والاعتراف بالخطأ ونفره من التنافس على المناصب والرئاسات ونقل التنافس بين العرب من المستوى الدنيوي (التنافس على المال والجاه واللذة) الى المستوى الاخروي (التنافس في الجهاد والبذل وطلب الشهادة) ، «وفي ذلك فليتنافس المتنافسون (المطففون)» (٢) .

لقد رباهم على ان الدين هو الخضوع ، ولكن لا للبشر وانما لله «قل ان صلاتي ونسكي

ومحياي ومماتي لله رب العالمين لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أوّل المسلمين» (٣) .

لقد غرس فيهم الروح الجماعية عن طريق ضروب شتى من التدريب (الصلاة الجماعية والصيام الجماعي والحج وتنظيم الصفوف في ساحة المسجد وكذا في ساحة الجهاد) . لقد اقنعهم وهم في ساحة الجهاد بضرورة القيادة والامارة وضرورة أن تكون هذه القيادة مطاعة لانها قيادة تصدر في امرها عن الدين، فطاعتها من طاعة الله ورسوله (من اطاعني فقد اطاع الله، ومن عصاني فقد عصى الله، ومن اطاع أميري فقد اطاعني ومن عصى أميري فقد عصاني) (٤)

لقد اصبحت الامارة ضرورة حتى في الاعمال اليسيرة كالسفر فحق على الثلاثة المسافرين ان يولوا احدا منهم اميرا لهم . ورهبهم شديد الترهيب وتوعدهم باشد العقوبات والمصائب في الدنيا والآخرة اذا هم شقوا عصا الطاعة وفرقوا صفوف الجماعة وخرجوا عن امر الامير ايا كان نسبه ومستواه المالي مابقي مستقيما آمرا بطاعة الله ناهيا عن معصيته .. واعتبر الخروج عن الجماعة من اكبر الكبائر التي تلحق بصاحبها وصمة الفتنة وتعرضه لغضب الله.

واعتبر الترشح لمنصب من المناصب في الدولة الاسلامية سببا كافيا للحرمان منه قال عليه السلام «انّا لا نولي هذا أحدا طلبه» .

ومن ثم لا مجال في المجتمع الاسلامي للحملات الانتخابية يخوضها الزعماء «فلا تزكواانفسكم» (٥) وانما الامة هي التي تزكي وترشح من تراه كفئا

كان الرسول عليه السلام يربيهم على ان الالتزام بالجماعة ـ على علاتها ـ مابقيت تتصرف في حدود الاسلام خير من الفرقة .. والجماعة رحمة والفرقة عذاب . والجماعة جنة من خرج عنها لفحته النيران بل ان الله امره ان يتبرأ من قوم متدابرين «ان الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا لست منهم في شيء» (٦) «ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم» (٧)

الجماعة والذاتية

ولكن هذه التربية على الالتزام بالجماعة لم تقتل في المسلمين الاول ذاتيتهم وخصوصياتهم، ولا شجاعتهم في الصدع بالحق والمجاهرة بالنكير على الباطل لقد كان عليه السلام يربيهم على الشورى ويأخذ رأيهم ويتجاوز عن اخطائهم اذا اخطؤوا. «واستغفر لهم وشاورهم في الامر» . (٨) وكان بذلك ينأى بهم عن الاستبداد الذي يُحول الناس الى قطيع وكمّ مهمل.

لقد زاوج في تربيته للامة بين عنصرين متناقضين ـ ظاهريا على الاقل ـ الذاتية

والجماعية، الحرية والالتزام، الشورى والسمع والطاعة للامير مع النصح له وتنبيهه الى اخطائه في ادب وصراحة كثيرا ماتكون جارحة ...

وبذلك استطاع عليه السلام ان يحرر العرب ـ ولو لمدة ـ من توحشهم وفرديتهم حتى أصبح العربي يخشى على نفسه أن يلقى الله وليس له التزام في الجماعة المسلمة «من مات وليس في عنقه بيعة مات ميتة جاهلية.»(٩) وحدث بذلك ما لم يحدث في تاريخ العرب من قبل ومن بعد فعرف العرب لاول مرة معنى المجتمع والامّة والدولة.

الحنين الى الجاهلية

وما كان يمكن لهذا العلاج لداء الفردية المتمكن في الانسان العربي وترويضه ان يشمل العرب كلهم في مدة عشرين سنة،، نعم دخلت جزيرة العرب كلها الاسلام في حياة النبى ولم يبق بها صنم قائم ولا قبيلة مستعصية عن دولة المدينة ولكن العملية التربوية لم تكن قد صهرت في بوتقتها كل العرب فقضت على فرديتهم الطاغية وتوحشهم،، فما ان توفي النبي عليه السلام حتى عاود العرب حنينهم الى الجاهلية وعهود التوحش،، نعم لم يعودوا الى عبادة الاصنام التي تحطمت على المستوى الخارجي غير ان الاصنام الداخلية، اصنام الذات ، لاتزال قائمة في كثير من النفوس لقد اقر المرتدون بالجوانب العقائدية والشعائر التعبدية في الاسلام ولكنهم رفضوا ابعاده الاجتماعية والسياسية ممثلة في الزكاة. وهي رمز التضامن الاجتماعي والولاء السياسي للدولة،، وكان موقف القيادة الاسلامية ممثلة في ابي بكر حاسما فقد كان وعيه بتكامل الاسلام وشموليته تاما فأصدر قراره الحاسم «والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة» فشن حربا لا هوادة فيها ضد المرتدين الى عصور التوحش والتفرد .. وانتصر الاسلام بعد تضحيات جسيمة في المحافظة على شموله واستقرت بذلك الدولة لاول مرة في تاريخ العرب بعد آلاف من سنين التوحش ... واستطاعت هذه الدولة ان تجسم ـ ولو لوقت محدود ـ مافي الاسلام من انسجام رائع بين القيم الانسانية العليا، الحرية والعدالة، الحرية والالتزام،، الجماعية الفردية.

تحول في بنية المجتمع

غير ان انسياح الاسلام خلال اراض شاسعة وشعوب غفيرة دخلت في الاسلام دون ان تتوافر الامكانات والاطارات التربوية الكافية لصهرها في بوتقة الاسلام وترويضها على منهجه احدث تغيرا خطيرا في مجرى التاريخ الاسلامي اذ طغت العناصر الحديثةالعهد بالاسلام والتي بقيت حاملة لكثير من تصوراتها السابقة فآل امر القيادة الاسلامية الى

هذه العناصر الحديثه،، وانتقلت بذلك حياة العرب من النقيض الى النقيض : من حياة كل فرد فيها امير نفسه (الجاهلية) الى وضع سياسي تسوده ديكتاتورية تسحق ذات الانسان وتقتل فيه حتى صفاته الفطرية كالشهامة والعزة والانفة، وذلك طوال العهود التي تلت حكم الراشدين تقريبا ولا تزال امتداداتها ونظائرها قائمة.

وعلى المستوى التربوي سادت الطرق الصوفية وهي الاخرى ضرب من الديكتاتورية الروحية تعطي للشيخ سلطة مطلقة وتجعل المريد جثة هامدة (كن كميت بين يدي مغسله).

وعلى المستوى الفقهي سادت المذهبية وما لحقها من تعصب ذميم، وقد ساهمت هي الاخرى في شل حركة العقل وحريته ومبادراته.

وعلى المستوى الادبي ظل الشعر الجاهلي بهيكله ومضامينه واخيلته هو النموذج الامثل للشعراء العرب وقلّ ان تحرّر شاعر عربي من هيمنة القصيد الجاهلي فارتفع الى آفاق القرآن يستقي منه قيمه واخيلته.. لقد كرس الادب العربي الفعلية الفردية عند العرب باغراقه في المدح والهجاء وانفصاله الى حد كبير عن هموم الجماهير وآلامها وآمالها فكان بحق ادب بلاط لا ادب شعب وامة.. ولقد فعل المؤرخون العرب نفس الفعل اذ صوروا التاريخ على انه تاريخ ملوك وقادة.

التغريب تكريس للفردية

وهكذا تعطل العقل وتعطلت الارادة، وعاش المسلمون دهرا طويلا فيما يشبه حالة الغياب حتى اذا نهض الغرب وجد الطريق ممهدا لفرض سلطانه على المجتمعات الاسلامية والاطاحة بالاسس التي قام عليها بنيانها لقد ربى على يده جيلا من المسلمين ، بيده اليوم مقاليد القيادة الفكرية والسياسية ، رباه على يده منبتا: لا هو بالمسلم الواعي التقي ولا هو بالغربي المتنور.

فغدا انساننا بلا بواعث ولا اهداف غير رفاهه الشخصي ولذته. وبذلك كان التغريب عاملا اساسيا في تنمية النزعة الفردية في العالم الاسلامي .. وعلى المستوى السياسي ارتبطت تجربة التغريب في العالم الاسلامي بالاستبداد والارهاب اذ كيف يمكن ان تقتلع امة من جذورها بدون ارهاب فكري وسياسي يقضي على كل معارضة ويحتكر مراكز التوجيه السياسي والثقافي لصالح الغرب وثقافاته والسياسات التي تعمل في خدمته، وتحويل الناس الى قطيع تسوقه برامج الاعلام والتربية والتعليم مدمرة في كيانه كل قيمة عليا تحرره من ذاتيته وتستعلي به على همومه الصغيرة مذكية فيه سعار الشهوات والشبهات.

الفردية رصيد لا ينبغي اغفاله

ان الاوضاع المؤلمة التي يعيشها العالم العربي على جميع المستويات هي - الى حد كبير - صدى لثقافة عصر الانحطاط مضافا اليها الرصيد الثقافي للغزو الفكري الغربي .. تلك الثقافة التي عمقت في الانسان العربي العقلية الفردية والمنازع الشخصية ان على المستوى القيادي او على المستوى الشعبي حتى انقسم مجتمعنا بين رجل لا مبال لا هم له الا اشباع رغباته واهوائه ورجل لا هم له الا السيطرة على غيره والتفرد برأيه والتذرع الى ذلك بشتى الوسائل حتى وان ادى ذلك الى تمزيق المجتمعات والجماعات،، وفي كلتا الحالتين العلة واحدة غلبة العقلية الفردية على الروح الجماعية ونمو رصيد الاولى على حساب الثانية،، هذا الرصيد لا ينبغي اهماله في العملية التربوية التي تستهدف اعادة بناء الانسان العربي على اسس الاسلام كخطوة ضرورية في بناء الحضارة الاسلامية..

وفي عملية البناء هذه لا ينبغي على قادة الدعوة الاسلامية في العالم العربي ان يغفلوا انهم هم انفسهم عرب وذلك يقتضي تعهدا مستمرا للنزعة الفردية بالترويض ودأبا متواصلا على غرس الروح الجماعية وتدريب الافراد والقيادات عليها دون اذلال ولا قضاء على روح المبادرة والقيادة والتفوق. ودون هذا التعهد والرعاية المستمرين يغدو بناء الجماعة مهما ارتفع وسمق وكأنه قائم فوق بركان من المنازع والعقليات الفردية التي لا تلبث ان تندلع فتطيح بالبناء كله وان لهم في سيرة المصطفى معالم تربوية جماعية لا ينضب معينها ومن توجيهات القرآن الكريم اسسا ثابتة لبناء جماعي متين.

«ياايها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن الا وانتم مسلمون واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا واذكروا نعمة الله عليكم اذ كنتم اعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته اخوانا، وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها كذلك يبين الله لكم اياته لعلكم تهتدون»(١٠)

صدق الله العظيم

---

(١) مقدمة ابن خلدون

(٢) المطففون / ٢٦

(٣) الانعام / ١٦٣

(٤) البخاري:كتاب الاحكام.

(٥) النجم / ٣٢

(٦) الانعام / ١٥٩

(٧) الانفال / ٤٦

(٨) آل عمران / ١٥٩

(٩) مصابيح السنة

(١٠) آل عمران / ١٠٢

بماذا تقاس منجزات شعب؟

«إن منجزات شعب من الشعوب لا تقاس بمنجزات شعب آخر وانما تقاس بامكانات وطموحات ذلك الشعب نفسه».

بماذا تقاس منجزات شعب ؟

كثيرا ما يعتمد انصار نظام ما لتزكية نظامهم على اسلوب المقارنة بينه وبين انظمة اخرى مجاورة له او بعيدة عنه ولكنها مشابهة له في الظروف والمرحلة الحضارية . فيعمدوا الى ابراز ما في تلك الانظمة من أوجه الخلل والارتباك والفشل والأزمات واللااستقرار متعمدين اخفاء اوجه النجاح لدى تلك الانظمة وغض الطرف عن الانظمة التي حققت في مدى قصير انطلاقتها الحضارية في ظروف صعبة وامكانيات محدودة كاليابان والصين ... وتراهم مقابل ذلك يبالغون في تضخيم ضروب النجاح والنمو والاستقرار في نظامهم ... مما يعطي انطباعا واضحا في نفس السامع ان نظامنا وان فشل في بعض الجوانب لكنه بالقياس الى غيره ممتاز جدا ، وليس في الامكان احسن مما كان ... وهذا المنهج او قريب منه هو ما يتوخاه ويعزف على وتره المدافعون عن النظام في بلادنا ... وهو منهج خطير ومضلل :

خطير لأنه يخفف من توتر عقولنا وتسارع حركتها ويخدرها بمشاعر الارتياح ونشوة انتصار موهوم في وقت نحن احوج ما نكون فيه الى شد الاحزمة ومزيد من الجد والتوتر ...

خطير ايضا لأنه يخفي علينا تحت مظلة غبار الاعلام المطبل وضجيجه الهادر ما في حياتنا من اضطراب وضياع على المستوى النفسي وما فيها من ارتباك وفوضى على المستوى الاقتصادي وما تزخر تحت وطأته من فوارق اجتماعية مشطة ورشاوي وميوعة كما يخفي علينا حالة التبعية التي تعيشها بلادنا للغرب رغم امكاناتها الحضارية الهائلة ...

وهو منهج مضلل لانه يصرفنا عن حقيقة هامة جدا الا وهي :

ان منجزات شعب من الشعوب لا تقاس بمنجزات شعب آخر وانما تقاس بامكانات وطموحات ذلك الشعب نفسه .

واذا قيست اوضاعنا القائمة على المستوى المحلي او العربي الى الامكانات البشرية والمادية الهائلة التي انعم الله بها علينا : ثروات زراعية هائلة ومخازن ضخمة من الطاقة وموقع جغرافي ممتاز ومناخ معتدل ... وارث حضاري غني جدا كفيل بأن يورث ابناءنا العزة والتفوق ويحررهم من عقد النقص ... وفوق ذلك كله تصورات عقائدية واضحة

بسيطة ومعقولة ، كفيلة بأن ترسي بناءنا النفسي والاجتماعي على أسس متينة وتقدم لنا موازين للحق والباطل والخير والشر في بلاد لم يبق فيها من الموازين غير اللذة والرفاه .. وتقيم داخل نفس كل منا رقيبا على نفسه وضميره في سره وعلنه يوجهه الى اقوم المسالك ، في بلاد خلت من الرقيب اللهم الا الشرط العلنية والسرية التي تحتاج هي بدورها الى الرقيب . وبعد ذلك سنجد في تلك التصورات العقائدية رباطا اجتماعيا يشد بعضنا الى بعض بالمحبة والتعاون والتضحية ... في وقت تمزقت فيه الروابط الاجتماعية وكاد الانسان ان يصبح كما يقول هوبز ذئبا لاخيه الانسان .

كما سنجد في تلك التصورات والعقائد الاسلامية مناهج لحياتنا قادرة على تخليصنا من الانفصام والتمزق بين ضمائرنا وبقايا تربيتنا الاسلامية التي لا تزال عميقة فيها من ناحية وبين واقعنا التي تحكمه انظمة مادية استوردناها مع جملة ما استوردنا دون اعتبار للمناخ الحضاري المادي الذي نشأت فيه ، والمصادم لمناهجنا وقيمنا باقراره الخمر والزنى والربا والتعري والفنون المائعة ... فهل من عجب بعد ذلك ان تتعطل فاعلية الانسان المسلم وان يتحول مجتمعنا الى ما يشبه القطيع اللاهث وراء المتعة والرفاه في صراع محموم لا يرحم .

والأعجب من ذلك تغاضي اجهزة اعلامنا عن ذلك كله وتوخيها منهج المقارنة بين اوضاعنا واوضاع شعوب اخرى بغض النظر عن امكانياتنا الهائلة وطموحاتنا الكبيرة الى ان يكون لنا مجتمع عادل لا حرمان فيه وخلق كريم جاد لا ميوعة معه ، وحريات لا احتكار معها للسلطة واستقلال حقيقي لا تبعية معه لشرق او لغرب ... بعبارة واحدة نطمح ان تكون كما اراد لنا ربنا خير أمة اخرجت للناس ولسنا الآن كذلك بأي اعتبار ...

فأين ما نطمح اليه من واقعنا وامكانياتنا ؟

نعم في بلادنا قدر من الحريات لا يتمتع به كثير من اشقائنا واجوارنا ، نريده ان يزداد ويعمق ويتسع ليشمل كافة الحريات ويستقر حتى يغدو تقليدا راسخا لا يجرؤ احد على تهديده والنيل منه وفي بلادنا بداية اتجاه نحو التفتح على الاصوات المعارضة داخل الحزب الحاكم نريده ان يتسع ليشمل كل الاتجاهات الوطنية في البلاد (داخل الحزب وخارجه) دون أي احتكار من طرف واحد ايا كان مبرر ذلك فالوطن للجميع ولا وصاية لأحد على اخر .

في بلادنا استقرار سياسي يفقده بعض اشقائنا واجوارنا نريده ان يستمر بعيدا عن كل اهتزاز وانقلاب ، ولكن كيف يتم ذلك وفي احشاء مجتمعنا تنمو بذور الحقد والصراع ... من استغلال ورشاوي وثراء سريع وفوارق اجتماعية مشطة وتسلط ثقافة

دخيلة على ثقافة وطنية أصيلة .

في بلادنا بداية انتعاشة ونهضة اسلامية هي بعث وتجديد لماض مجيد عاشته بلادنا في ظل الاسلام كانت فيه مركزا من اكبر مراكز الاشعاع الحضاري الاسلامي في العالم يشع العلم والنور على اوروبا وافريقيا والشرق ... ولكن هذه الانتعاشة ازعجت من يمكن تسميتهم بجمعية المستفيدين من التبعية للغرب فطفقوا يكيلون لها ابشع التهم ويحرضون عليها السلط ويفترون عليها الكذب لتشويه صورتها في نظر الامة نعم هي انتعاشة قد تفوق نظائرها في بلاد اخرى مجاورة ... نريد لهذه الانتعاشة ان تتواصل حتى توقظ الأمة كلها وتحررها من التبعية الذليلة للشرق او الغرب وتربيها على العزة والاستقامة والطموح والتجرد والتضحية والرغبة الجامحة في المعرفة والعلم وبغض الظلم والتعلق بالعدل والحق والحرية ... فهل في هذه القيم خطر على أحد اللهم الا جمعية المستفيدين من ثقافة الغرب والتبعية له ... فهل لهؤلاء ان ينتبهوا الى ان الغرب الذي يسبحون بحمده هو نفسه ضائق بنفسه وباسلوب حياته ذرعا وهو قلق يبحث عن سبيل للخلاص وقد شرع السنوات الاخيرة يرنو ببصره الى الاسلام يبحث فيه عن أمن الضمير والمجتمع والمنقذ الحضاري المنشود فهل يكون بنو قومنا غربيين اكثر من الغرب .

وهل عجبا بعد ذلك ان نرفض اعتماد اسلوب المقارنة في الحكم على منجزاتنا ونلح بدل ذلك على المنهج السديد في الحكم على منجزات شعب من الشعوب القاضي بأن تلك المنجزات انما تقاس الى امكانياته وطموحاته وبهذا المقياس نقول بكل تجرد وأسى ان انجازاتنا ضئيلة جدا بالقياس الى امكاناتنا الهائلة وطموحاتنا الكبيرة ... ان نكون خير امة أخرجت للناس ...

الهجوم على أفغانستان
بداية النهاية
لمرحلة استعمارية أخرى

- ☐ موجبات الاستعمار الغربي.
- ☐ فيتنام وأفغانستان.
- ☐ موقف الدول الاسلامية

« الأمان » ع ٥٤ س ٢ ـ ١٥/٢/٨٠

الهجوم على افغانستان بداية النهاية لمرحلة استعمارية اخرى

في اساس كل حضارة تكمن مجموعة من الافكار الموجهة لسلوك الفرد والجماعة ، والتي تطبع تلك الحضارة بطابع خاص . وان من اهم الافكار الموجهة لحضارة الغرب فكرة السيطرة على الطبيعة بواسطة العلم . والسيطرة على الانسان بواسطة التقنية ، والسيطرة على الشعوب المستضعفة بواسطة القوة العسكرية والاقتصادية . وليس الاستعمار ـ القديم والحديث ـ الا ثمرة من ثمار فكرة السيطرة في حضارة الانسان الغربي ، فالاستعمار اذن هو سلوك حتمي لحضارة تعبد القوة والرفاه واللذة وتكفر بكل القيم الانسانية .

موجات الاستعمار الغربي

ولقد تتابعت في تاريخ الغرب الحديث حتى الآن ثلاث موجات استعمارية :

الموجة الاولى : سجلت نهايتها بالحرب العالمية الثانية او بعدها بقليل ، حيث تفككت القوى الاستعمارية القديمة وشاخت بعد ان تمردت عليها الشعوب ، وأخص بالذكر هنا الاستعمار الفرنسي والانكليزي والايطالي والاسباني والهولندي ، وبذلك فقدت هذه البلدان الاستعمارية نفوذها المعنوي الذي كانت تستمده من ترديدها لشعارات الحرية والاخوة والمساواة ، وتوارت عن مراكز القيادة العالمية لتترك المكان فسيحا لقوة استعمارية جديدة .، ولمرحلة استعمارية جديدة .

المرحلة الثانية : مرحلة الاستعمار الامريكي ، فلقد حلت الولايات المتحدة بشكل او بآخر محل الاستعمار القديم حاملة كغطاء معنوي لاستعمارها شعار حقوق الانسان ،

وبلغت هذه الموجة الاستعمارية ذروتها في حرب فيتنام ، وكان انتصار الفيتناميين الرائع على الطغيان الامريكي انتصارا للحق على الباطل وللحرية على السلاح ، وأخذت الولايات المتحدة الاميركية وهي تجر أذيال الخيبة طريقها الى الانكماش والزوال بزوال اشعاعها المعنوي وارتباطها في اذهان الناس بالظلم والعدوان والاستغلال . واستطاعت الشيوعية ، وهي شكل آخر من اشكال الفكر الغربي ، ممثلة في الدولة الروسية ان تحقق انتصارات كبيرة على حساب الاميركان ، فحلت في اكثر من موقع في العالم محلها ، تتقدم جيوشها واعاناتها الموجهة موجة قوية من الدعاية المغرية التي تبرز الاتحاد السوفياتي في نظر الشعوب المستضعفة والشباب الثائر على اوضاعه الفاسدة في كل مكان .. تبرزه نصيرا للحرية والعدل ، حليفا لثورات التحرر ، عدوا ألد للقوى الاستعمارية ومصالحها ، ولكن لم تستطع الشيوعية ، وهي ذاتها فكرة غربية ، ان تحرر الروس من نزعاتهم التوسعية الموروثة عن القيصرية ، فانطلقت جيوشهم وجيوش عملائهم تكتسح بالقوة والجبروت بلدانا كثيرة في افريقيا وآسيا واميركا اللاتينية ، وتطيح بالحكام الوطنيين وتنصب عملاء لها على رأس الحكم وتتولى حمايتهم من شعوبهم الثائرة ، حدث هذا في اكثر من موقع في العالم ، في انغولا واثيوبيا ، واليمن الجنوبي ، كما حدث قبل ذلك في بولونيا والمجر وفنلندا وتشيكوسلوفاكيا ، وبلغت هذه الموجة الاستعمارية الروسية ذروتها في الهجوم على افغانستان المسلمة والاطاحة بالحكم القائم فيها ، واكتساح ترابها بجيش جرار يقارب ١٠٠ الف جندي مجهزين بأحدث وسائل التدمير لمقاومة الابطال المسلمين المجاهدين اللائذين بالجبال دفاعا عن وطنهم ودينهم وانسانيتهم ، فهل ستتمكن هذه الموجة الاستعمارية الجديدة من الثبات امام صخور المقاومة الافغانية ، هل سيقدر باطل الشيوعيين ان يقهر حق المجاهدين المسلمين في افغانستان ؟ ام أن مصير الاستعمار واحد مهما تعددت الشعارات التي يحملها لتبرير سيطرته ؟

فيتنام وافغانستان

انه رغم الفوارق الشاسعة بين الوضع الفيتنامي والوضع الافغاني ، الامر الذي جعل بعض المعلقين السياسيين كاندريه فونتان يستبعدون ان يحصل لروسيا في افغانستان ما حدث لاميركا في الفيتنام ، فان النتيجة واحدة بالنسبة للصورة التي اصبحت تظهر بها كل من الدولتين في العالم ، لقد كشف الغزو الروسي لافغانستان عن الوجه الغربي العنصري للاتحاد السوفياتي المختفي وراء الشعارات الايديولوجية البراقة التي انخدعت بها شعوب العالم الثالث طويلا ، وبات اليوم من الصعب على الدعاية السوفياتية كما هو بالنسبة للدعاية الاميركية ان تدفع عن النظامين تهمة

الاستعمار تحت شعارات الليبرالية او تحت شعارات الماركسية ، وغدا مصطلح الامبريالية الاشتراكية الذي اطلقه الصينيون لوصف النظام الروسي مصطلحا مقبولا جدا .

وكما زلزل الصمود الفيتنامي بنية الرأسمالية الاميركية وكشف عن طبيعتها الاستعمارية فان الصمود الاسلامي في افغانستان سيزلزل بنية المجتمع السوفياتي رغم الدور المضلل الذي يقوم به الاعلام السوفياتي واخفائه للحقائق حتى عن شعوبه ، ولكن أنى للاعلام ان ينجح في اخفاء الحقائق الساطعة ؟! ان آلافا من الجنود والضباط الروس قتلوا على الساحة الافغانية وسيتبعهم اخرون فكيف يقدر الاعلام السوفياتي ان يخفي ذلك عن اهاليهم ومواطنيهم ؟ كما ان نفقات الحروب التي تشنها روسيا في عدة جهات ستؤثر حتما على اقتصادياتها .. أضف الى ذلك ان التركيبة السكانية للاتحاد السوفياتي ستتأثر حتما بالحرب الافغانية ، ذلك ان اقلية اسلامية متنامية بسرعة تكاد تشكل ثلث سكان الاتحاد السوفياتي ، ويقدر ان تبلغ النصف او تتجاوزه في منتهى هذا القرن .. ستتأثر بهاته الحرب ، خاصة وان هؤلاء المسلمين من نفس جنس المسلمين الافغان ، فالى متى سينجح الاتحاد السوفياتي في كبت المشاعر الاسلامية المتنامية ، والمسلمون يرون باعينهم دماء اخوانهم تنزف على الحدود ، بل انه منذ بداية هذه الحرب الاستعمارية طفحت مشاعر النقمة لدى المسلمين الذين يشكلون جزءا كبيرا من الجيش الروسي الغازي . فلقد نقلت الانباء ان عددا من الجنود السوفيات المسلمين رفضوا اطلاق النار على اخوانهم من المسلمين الافغان ، وان عدد اخر من هؤلاء التحقوا بالثوار الافغانيين تاركين الجيش السوفياتي .

ان روسيا في تسليطها للمسلمين على المسلمين تعيد نفس الجريمة التي كان يرتكبها الجيش الفرنسي في تسليط المسلم السنغالي على اخيه التونسي أو المغربي او السوري ، ولكن الزمن غير الزمن ، فلقد استيقظ الاسلام ونهض ليصفي حسابه مع المستعمرين الجدد والقدامى ، بغض النظر عن الشعارات المزيفة التي يحملونها ، شعارات الحرية والاخوة والمساواة ، او شعارات حقوق الانسان ، او شعارات الاشتراكية ومجابهة الامبرالية ، معتبرا ان الغرب واحد ، حية رقطاء ايا كان لون الرأس الذي ترفعه ، فرنسيا او اميركيا او روسيا ، يجب قطعه لتخليص البشرية من السموم التي ينطوي عليها . واذا كان الطاغوت الاميركي كارتر قد ندد بالملحدين الروس في غزوهم لبلد اسلامي ، والح لورد كاريغتون ممثل العجوز الاستعماري الانكليزي على انه لا امل في ايقاف الزحف الشيوعي الا بالاسلام .. فان المسلمين اعرف الناس بجرائم الغرب بكل اشكاله القديمة والحديثة في حق الاسلام والانسانية عامة ، واذا كان الامام الخميني في

حربه للامبريالية الاميركية قد اطلق هذه الصيحة : « ليعلم الرئيس كارتر انه غدا ابغض حاكم في نظر الشعوب الاسلامية » ، فنحن اليوم نضيف : ليعلم اخوه بريجنيف انه قد عدا بعد غزوه لافغانستان مقترنا اسمه باسم الشيطان الاميركي ، يصب عليهما المسلمون لعناتهم آناء الليل واطراف النهار .

موقف الدول الاسلامية

لقد كان موقف الدول الاسلامية من الاكتساح الروسي لافغانستان محيرا لكل من يحكم على الامور من ظاهرها ذلك انه في الوقت الذي أبدى فيه الغرب سخطا كبيرا وان لم يتجاوز الكلام في الغالب على هذا الاكتساح الاستعماري لبلد مستقل، وقف العالم الاسلامي موقف المتفرج بل المؤيد أحيانا، ولم يستطع رئيس المؤتمر الاسلامي الذي تحرك ببطء ان يجمع من بين اصوات أربعين دولة اسلامية اكثر من عشرة اصوات مؤيدة لعقد دورة استثنائية لوزراء خارجية الدول الاسلامية لبحث هذه القضية، مع أن قانون المنظمة لا يسمح بعقد مثل هذا الاجتماع الا بطلب ثلثي الاعضاء، فلا مجال للحديث بعد ذلك عن قطع العلاقات الديبلوماسية او الاقتصادية مع الاتحاد السوفياتي او لقيام مظاهرات احتجاج تضامنا مع أخواننا الافغان واحتجاجا على ما يلاقونه من شراسة الاستعمار الروسي، ولا مجال بعد ذلك للتفكير في تنظيم حملات لجمع التبرعات والادوية والاغطية لاخواننا الافغان، فكل ذلك بعيد عن تصور الدول التي تحكم المسلمين .. فما سر ذلك ياترى؟ ماهي دلالة هذا الصمت المخزي الذي تقفه الدول التي تحكم المسلمين ؟

دلالته أولا:ان هذه الدول في غالبها، ان لم نقل كلها، تصورها للعلاقة بين الدين والسياسة تصور غربي، وفي هذا التصور لا مجال لتدخل الدين في تحديد المواقف السياسية، واذا كان للغرب مصالحه في التنديد بالغزو الروسي فما هي مصلحتنا نحن في ذلك؟ واذا صح ذلك فكيف تحافظ هذه الدول على صبغة «الاسلامية» في دساتيرها؟!

ودلالته ثانيا:أن هذه الدول لم تقم في الغالب ولم تحافظ على وجودها الا بتأييد ومباركة من الغرب في شكليه الرأسمالي والاشتراكي، وكله مقت للاسلام وعداء له، فكيف تورط هذه الدول نفسها في اعلان مواقف اسلامية في سياستها الخارجية، اليس ذلك من قبيل العار والفضيحة والبرهنة للغرب على أننا رغم عصريتنا وتطورنا لا يزال شيء من الاسلام يقبع في خبايا نفوسنا؟!

ودلالته ثالثا :أن هذه الدول لا تملك حرية اتخاذ القرار في سياستها وأنما تملى عليها مواقفها بشكل مباشر أو غير مباشر.

ودلالته رابعا:ان هذه الدول لا تمثل في سياساتها مشاعر شعوبها ومطامحها، ففي الوقت الذي تكاد أكبادنا تتفطر الما وتذوب أنفسنا كمدا على ما يلاقيه أخواننا المسلمون في أفغانستان من محن وآلام فتحرق أجسادهم بالنابالم الشيوعي وتدك بيوتهم بالمدافع الشيوعية وتنتهك حرماتهم من طرف الاستعمار الشيوعي .. تحتفل الدول التي تحكم المسلمين بالاعياد الوطنية وتتلهى بالتفاهات من الامور .. فهل يمكن الحديث عن الوطنية او الاسلام ازاء مثل هذه الحكومات السادرة في غيها تجاه آلام المسلمين ومآسيهم ؟! أنه مالم تلتحم السياسة بالدين في العالم الاسلامي، ومشاعر الحكام بآلام المحكومين، وتردم هذه الهوة الشاسعة بين الراعي والرعية، فانه لا أمل لهذه الامة في النهضة والتقدم والعز والسؤدد .. وسيبقى الغرب في شكله القديم أو الحديث ، في شكله الرأسمالي أو الشيوعي، يخنق البشرية ويستغلها ويمتص دماءها بواسطة تقنياته المتقدمة وأذنابه المنتشرين في كل مكان . ولكن الاسلام الذى جاهد لتصفية الاستعمار القديم لن يضع السلاح حتى يحرر البشرية من الاستعمار الحديث، وأن ثورة الاسلام في أيران وأفغانستان طلائع عالم جديد تسود فيه حضارة الانسان حضارة الاسلام على انقاض الاستعمار الفرنسي أو الانكليزي أو الاميركي أو الروسي. وليس على الشعوب الاسلامية والشعوب المستضعفة ألا أن تثبت. فالله مع المستضعفين ضد قوى الظلم والاستغلال، كيف لا وهو القائل : «ونريد أن نمنّ على الذين استضعفوا في الارض ونجعلهم ائمة ونجعلهم الوارثين».

العالم الاسلامي...
والاستعمار الحديث

- ☐ العالم الاسلامي ومرحلة الاستقلال.
- ☐ أي استقلال يمكن أن نتحدث عنه في العالم الاسلامي؟
- ☐ من الاستعمار المباشر إلى الاستعمار غير المباشر.

« الأمان » اللبنانية
العدد ٦٢ السنة ٢ بتاريخ ١١ ـ ٤ ـ ٨٠

العالم الاسلامي ... والاستعمار الحديث

ما فتىء الدور السياسي للاسلام في الصراعات الدولية يتأكد يوما بعد يوم وخاصة بعد انتصار الثورة الاسلامية الايرانية واندلاع الثورة الافغانية ، حتى ان مجلة كبيرة كمجلة «لوبوان» الفرنسية اعتبرت اهم رجل اثر في توجيه الاحداث في السنة المنصرمة هو النبي العربي محمد (صلى الله عليه وسلم) بل ان الدكتور ميشال هارت في بحثه عبر تاريخ البشرية كله عن الرجال الذين كان لهم الفضل في صناعة الاحداث وتحويل مجرى التاريخ احصى مائة عظيم لم يتردد في اعتبار النبي العربي على رأسهم جميعا .

وليس تأثير الاسلام في اتجاه التاريخ بالامر الجديد ، فلقد كان الاسلام منذ ان تشرفت البشرية باشراقة شمسه ثورة شاملة على الظلم والطغيان ودعوة ملحة الى المساواة والتحرر على جميع المستويات ، حتى انه ليتعذر كما يقول المؤرخ الاميركي بريفلوت ان نجد جانبا من جوانب الحضارة الحديثة لا تمت للاسلام بصلة واخصها المنهج العلمي نفسه .

ورغم النكبات المتوالية على الاسلام بداية من الانقلاب الاموي الذي اتجه بالدولة وجهة كسروية وأبعد الاسلام شيئا فشيئا عن التأثير في الحياة السياسية ليقصر تأثيره على النشاط الثقافي والتربوي والروحي ، وما نتج عن ذلك من انحراف لمفهوم الدولة ، وتوالي الانظمة الدكتاتورية التي ابعدت الجماهير عن ممارسة دورها السياسي ، وتوجيهها الى حياة اللهو والميوعة مع ابي نواس وبشار ، او الى حياة الزهد والشطح الصوفي بحثا عن نشوة روحية مع ابي العتاهية وابن الفارض والحلاج وابن عربي .. مما اصاب الحياة الاسلامية بالركود وهيأ المناخ الملائم للغزاة والمغول والصليبيين القدامى ثم الصليبيين الجدد مع بونابرت واخوانه من المستعمرين .. اؤلائك الذين ادركوا حق الادراك ما ينطوي عليه الاسلام من امكانات ثورية تحررية شاملة . فخططوا بدقة وعناية فائقة بعد ان وضعوا ايديهم على مقاليد الامور في العالم الاسلامي ولافراغ الاسلام من مضامينه الثورية عن طريق سيطرتهم على مراكز الدراسات والبرمجة

التربوية فنشّأوا جيلا من المسلمين لا يتصور الثورة الا مضافة الى فرنسا او ايطاليا او بريطانيا او روسيا او الصين اخيرا ، وربطوا في ذهنه ربطا محكما بين الاسلام وكل ما هو رجعي انحطاطي .

ورغم ما اصاب الاسلام من جراح الغزاة القدامى والمحدثين فما وهن منه عزم ولا فترت همته عن مقاومة الغزاة الذين فرضوا هيمنتهم على العالم الاسلامي ، يمتصون ثرواته ويئدون روحه ، فقامت الحركة الاصلاحية تنفض الغبار عن الاسلام وتزيل الرماد الذي اهيل على نيرانه المتأججة ، وكان من نتيجة ذلك ان دبت الحياة في كيان العملاق فتنادى المسلمون للجهاد ضد الكافر المغتصب ، وتسابقوا الى الشهادة ، حتى ادرك المستعمر كما يقول العجوز الاستعماري الجنرال ديغول في مذكراته تعليقا على الجهد الذي بذله لانقاذ فرنسا من تورطها الاستعماري محددا دوافعه : «**لقد ادركنا ان عملية الاستعمار غدت غير مربحة**» .. فانسحبت الجيوش الاستعمارية تباعا تجر اذيال الخيبة ، ولكن كما ينسحب الجراد تاركا وراءه فراخه .

العالم الاسلامي ومرحلة الاستقلال

انسحبت الجيوش الغازية واعلن عن قيام سلسلة من «الدول المستقلة» ، في العالم الاسلامي ، ولكن ما هي الاسس التي ستقوم عليها هذه الدول ؟ من اين ستستمد القيم والمثل التي سترسي على اسسها برامجها في التربية والثقافة والاقتصاد ؟ لم يكن امام النخبة المثقفة (وهي نخبة تربّت في حجر الاستعمار) من الوقت ولا من المؤهلات النفسية والثقافية ما يمكنها من البحث خارج الغرب عن نموذج بديل عن النموذج الغربي . وبحكم الميل الطبيعي الى السهولة والاعجاب بالغرب اندفعت النخبة المثقفة بكل حماس تحطم بقايا الحياة الاسلامية لتقيم على انقاضها نموذجا ليس اسلاميا بالتأكيد ، ولكنه ليس بالغربي ايضا ... انّ له من الغرب مظاهره : الازياء ، العمارة ، اللغة ، التنظيم الاداري .. انه انموذج يحاول محاكاة الغرب لا من موقع العزة والثقة بالنفس ، بل من موقع المركبات النفسية ، فجاء انموذجا شبيها بالمسوخ ، وما كان لهذا الانموذج المسيخ ان يورث الجيل الجديد مشاعر العزة ويملأ أفئدته بالمثل الكفيلة بدفعه الى العطاء وتجاوز الذات والتضحية ، وفي سبيل ماذا سيضحي هذا الجيل بعد ان تحطمت مثله وقيمه ، فما بقي له من هدف في الحياة غير الرفاه واللذة واللعب ؟

فلا عجب والحال هذه ان تمنى بالفشل مخططات التنمية في العالم الاسلامي ، بل ان يكون الفشل مآل كل معركة يخوضها هذا العالم ، لأنه يقاتل مسلوب الروح عديم

البواعث مقهور الارادة ، تطحنه الانظمة المستبدة ويذله الفقر والحرمان .

اي استقلال يمكن ان نتحدث عنه في العالم الاسلامي ؟

على المستوى الاقتصادي : لا يزال العالم الاسلامي موثقا بقوة الى المراكز المالية الكبرى ،تسلب ثرواته بأبخس الاثمان ، وتثقل كاهله أزمات الغرب ، فالغرب هو الذي يقيّم عملته ، وهو الذي يتوسط في كل عملية تجارية حتى بين بلدين اسلاميين ، ورغم الثروات الطائلة التي يملكها العالم الاسلامي لا يزال تابعا ذليلا للبنوك الدولية الكبرى وللشركات الغربية ، ولا يزال الحديث عن الدينار العربي او الاسلامي او السوق العربية او الاسلامية حديث حالم ، ولا يزال كل بلد اسلامي مربوطا تقريبا الى البلد الذي كان يستعمره وكأن ذلك يحدث بدافع الحنين اليه .

على المستوى السياسي : بعد قرابة نصف قرن من الاستقلال في العالم الاسلامي لا يزال هذا العالم ممزقا الى شظايا ، كلما تقدم الى الوحدة خطوة تراجع عنها خطوات . تتقاسمه المعسكرات الكبرى ، فمن منحاز الى شرق ومن منحاز الى غرب ، لا يجرؤ المسلم ان ينتصر لأخيه المسلم ولو بكلمة حتى يستأذن اسياده ، فان أذن له والا امتنع ، فلقد احست بالحرج كثير من الدول الاسلامية في تأييد افغانستان في معركتها مع المستعمر الروسي ، بل ان بعضها وقف في صف الغزاة الروس . وفي معركة الاسلام في ايران مع الامبريالية الاميركية لم تتردد بعض الدول الاسلامية في التصويت الى جانب القرار الاميركي بفرض حصار اقتصادي عالمي على بلد اسلامي هو ايران .

ان هذا الاستقلال السياسي لا يمكن ان نظفر له على اثر في غير الشعارات والرايات ، او في القطيعة الصارمة بين ابناء الامة الواحدة . ففي هذا النطاق هناك استقلال تام مقابل الارتباط التام بالغرب .

على المستوى الثقافي والتربوي : لا يزال النموذج الثقافي والتربوي الذي صاغه الغرب للانسان هو السائد في العالم الاسلامي ، فالفنون والآداب والازياء واشكال العمارة وتأثيث البيوت واعداد حفلات الافراح والاستقبال والمسرح والسينما وبرامج التعليم والاعلام بصفة عامة لا تزال تنطلق في عملها من اعتبار ان الغرب هو النموذج للمدنية ، وان الخروج عن اطاره تخلف ورجعية . ولا يزال الجدال قائما في كثير من البلدان حول التعريب ومدى قدرة اللغة العربية على استيعاب العلوم ، بل لم يتردد الوزير الاول التونسي في افتتاح اجتماع لمنظمة التربية والعلوم لجامعة الدول العربية من الالحاح على ضرورة تعلم العلوم باللغات الاجنبية .

على مستوى القانون والتشريع : رغم ان اغلب البلاد الاسلامية تحلي دساتيرها بالاسلام ، فان هذا الاعلان لا يلقى اليه بال عند الشروع في سن القوانين واللوائح التي تنظم سير العمل في مؤسسات الدولة ، بل ترى بيوت الدعارة والخمارات ودور القمار والمعاملات الربوية وعروض الرقص والتعري تفتح بترخيص من السلطات الرسمية ، ويتولى القانون واعوان السلطة حمايتها .

من الاستعمار المباشر الى الاستعمار غير المباشر :

فأي معنى بقي للاستقلال الذي يمكن ان نتحدث عنه في العالم الاسلامي ونقيم معالم الزينة للاحتفال به ؟ ان جلّ ما انتهت اليه حروب التحرير في العالم الاسلامي ان تحولت هذه البلدان من مرحلة الاستعمار المباشر الى مرحلة الاستعمار غير المباشر ، وهو اشد وأنكى ، لانه يضعف فينا روح المقاومة ويقذف بنا الى العيش على هامش الحياة نتخبط في عالم الاوهام .

يقظة الاسلام واستمرار حركة التحرير : غير ان الاسلام الذي استطاع ان يقهر جيوش الاستعمار فتنقلب صاغرة ، لم يلق بعد سلاحه ، انه لا يزال زاخرا بطاقات ثورية هائلة على كل صعيد .

وان ما شهدته ايران من ثورة تحررية شاملة ليس الا انطلاقة لمرحلة جديدة من كفاح الاسلام التحرري ضد قوى البغى والطغيان ، ولن تنتهي ثورته ما دام في الارض جبارون يذلون الانسان ويسرقون خبزه ويعتدون على كرامته .

ولئن استطاع الغرب ان ينمّي ثمار الحضارة الاسلامية ويفجّر من المادة طاقات هائلة ، فقد عجز ان يضعها في خدمة الانسان وتنمية كيانه المعنوي لفقدانه للرؤية الايديولوجية الشاملة التي تحيط الكيان الانساني من جميع جوانبه المادية والمعنوية ولا تضحي بجزء لحساب الآخر .

فهل من عجب ان تتجه الانظار وخاصة خلال السنوات الاخيرة ، الى الاسلام تبحث لديه عن رؤية حضارية شاملة تكفل تنمية كل طاقات الانسان وملكاته ، وتضع اطارا انسانيا للاجتماع البشري يحل في العلاقات البشرية التعاون محل الاستغلال والسيطرة ؟!

نحرر أنفسنا أولا : اننا لن نقدر ان نحرر العالم ما لم نحرر بلادنا من هيمنة القوى الاستعمارية الغربية والشرقية ، ونحقق استقلالنا الحقيقي كثمرة للثورة التحررية الشاملة التي اخذت تندلع في كل مكان من العالم الاسلامي ، معلنة حق الجماهير في العيش الكريم وفي تقرير مصيرها ، وتحطيم الطواغيت التي تذل الانسان وتعلن عن حضارة الانسان «حضارة الاسلام» : ثورة المستقبل .

التغريب وحتمية الديكتاتورية

- ظاهرة التغريب.
- العنف أو الديكتاتورية.
- الثورة الايرانية والتطلع نحو عالم جديد.

التغريب وحتمية الديكتاتورية

المتأمل في النماذج السياسية السائدة في العالم الاسلامي والعربي بشكل خاص يلاحظ ظاهرتين متلازمتين بارزتين، تمثلان قاسما مشتركا بين كل هذه النماذج السائدة على اختلافها.

الأولى: ظاهرة التغريب: فكل هذه النماذج تستوحي مثلها الثقافية والاقتصادية والاجتماعية عامة من الغرب في شكله الرأسمالي أو الاشتراكي، اذا صرفنا النظر عن تطلعات الايرانيين الى نموذج جديد، فما عدا ذلك تعتبر أوروبا لدى الجميع هي النموذج المحتذى للتقدم والحضارة، حتى أن الهدف من كل برنامج ثقافي أو أقتصادي للتنمية هو بحسب العبارة المكررة عندنا: اللحاق بركب الامم المتقدمة، والنسخ على منوالها في ثقافتها وتنظيماتها الادارية وعمارتها وأزيائها، واعتبار أن التقدم يقاس بمستوى الانتاج والانتاجية والدخل الفردي، الخ.

النخبة المثقفة والتغريب: ومردّ هذه الظاهرة في العالم الاسلامي الى أن النخبة المثقفة التي قادت حركة التحرير من الاستعمار الاوروبي، وهي نخبة تربت غالبا في أحضان الغرب، لئن كانت عصرية الا أنها لم تكن مؤصلة، فما كان تصوّرها للاستعمار يتعدى وجوده العسكري السياسي الى كونه بناء فلسفيا ثقافيا حضاريا، بمعنى عام، وما كان تصوّرها للاسلام بالمقابل يتجاوز كونه تراثا حضاريا ومجموعة مبادىء اخلاقية روحية لا علاقة لها بالبناء الاجتماعي ان لم تكن سبب ارباك له. فما كان تصورها يرقى الى اعتباره هو أيضا بناء عقائديا وحضاريا شاملا، اذ ان الاسلام الذي نشأت في ظله تلك النخبة كان الانحطاط لا يزال يطمس معالمه الحضارية. ورغم أن الاسلام كان هو وقود الثورة ضد الاستعمار والمحرك الاساسي للجماهير الا أن جوانبه العاطفية كانت هي المسيطرة على الالباب، فكيف يمكن لهذا الاسلام العاطفي أو الروحي أن يمد القادة السياسيين بتصوّر لنموذج اجتماعي منبثق عن تصوراته العقائدية خاصة وأن الفكر الاسلامي لم يكن يومئذ قد تخلص من قيود الانحطاط وبدأ انطلاقته. فلا عجب والحال هذه أن تكون اوروبا بعد جلاء جيوشها عن العالم الاسلامي هي المثال الاعلى الذي استوحى منه القادة اسلوب الحياة السائدة اليوم في العالم الاسلامي، وهو أسلوب لا يمكن وصفه بأنه

غربي لانه ليس كذلك . هو بالتأكيد ليس اسلاميا لان صانعيه لا هم بالمؤصلين اسلاميا ولا هم بالغربيين لانهم مقلدون والمقلد لا يكون أصيلا، انه نموذج يشبه المسوخ في عالم البيولوجيا.

الظاهرة الثانية: العنف أو الديكتاتورية:ولان هذه النماذج السائدة في العالم الاسلامي مستوحاة من الغرب عن طريق النخبة المثقفة فقد ظلت بناء فوقيا لم يستطع أن يتغلغل في أعماق الجماهير التي ظلت مشدودة الى الاسلام ونماذجه الاجتماعية التاريخية وفقدت ما كانت عليه من حماس فياض ابان الكفاح ضد الاستعمار وبدأ شعور المرارة وخيبة الامل والاغتراب يسيطر عليها وهي تجد نفسها في وسط اجتماعي كل ما فيه غريب عنها .. فنونه وآدابه واشكاله المعمارية وتنظيماته الادارية وحتى لغته في بعض الاحيان، وأزياؤه، فكان طبيعيا جدا أن تمنى بالفشل كل مخططات النهضة في العالم الاسلامي : اقتصادية، عسكرية، الخ. بدليل أنه لا يوجد بلد أسلامي واحد حتى الآن يمكن ادراجه ضمن قائمة الدول المتقدمة، وكيف لا تمنى بالفشل برامج تتجاهل ثقافة الجماهير بل تعاديها في أحيان كثيرة، مما يدفع تلك الجماهير الى حالة قاسية من اليأس والفتور واللامبالاة والانصراف الى التافه والعاجل من الاهتمامات والاستعداد للانقياد وراء كل داع للثورة، فماذا يبقى أمام النخبة الغربية التي تقود لكي تحافظ على مراكزها ومصالحها وامتيازاتها ، بعد أن تنكرت لثقافتها الاصلية فغدت معزولة عن الجماهير ، الا أن تتنكر ايضا لثقافتها الغربية التي تقدس الحرية فتعمد الى أساليب القمع ومصادرة الحريات العامة وتركيز أجهزة قمعية عسكرية وبوليسية مدعومة بميليشيات لتحمي نفسها من الجماهير الثائرة ومنعها من ممارسة حقها في التنظيم السياسي وحرية الصحافة وكيف يمكن لها أن تسمح بذلك وهي على يقين من كونها نخبة منبتة عن الجماهير وثقافتها ومصالحها؟ انها مضطرة بحكم كونها نخبة غريبة عن الامة:

أ ـ أن تصادر الحريات العامة وتقيم نظاما قمعيا يحميها.

ب ـ أن تنشىء طبقة جديدة تتمتع بامتيازات تجعلها محظوظة ومرتبطة بالنظام القائم وتتمكن بواسطة تلك الامتيازات من انشاء مجتمعات صغيرة ترفل بكل ما طاب ولذ من حياة الغرب وفنونه ولهوه وزينته، مجتمعات تمارس فيها حتى طقوس الغرب الدينية كالاحتفال بأعياد الميلاد، انها كالجزر الصغيرة اللاهية وسط محيطات من الفقر والحرمان . ولان هذه النخبة السياسية والثقافية والاقتصادية تعيش معزولة عن الجماهير وآلامها وآمالها وروحها وفي خوف مستمر من ثورتها تراها تتهالك على اللذائذ وتغرق في الكؤوس على نغمات الموسيقى وأصوات الغنى وضجيج الرقص في حفلات ومهرجانات الغناء والرقص وما أكثرها في عالم الفاقة والحرمان. انها تفعل ذلك أملا في

نسيان الهاجس الذي يلاحقها: ثورة الجماهير. وحتى لا يحصل ذلك تعتمد على النخبة التى تحولت الى طبقة للسيطرة على مقاليد التوجيه الثقافي والتربوي والسياسي باذلة كل جهدها في اجتثاث الجماهير من أصولها الثقافية وفرض التغريب عليها، وتحمي هذه الديكتاتورية الثقافية السياسية الاقتصادية دكتاتوريةٌ عسكرية بوليسية.

ج - أن ترتبط هذه الانظمة النخبوية بمراكز القوى الدولية المالية والسياسية والعسكرية لحمايتها اقتصاديا وعسكريا مقابل صيانة الانموذج الغربي بعد رحيل الغرب والمحافظة على مصالحه في الابقاء على البلاد مصدرا ثريا لتزويد صناعته بالمواد الاولية بأبخس الاثمان وسوقا لبضائعه ومنتزها لسواحه أحيانا.

وحيثما قلّبت نظرك في العالم الاسلامي متصفحا الانظمة السائدة، وخاصة في العالم العربي تجد الارتباط الجذري الحتمي بين ظاهرتي التغريب والعنف والاستغلال حتى في النماذج الاشتراكية حيث نشأت طبقة جديدة، وذلك لأن التغريب، وهو اقتلاع أمة من جذورها هو بحد ذاته نوع من العنف وهو لا يستمر الا في حماية الديكتاتورية وهي ليست ديكتاتورية سياسية فحسب بل هي ديكتاتورية اقتصادية تتمثل في اغداق الامتيازات على الجهاز السياسي والثقافي والعسكري الذي يحمي التغريب ويشكل في الاخير طبقة.

نتيجة خطيرة:وهذا التحليل ينتهي بنا الى نتيجة خطيرة وهي ضرورة تجذير مطالب الجماهير السياسية والاجتماعية في الحرية والعدالة، لان الحرية وكذا العدالة انما نمت في اوزوبا في ظل ثقافة معينة ذات تصورات معينة للانسان والحياة والوجود ، فكيف يمكن في العالم الاسلامي أن نتحدث عن الحرية أو العدالة دون القيام بفحص دقيق لمكوناتنا الثقافية التي يمثل الاسلام محورها، نبحث فيها عن موقع هذه القيم في هذه الثقافة فيكون حديثنا من الحرية أو العدالة ليس من قبيل التلويح بالشعارات البراقة وانما بحثا عن أنموذج حضارى جديد ينبثق عن اسلامنا وعصرنا، لا أقصد اسلام الانحطاط، وانما الاسلام في صورته الاصلية، وهو ثورة شاملة ضد الاستبداد والاستغلال والتبعية في كل اشكالها ودعوة ملحة الى الترقي المعنوي والمادي حتى يقترن في وعي الجماهير أن النضال من أجل الاسلام هو نضال من أجل الحرية والعدالة والكرامة والتقدم وأن العكس صحيح أيضا.

الثورة الايرانية والتطلع نحو عالم جديد:وفي هذا الصدد تعتبر الثورة الايرانية على حداثة سنها بأبعادها الاجتماعية في الحاحها على حقوق المستضعفين في الحياة الكريمة والقضاء على الامتيازات، وأبعادها السياسية في الحرية، حيث تمكنت كل الاتجاهات السياسية والعقائدية من حقها الطبيعي في التعبير والتنظيم، وهو حق اعترف به الدستور

الاسلامى الايراني، تعتبر بذلك تطلعا الى عالم جديد ، الى حضارة اسلامية جديدة تنبثق مع مطلع القرن الخامس عشر مبشرة بنموذج جديد للاجتماع البشري يلتئم فيه ما فرقته حضارة الغرب من شمل القيم : الحرية، العدالة، التقدم المادي والانساني.

فهل من عجب أن تحاصَر هذه الثورة بكل عنف وخبث من القوى الدولية وامتداداتها في المنطقة العربية الاسلامية ويغدو الحديث عنها مثيرا للرعب في أفئدة الطغاة والنخبة المتغربة التي يوشك الخوف من عودة الاسلام أن يتحول عندها الى كابوس مضن يدفعها الى مزيد من القمع والديكتاتورية. ولكن العنف يولد العنف والنتيجة واضحة، وشاه ايران المخلوع الذي ضاقت به الارض شاهد ناطق.

الاسلام والعنف

- ☐ ماذا نفهم من الاسلام ؟
- ☐ مبررات الدعوة للاسلام في مجتمعنا
- ☐ منهاج الدعوة الى الاسلام
- ☐ مسألة الجهاد
- ☐ الاتجاه الاسلامي والعنف
- ☐ صمود ضد الاستدراج إلى العنف

« المستقبل » التونسية : ٢٣ ـ ٣ ـ ١٩٨١

الاسلام والعنف

مقدمة:

كثر الحديث في الفترة الاخيرة من تطور الاحداث في تونس عن «الاتجاه الاسلامي» ودوره فيما جد من حوادث عنف على الساحة الجامعية والتلمذية وحرصا منا على انارة الرأي العام وازالة لكل التباس وظن واثم، واخراجا للقضية من مجال المزايدات والتوظيف السياسي نحب لقرائنا الكرام ان يتابعوا بانتباه هذا المقال التوضيحي.

على اعتبار ان الاتجاه الاسلامي حركة تغيير شامل للواقع بالاسلام لبناء مجتمع اسلامي، فلا مناص لكي نحدد موقفه من قضية العنف ان نحدد نظرته للاسلام ولمنهاج التغيير كما مارسه الانبياء عليهم السلام، وللواقع الذي هو مجال هذا التغيير، ثم نتبع هذا الجانب النظري من الموضوع بتتبع تاريخي لهذا الاتجاه وواقعه.

ماذا نفهم من الاسلام ؟

ان الاسلام منهاج شامل للتحرر او هو ثورة تحررية شاملة. انه تحرير للبشرية من الطاغوت، طاغوت الشهوة والخرافات والاستبداد والاستغلال، وهو دعوة الى التوحيد وما ينتج عنه من معاني المساواة والعدل والاخوة والحرية وحب الحق. انه منهاج شامل للحياة يوجب على المؤمنين ليكونوا صادقين في ايمانهم ان ينظموا حياتهم الخاصة ويعملوا على تنظيم الحياة عامة وفق ارادة الله التي كانت دعوة النبي العربي محمد صلى الله عليه وسلم آخر واشمل تعبير عنها، والمتمثلة في القرآن والسنة.

مبررات الدعوة للاسلام في مجتمعنا

تنطلق هذه المبررات اساسا من التناقض الصارخ الذي يحس به المؤمن احساسا حادا بين الصورة المشرقة للاسلام التي تغمر كيانه وبين الواقع الآسن الغارق في الوحل، ميوعة وانحلالا وتغريبا ثقافيا وحيفا اجتماعيا واستبدادا سياسيا، وولاء لا لله ولرسوله وللمؤمنين وانما للاهواء والمصالح والعصبيات والقوى الدولية الشيطانية. باختصار ان المسلم غريب وان غربته في هذا المجتمع تزداد على قدر نمو معارفه الاسلامية وانعتاقه من الاستلاب الثقافي. ولان الاسلام يقتضي من معتنقيه ان يكونوا فعالين، ايجابيين، اصحاب رسالة، خلفاء لله في دعم قضية الحق والعدل والخير في العالم ومطاردة الظلم والكفر، كان لزاما على هؤلاء ان يجتمعوا على هذه الدعوة ويتفقوا على منهاج في تقويم انفسهم وواقعهم: فكان الاتجاه الاسلامي.

منهاج الدعوة الى الاسلام

واذا كان الاسلام ربانيا فمنهاج الدعوة اليه في مفهومه يترك للاجتهاد الشخصي وانما تولى الوحي والبيان النبوي تحديد ذلك المنهاج. ويتلخص هذا المنهاج في مرحلتين:

أ مرحلة بناء المجتمع المسلم او اعادة بنائه واصلاحه:

ومنهاج الدعوة في هذه المرحلة يتلخص في «البلاغ المبين والصبر الجميل» كما اوضحته عديد الآيات والمرحلة المكية من السيرة النبوية حيث كان النبي عليه الصلاة والسلام يصدع بالحق في ابطال العقائد والمفاهيم الخاطئة وما ارتبط بها من مظالم اجتماعية ومفاسد خلقية واستبداد سياسي، ويدعو الى عقائد الاسلام مبشرا بثمارها في سيادة العدل والمساواة والحرية والسعادة في الدارين متحملا بكل صبر ما يلقاه من اضطهاد من القوى المضادة لحركة التغيير، رافضا كل محاولة من اصحابه لرد العنف بالعنف، داعية اياهم لمواصلة الهجوم الفكري على رموز الجاهلية مع تحمل الاذى والآيات في ذلك كثيرة منها:

«ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي احسن»، «فاصدع بما تؤمر»، «لا اكراه في الدين»، «ان عليك الا البلاغ»، «فاصبر صبرا جميلا».

فكان حرص النبي وكل الانبياء شديدا على ان لا تلتبس دعوتهم في هذه المرحلة باي تهمة عنف او اكراه تكريسا لمبدأ حرية المعتقد، والرأي، وحرموا بذلك القوى المضادة من ان يقوموا باي ممارسة عنيفة تستغلها في التشهير بهم فتقيم حواجز بينهم وبين الرأي العام ووصمهم بالارهابية والتآمر، وكان امتناعهم عن مجابهة القوة بمثلها وهم قادرون على ذلك تفويتا للفرصة على الخصوم من ناحية وآية على صدقهم من ناحية اخرى اذ لا يصبر على البلاء والعذاب الا صاحب عقيدة.. فكانت مشاهد التعذيب المسلطة عليهم وهم صامدون في تحدي قوى البغي بمثابة المفجر للوعي الشعبي واقناعه بان وراء قوة السلاح والمال قوة اعظم هي قوة الايمان، فيتحول الرأي العام بدافع الاعجاب بالبطولة والثبات في وجه الطغيان وبما فطر عليه الانسان من كره للظلم الى متعاطف مع اولئك الدعاة ومع ما يؤمنون به، ناقم على مضطهديهم، مستهين بسلطان الجور امام قوة الحق... وبديهي ان صبر الدعاة على الاذى ليس دافعه استمالة الجماهير وانما انتظار الاجر من الله على الالتزام بنهجه.

لقد كان الانبياء حريصين ان تجرد دعوتهم من كل تهمة الا تهمة الايمان: «وما نقموا منهم الا ان يؤمنوا بالله العزيز الحميد». «اتقتلون رجلا ان يقول ربي الله».

وهي تهمة تحرج القوى المضادة للتغيير لان الجماهير ترفض بفطرتها اضطهاد صاحب المبدأ لمجرد ايمانه بمبدأ دعوته اليه ما تجنب استخدام القوة فاذا كانت هذه الجماهير اسلامية، ولو من غير وعي، كان ذلك من باب اولي، وعندها ترى القوى المضادة للاسلام ولو كانت ملحدة ـ تحرص على اظهار احترامها للاسلام، فكيف تضطهد الدعاة الى الله، انه لا بد من رميهم عندئذ بأيّة تهمة عدا انهم دعاة للاسلام، ومن ثم فكم تكون فرحة تلك القوى عظيمة بتورط الدعاة او بعضهم في ورطة العنف، وكم يكون ضرر الدعاة بدعوتهم فادحا.

فهكذا كان شأن الانبياء في منهاجم لانشاء المجتمع المسلم وهكذا يكون اعادة البناء كما اكد ذلك الامام مالك: «لا يصلح آخر هذه الامة الا بما صلح به اولها» وفي هذا الاطار تجد كثيرا من التوجيهات النبوية الداعية لتجنب استعمال العنف مع الحرص على الاصداع بكلمة الحق اذا فسدت احوال المجتمعات تجد تفسيرها لا على انها دعوة للاستكانة وانما هي دعوة الى تصحيح المفاهيم وتقويم الموازين مع التسلح بسلاح «الصبر الجميع» حتى يستعيد الشعب وعيه.

ب ـ مرحلة قيام المجتمع المسلم:

فاذا اثمر عمل التوعية الاسلامية استجابة الجماهير في قطاعها العريض لهذه

الدعوة، فرضيت بتحكيم الاسلام في حياتها، قامت للاسلام دولته وكان على تلك الدولة ان تنفذ حكم الله وتمارس مهامها في نشر العدل ومنع الظلم بين رعيتها.

مسألة الجهاد

وكثيرا ما ترد شبهة الجهاد عند الحديث عن انتشار الاسلام والدعوة اليه مما يوهم بان انتشار الاسلام وانتصاره لم يتم الا باستعمال القوة.

والحقيقة ان القوى المضادة للاسلام، لانسانيته وعدله ورحمته لم تستغل مبدأ في تشويه هذا الدين وصرف البشرية المضطهدة عنه كما فعلت ذلك مع مبدأ الجهاد، ولقد ساهم المسلمون في استقرار هذه الشبهة اما بعدم القيام بالبيان المبين من هذه المسألة او بقيامهم باعمال غير واعية وغير مسؤولة تتيح لخصومهم الفرصة في تصويرهم على انهم ارهابيون مع انهم في الواقع ضحايا الارهاب فكان يكفيهم ان يبينوا للناس معنى الجهاد وهدفه. فالجهاد هو بذل الجهد في نصرة الاسلام، فكل جهد لنصرة الاسلام في انفسنا او واقعنا يراد به وجه الله هو جهاد.

والجهاد يتنوع بحسب المرحلة التي تمر بها الدعوة الاسلامية، ففي مرحلة بناء المجتمع الاسلامي او اعادة بنائه ـ كما هو حالنا ـ لا يزيد الجهاد عن مجموعة الاعمال السلمية التي يقوم بها الدعاة من اجل تحقيق الاسلام في انفسهم وتوعية الجماهير بحقائقه وتنفيرهم من المفاهيم الخاطئة وما يرتبط بها من الوان الظلم والاستغلال، وتجميع صفوف المؤمنين وتربيتهم على التحرر من عبادة العباد لعبادة الله وحده وليس من عمل الدعاة هنا اقامة الحدود وحمل الناس على قوانين الاسلام طالما ان الناس لم يسلموا قيادهم للاسلام، فاذا رضيت الجماهير في قطاعها العريض تحكيم الاسلام فقامت للاسلام دولته، مارست تلك الدولة سيادتها ونفذت احكام الله فنشرت العدل ومنعت الظلم والاستغلال والفساد ولو بالقوة.

وعلى اعتبار ان الدولة الاسلامية تقوم على رسالة امنية كان عليها ان تعمل على نشر الاسلام عن طريق «البلاغ المبين» فاذا قامت في طريق الدعاة قوى طاغوتية تستبد بشعوبها وتحول بينها وبين ممارسة حرياتها ومنها حرية المعتقد كان على دولة الاسلام ان تزيح تلك الكيانات المستبدة ولو باستعمال القوة لا لغرض فرض الاسلام على تلك الشعوب وانما لتمكينها من فرصة التعرف على الاسلام فتقبله عن بيّنة او ترفضه عن بيّنة بدون اي اكراه، فهنا ينضاف الى معنى الجهاد معنى آخر هو القتال من اجل كسر

القوى المهيمنة في العالم وتمكين الشعوب من حق تقرير مصيرها بما فيه الموقف العقائدي.

لقد كانت حركة الجهاد بكل معانيه ثورة ضد الاستبداد والاستغلال ودفاعا عن مبدأ عظيم لم يعترف به العالم الا في هذا القرن هو مبدأ حرية المعتقد والدعوة اليه، ولقد عاشت في ظل الدولة الاسلامية شعوب شتّى ومذاهب شتى لم تحمل على التنكر لعقائدها او لغاتها...

الاتجاه الاسلامي والعنف

ان العمل الاسلامي منذ انطلاقته في بداية السبعينات الى يوم الناس هذا وهو يستوحي المنهج الاسلامي في الدعوة الى الاسلام اقتصر عمله على توعية الجماهير بحقائق الاسلام مفندا حجج الايديولوجيات المناقضة للاسلام ناقدا صور التدين الموروثة من عصر الانحطاط متوسلا الى ذلك بمختلف ادوات التثقيف والنشر المتاحة له.

ولقد اثمرت بفضل الله الجهود المتواضعة التي بذلتها الحركة فتنامى الاقبال على المساجد التي كانت قد اقفرت الا من عجوز مدنف. واشتد الاقبال على المنشورات الاسلامية، وسرت روح جديدة في مجتمعنا، فتسارعت حركة بناء المساجد في المؤسسات التربوية والادارات والاحياء والمدن، وتذكر التونسي بعد سنوات طويلة من الجدب ان له ربا واحدا هو الله ينبغي ان يعبده وحده وان له دينا يقتضي منه التزامات وتضحيات وليس مجرد النطق بكلمات وان دينه يمثل اقوم منهج لحياة البشر فما باله يهيم على وجهه في درب الحضارات والايديولوجيات يبحث عن ذاته، تذكر ان حاله:

كالعيس في البيداء يقتلها الظمأ والماء من فوق ظهورها محمول

فصحا وهاله ما عليه واقعه من تفلت وانبتات وميوعة وانحلال ومظالم شنيعة يأباها الدين الحنيف فانطلق الى مناهل الاسلام يرتوي من معينها والى شخصيته يعيد صياغتها والى مجتمعه يحاول تصحيح مساره المنحرف مبشرا بتعاليم «الدين الجديد» كما لو كان جديدا حقا.

وكان من الطبيعي ان تصطدم هذه الحركة التغييرية بمقاومة من المجتمع شأن كل مجتمع يدافع عن نفسه ضد كل تغيير ومقاومة اشد من طرف النظام شأن كل نظام يبحث عن الاستقرار والبقاء ومن طرف القوى الطامحة للتغيير ولكن في اتجاهات اخرى. ولقد استطاعت القوى الفاشية والرأسمالية من داخل النظام ان توظف اشعاعات الثورة

الايرانية وما حملته من رياح التغيير في العالم العربي والاسلامي، فكانت حملة الحزب وهو يعد لمؤتمره سنة ٧٩ ضد الحركة الاسلامية، تلك الحملة التي توجت اواخر ٧٩ بايقاف مجلتي الاتجاه «المعرفة» و«المجتمع» واعتقال عدد من وجوه العاملين للاسلام وايقاف نشاطهم المسجدي، ثم جاءت في بداية ٨٠ هزة قفصة فغيرت الموازين والممارسات والرجال والشعارات، ولكن الموقف المتوجس من تنامي التيار الاسلامي لم يتغير واستمر المسؤولون الجدد على تعطيل الاعلام الاسلامي بل اضافوا ضحية اخرى: جريدة «الحبيب» وسلسلة اعتقالات متتالية.

وكان من الطبيعي ان يتفاعل الاتجاه الاسلامي مع مرحلة التحولات وتفاقم الازمات التي يمر بها مجتمعنا وشعور الاضطهاد يتجذر عنده يوما بعد يوم.

فكان للاتجاه الاسلامي من موقعه المتنامي في القاعدة الشعبية المتضررة من المنهاج المتبع في تسيير البلاد مواقف معارضة.

صمود ضد الاستدراج الى العنف

ان الاسلاميين باعتبارهم جزء من القاعدة الشعبية المسحوقة يعانون مجموعة من التوترات والضغوط يشتركون مع غيرهم في مجموعة منها ويختصون في مجموعة اخرى تنطلق من احساسهم الحاد بالتناقض بين الصورة المشرقة للاسلام وبين الواقع المتردي بما فيه واقع التدين التقليدي الذي يمثل هو الآخر مصدر ضغط اضافي عليهم، فضلا عما يلاقيه الشاب المسلم من ضغط عائلي بسبب انتمائه لحركة معارضة متجذرة، فاذا خرج الى الشارع او الى المؤسسة وجد قمعا آخر في شكل سخرية به وبمظهره خاصة اذا كانت فتاة. ويصل الامر حد تسليط مختلف العقوبات كالزجر والطرد لا لشيء الا لان هذا العنصر يمثل سلوكه نموذجا يخالف النموذج المألوف، فاذا كان هذا القمع على مختلف المستويات يجد دعما ضمنيا او صريحا من قبل الاجهزة الرسمية وجد الشعور بالاضطهاد مجاله الواسع للتغلغل في شخصية المسلم الملتزم.

فاذا اضفنا الى هذا القمع الاجتماعي والسياسي الرسمي ما تمارسه بعض فصائل المعارضة بدافع الغيرة والحسد والخوف من تنامي الاتجاه الاسلامي، ما تمارسه من دس وايغار للصدور بل من عنف ضد كل منافسيها السياسيين الذين استطاعت باساليبها الارهابية ان تصفيهم تقريبا وتخرجهم من حلبة الصراع، حتى اذا جربت ذلك مع الاتجاه الاسلامي تصدى لها دفاعا عن الحرية في الجامعة وحق كل اتجاه في خدمة قضاياه والدفاع عنها والتعريف بها.

اذا وضعنا كل ذلك في الحساب ادركنا حجم التوترات التي تتفاعل في نفس كل تونسي وكل معارض بشكل خاص وفي صفوف الاتجاه الاسلامي بشكل أخص، والتي تفسر استعداد هذا الاتجاه بل كل اتجاه معارض بل القاعدة الشعبية عامة للعنف، لا ضد النظام فحسب بل حتى ضد بعضها بعضا.

ولكن السؤال الذي ينبغي ان يطرح هو: كيف استطاع اتجاه سياسي معبأ عقائديا تتسلط عليه كل هذه الضغوط ان يمسك زمام نفسه طوال هذه المدة فلم يتورط في اعمال العنف المتجددة والمتصاعدة في مجتمعنا، فما دفعت الجماهير من المساجد المكتظة يوما تحرق او تكسر او تضرب؟ الذي يفسر هذا الصمود في وجه العنف هو المنهاج الحركي الذي يؤمن به هذا الاتجاه والذي يتلخص في «البلاغ المبين والصبر الجميل» وهو يتناقض مع العنف اساسا تناقضا لا ظرفيا او مصلحيا فحسب بل مبدئيا ـ كما سلف ـ فضلا عن مردوده السيء على الحركة وتوفيره الفرصة لاعدائها ان يلوثوا المناخ السياسي والاجتماعي المهيأ لطرح مقولاتها ومبادئها في محاولة لاجهاض تطلعات الجماهير نحو الاسلام رائدا منقذا.. فالعنف فضلا عن كونه يتناقض مع مبادئنا ومناهجنا لا يخدم غير مصلحة اعدائنا، اعداء الانسانية. نحن نثق في الانسان وفي قدرة تفاعل هذا الدين مع طبيعته في جو من الحريات والصراع الديمقراطي. فماذا تجني حركة مثلنا من العنف غير الخسارة؟

ان رفض الاتجاه الاسلامي للعنف هو الذي يفسر المقاومة الشديدة التي ابدتها قواعده في الثانويات للتصدي لاعمال التخريب التي يغذيها شعور الفتيان بالحيرة والقلق وغموض المستقبل وديكتاتورية الادارة، كما تغذيها اطراف سياسية داخل النظام وخارجه تتبنى العنف منهاجا. ورغم ما اجتهد بعض الحاقدين ممن لا خلاق لهم في الباس الاتجاه الاسلامي لبوس العنف في الاحداث المدرسية الاخيرة، فاني اؤكد وسيكشف التاريخ ذلك، انه لو لا تصدي الاتجاه الاسلامي في المدارس لاعمال التخريب لما بقي شيء قابل للكسر او للحرق لم يكس ولم يحرق، ولو صدق رجال الادارة في المدارس لادّوا هذه الشهادة ولكشفوا المسؤولين الحقيقيين عن ظاهرة الفساد والتخريب الذي يؤمن المسلم انه من اعظم الاثم.

والاتجاه الاسلامي لم يتردد في ادانة اعمال العنف سواء تلك التي حصلت في المدارس او في الكليات او في المؤسسات **واذ ندين اعمال العنف والتخريب من موقع مبدئي وسيلة في معركة تحديد مصير تونس، فنحن نحمل المسؤولية الكبرى في ذلك لاختيارات النظام ثم لاولئك الذين ينظرون للعنف من داخل اجهزة الحكم ولسان حالهم «التونسي ما يمشي الا بالقوة» ولاجهزة القمع التي تسير بخطى حثيثة في**

طريق تقريب صورة السافاك لاذهان التونسيين ويقابلهم في صفوف المعارضة اولئك الذين يرفعون جهارا شعار العنف الثوري ضد ما اسموه بالرجعية، منادين «لا حرية للرجعية» اولئك الذين يشكل العنف القاعدة الاساسية في منهاجهم للسيطرة على البلاد والعباد.

ونحن اذ نبين هذه الحقائق لا نفعل ذلك من موقع الكيد لاحد او الخوف من احد، فنحن قوم لانفتأ نروض انفسنا على العمل من منطلق الايمان انه «لن يصيبنا الا ما كتب الله لنا». وانما ذلك جزء من واجب البلاغ الذي نقوم به ليتحمل الجميع مسؤوليتهم عن وعي. ونحن نذكر في الاخير بما اكده المفكر الاسلامي جودة سعيد باننا «نريد ان نساهم في بناء مجتمع جديد لا تشيع فيه رائحة الدم والتلمظ للثأر ومضغ روح الانتقام والعدوان».

الفكر الاسلامي
بين المثالية والواقع

- ☐ قصور الحركة الاسلامية.
- ☐ نتائج العقلية المثالية.
- ☐ المنهج القرآني.

صحيفة الوحدة التونسية
٢٩ ـ ٥ ـ ٨٢ و ٥ ـ ٦ ـ ٨٢

الفِكـر الاسْلامـي
بيْن المثالية والواقعية

المتأمل في تجربة **الحركة الاسلامية** المعاصرة في **المشرق** خلال نصف القرن الاخير **وبالمغرب** خلال السنوات العشر المنصرمة يستطيع بكل يسر ان يلمس مدى تاثيرها في توجيه المجتمعات الاسلامية نحو تعاليم الاسلام ولفت نظرها الى ما في هذه التعاليم من خير وصلاح وقوة وعدل ومنطق وتفوق على سائر المناهج والمذاهب والفلسفات... ولقد كان لهذا التاثير الدور الفعال في تحرير عقول المسلمين وارواحهم من تراث عصر الانحطاط وانحرافاته في التعبد والاعتقاد والسلوك وفي **تحريرهم في نفس الوقت من بعض الاثار المدمرة للغزو الفكري والروحي للحضارة الغربية** ذلك الغزو الشرس الذي أوشك ان يحدث قطيعة تامة بين امتنا وماضيها وعقائدها ويعصف بعزتها ويذيب كيانها في بوتقته لو لا ان تدارك الله الامة برجال أفذاذ جاهدوا جهادا كبيرا لرد الغارة الشرسة على العالم الاسلامي أمثال: **الشيخ رشيد رضا وحسن البنا وسيد قطب وابي الاعلى المودودي ومالك بن نبي** رضي الله عنهم. فاستطاعوا على قلة وسائلهم أن يتصدوا للهجمة الغربية الفكرية التى صاحبت واعقبت الهجمة العسكرية وان **يعيدوا للاسلام اعتباره** لدى قطاع واسع من هـذا الجيل ويكشفـوا زيف حضارة الغـرب وخواء مضـامينها من الانسانية رغم تفوقها التقني وهابوا بالامة الى ضـرورة الاعتصام بـالاسلام عقيـدة وشريعة وثقافة ومنهاجا للحياة وايديولوجية حضارية تحرّ رِيّة. وبضرورة وعيها بدورها الرسالي في العالم **وان مقامها فيه مقام الامر والنهي لا التبعية والذيليّة «كنتم خير امة اخرجت للناس تامرون بالمعروف وتنهون عن المنكر»** وهي مدعوة اليوم في عالم الضياع والاستغلال والجور الى تحمل مسؤوليتها في انقاذ العالم مما يعانيه من اغتراب وظلم وتدمير تحت قيادة الغرب بجميع اوجهه الرأسمالية والاشتراكية... فلقد انكشف زيف هذه الحضارة وشعاراتها المضللة في الحرية والمساواة **وظهر واضحا فشلها رغم ضخامة وسائلها في تحقيق علاقات انسانية تحكمهـا مبادىء العـدل والمساواة**

والحق وغدت حياة الادغال أرحم بالانسان من الحياة في ظل مدنية الغرب .. فلا بد لهذه الامة من تحمل مسؤوليتها امام الله في الشهادة على الناس باظهار ما في دعوة الاسلام من حق وعدل ورحمة وما تتضمنه هذه الحضارة من زيف وخواء وتدمير للانسانية وللعلاقات البشرية ثم يبذل اقصى الجهد الواعي المنظم **لاستئناف الحياة الاسلامية** والعودة بالانسان الى ذاته، الى فطرته، الى الطبيعة التي فطره الله عليها والتي لن تجد تعبيرها الكامل في غير هذا الدين لانه ينحدر واياها من مشكاة واحدة فالذي خلق الانسان هو الذي أنزل القرآن «**فاقم وجهك للدين حنيفا، فطرة الله التي فطر الناس عليها، لا تبديل لخلـــــق الله ذلك الدين القيم ولكن اكثر الناس لا يعلمون**» (٣٠ ـ الروم). انه لا تبرأ ذمة هذه الامة امام ربها ثم امام البشرية قاطبة حتى تبذل أقصى الجهد للشهادة على الناس باقامة نظام الفطرة الذي فطر الله عليه الناس، نظام الخلافة الاسلامية (الخلافة العالمية) على اساس التوحيد والعدل.

قصور الحركة الاسلامية:

والحركة الاسلامية ولئن حققت انجازات عظيمة في محاولتها تحرير الامة من تراث الانحطاط وآثار الغزو الغربي المدمر فقد ظلت بعيدة عن تحقيق هذا الهدف (اقامة شرع الله في الارض) اذا **استثنينا التجربة الايرانية** الجديرة بكل تقدير **رغم ما شابها ولا يزال من ارتباك**. ورغم الظروف العدائية المحيطة بالحركة الاسلامية التي يوقد نيرانها الغرب وعملاؤه في المنطقة **ومن طرف الاجهزة الدينية التقليدية التي لم تقدر بعد على مغادرة مواقع الانحطاط** وتفهم منطلقات الحركة الاسلامية واهدافها السامية، فان المسؤولية الكبرى في قصور الحركة الاسلامية عن ادراك غايتها في تحقيق طموح الامة في معانقة ذاتها والالتحام بدينها وتاريخها يعود الى أسباب داخلية للحركة الاسلامية الى بنيتها الذاتية... انها تعود أساسا الى نمط التفكير السائد داخل هذه الحركة والذي لا يزال رغم المحاولات المتكررة ونجاحه الجزئي مشبعا بمثالية عصر الانحطاط لا يصل بالواقع الا من خلال نصوص تجمد فهمها على ضوء مقولات ومفاهيم **تبلورت في عصور أقل ما يقال فيها انها تختلف الى حد كبير عن عصرنا**.. وفي ظروف تكاد تكون مباينة تماما لظروفنا .. فغدا المسلم بهذه العقلية المثالية مصابا بما يشبه العطالة في فهم واقعه واستيعاب تطوراته والقوى المحركة لذلك الواقع والطاقات المختزنة فيه فكان من الطبيعي ان يعجز عن تفجير تلك الطاقات والتعامل مع تلك القوى وتحديد سياسته للتعامل معها وتسخيرها ونكتفي للتدليل عن عجز المسلم في استيعاب واقعه المتطور وما يحتويه من طاقات وفشله في تسخير تلك الطاقات ايراد الامثلة التالية:

مثال أول: القوى العاملة أو الطبقة العاملة:

فهذه الفئة التي غدت تمثل مشكلا ضخما لكثير من الانظمة الراسمالية وحتى الاشتراكية وتتحكم في مصائر الانظمة والسياسات ظل الاسلاميون بعيدين عن التاثير فيها وتسخيرها تاركين المجال فسيحا لاصحاب الايديولوجيات اليمينية أو اليسارية خاصة للتحكم في هذا القطاع عن طريق تبني مشكلاته والدفاع عنه. ويعود سبب ضعف تاثير الاسلاميين في هذا القطاع الى عدم وعيهم بمشكلاته ذات الطبيعة الاجتماعية السياسية قبل ان تكون عقائدية اخلاقية... فأنّى للاسلاميين ان يتفاعلوا مع هذا القطاع وهم يكتفون في تناول كل المشكلات بالطرح العقائدي الاخلاقي ولا يتركون للقضية الاجتماعية غير مجال ضيق يكتفون فيه بترديد شعارات العدالة الاجتماعية دون تحديد لمضامين هذا الشعار... **فكان من الطبيعي ان تكون الاستجابة لنداءاتهم وسط العمال محدودة لانهم يطرحون عليهم مشكلات غير مشكلاتهم** .. فلقد تطورت مشكلات المجتمعات وهم لا يتطورون فكانهم ينادون الناس من مكان بعيد .

ومثال ثان : القطاع النسائي

.. وتاثير هذا القطاع على مصير المجتمعات لا تخفى أهميته، فيكفي ان نعلم ان نصف المجتمع على الاقل نساء والنصف الآخر يتربى بين احضانهن، لندرك الاهمية القصوى لهذا القطاع الذي ظل تفاعل الاسلاميين معه محدودالنفس السبب وهو عدم الوعي بما لاقته وتلاقيه النساء خلال قرون الانحطاط الطويلة من مهانات ومظالم وتضييق لآفاقها الانسانية ولدورها في الحياة والحضارة، وطمس لشخصيتها وتحويلها الى شيء الى متاع.. كل ذلك باسم الاسلام والاسلام من ذلك براء.. حتى اذا جاء الغزو الغربي يجرف في تياره المدمر الاخضر واليابس من قيمنا مطيحا بكياننا الاجتماعي حاملا قيما خُلُبًا: قيم الحرية والمساواة، كان من الطبيعي ان يكون تفاعل المراة وهي ترزح تحت اشكال شتى من المظالم ـ مع مغريات الغرب وكأنّ تلك المظالم كانت تجد مبررها في الاسلام، اسلام الزيف ، خاصة ازاء صمت « رجال الدين » عن تلك المظالم، وكان من الطبيعي أن تنطلق الثورة ضد تلك الاوضاع البالية من خارج الاسلام وان توجه المعركة ضده وان يرسخ في ذهن المراة ان الاسلام لا يعني بالنسبة اليها غير الحجاب وهذا يعني ملازمة البيت وإمتاع الرجل،فلا علم ولا حرية ولا مشاركة، في صنع المصير الوطني والانساني وبالتالي فلا سبيل للحرية والعلم واثبات الذات غير التمرد على الاسلام وآدابه كالحجاب ومحاكاة الغرب في حلوه ومرّه حتى اذا انطلقت الحركة الاسلامية وجدت نفسها امام **مجتمع مائع منحل فلم تر منه غير سطحه**: العري والتبرج والخروج من البيت والاختلاط فثارت ثائرتها ضد هذه المظاهر داعية الى العودة الى الاسلام تاركة انطباعا

واضحا عند المرأة أن العودة للاسلام لا تعني غير العودة الى أوضاع الانحطاط وضعية الحريم وذوبان الشخصية والحرمان من حقها في تقرير مصيرها .. فكان من الطبيعي أن لا يلاقي طرح الاسلاميين الاخلاقي لقضية المرأة عـــلى انها قضية عري وتبـرج واختلاط وعمل خارج البيت غير الرفض واللامبالاة بل المقـاومة والانحيـاز الى صف خصوم الدعوة الاسلامية ممن عزفوا ولا زالوا على أوتار «تحرير المرأة».. وهو شعار صحيح شريطة تحديد مضمونه تحديدا صحيحا.

ان الطرح الاجتماعي الفلسفي لقضية المرأة ينتهي الى ان قضية المراة ابعد من ان تكون قضية تبرج وعري واختلاط انها قضية **اغتراب** وظلم واستعباد انها قضيـة انسان سلبه الانحطاط المغلّف بالدين انسانيته وحقه في تقرير مصيره وحوله الى شيء ، الى متاع. وجاء الغرب بفلسفته المادية يزعم تحريره فما زاده الا استعبادا وكل الذي فعله انه حول مواقع الاستعباد فبعد ان كانت المرأة مستعبدة لرجل أو لاسرة غدت في ظل فلسفـة المادة والـربح ... مستعبـدة للمؤسسات الكبـرى الرأسمـالية والاعـلاميـة والسياسية... تتاجر بجسدها فتجعل منه دمية جميلة تُزيَّن بها واجهات المحلات واداة للاشهار وترويج البضائع والدعاية لرجال السياسة. فما أحوج المرأة لحركة تحررّ تعيدها الى ذاتها الى فطرتها كأمينة على تراث الانسانية ورفيقة جهاد للرجل . تحرر نفسهـا والرجل عبر حركة الجهاد وضد قوى الظلم والاستغلال في العالم تحرر نفسها من كل سلطان وتبعية الا لله ربها...

مثال ثالث: الطاقة الجمالية

ان الاحساس الجمالي من أهم خصائص الانسان ويعبر الانسان عن هذا الاحساس بطرق مختلفة اصطلح على تسميتها بالفنون الجميلة.. صوتا كانت او صورة اولونا.. ومع تطور وسائل التقنية وتعددّ المشكلات الانسانية وشعور الانسان بالمأساة في هذا العصر وتطاحن الايدلوجيات احتلت الفنون الجميلة أهمية بالغـة على الصعيـد الاقتصادي كمصدر أساسي لجني المال وعلى الصعيد الفكري والعقائدي السياسي كخير اداة للدعاية الحزبية والعقائدية لتحذير الجماهير أو لتوعيتها وتثويرها. ورغم الاهمية البالغة التي أولاها الاسلام للجمال بكل معانيه واعتباره صفة لله وسبيلا الى الايمان بالصانع المبدع وعبادته... **فان هذه الطاقة الكبرى لا تزال معطلة في الحركة الاسلامية**.. لا يُعنى بتربيتها عـلى اعتبار ان الاحسـاس الجمالي مقـوم اساسي من مقـومات الشخصيـة

الاسلامية ... بل لا تزال الحركة معرضة عن كثير من الفنون والآداب كالمسرح والسينما والرسم والغناء .. والتصوير، دون أي محاولة للتنظير وبيان الحد الفاصل بين ما يحلّ وما يحرم من الفنون، وتحريرها من مضامين الالحادية المائعة وتجذيرها في تراثنا وقيمنا حتى تغدو سبلا ومحاريب لعبادة الله وتنمية الاحساس الجمالي لدى الجماهير وهو قرين الايمان وتوعيتها بقضايا البؤساء والمستضعفين ودفعها الى الثورة ضد الظلم من منطق الايمان. فكم هي حاجة الدعوة الاسلامية ماسة الى روّاد عظماء يستوعبون التجربة الفنية المعاصرة، كل في ميدانه، ويعملون على ترويضها وتحريرها وتجذيرها وتسخيرها في ابداع فن اسلامي اصيل ومعاصر.. انه لا مناص من ذلك اذا أردنا لنور الاسلام ان يتسلل الى القلوب ينيرها ويحركها ويحررها مما ران عليها من غشاوة الجاهلية المعاصرة ويعبئها بقيم الاسلام التحريرية العظيمة لتتعالى على كافة الاهتمامات والاديولوجيات، تتصل بالله العدل القوي الرحيم تستمد منه سبحانه طاقات لا تنفد من أجل تحرير البشرية من سيطرة الغرب ومهاناته واقامة حضارة انسانية مستقبلية على اساس العدل والتوحيد. فيا له من عمل عظيم لو انه له رجال يقتحمون هذا العالم بفنونه وآدابه وعلومه ومؤسساته ويستوعبون ويعدّلون او ينقصون ويرسمون الطريق الى عالم جديد يفعلون ذلك بجرأة وايمان موسى لا مخدّر بني اسرائيل وجبنهم «**قالوا ياموسى ان فيها قوما جبارين وانا لن ندخلها حتى يخرجوا منها فان يخرجوا منها فانا داخلون**» فاجاب رجلان منهم : «**ادخلوا عليهم الباب فاذا دخلتموه فانكم غالبون**».

وفرق بين عقلية الاقتحام وعقلية الهروب

نتائج العقلية المثالية

والعقلية المثالية التي ينظر الاسلاميون من خلالها الى واقعهم هي احدى الاسباب الرئيسية المسؤولة عن عجزهم في استيعاب ذلك الواقع وطاقاته المتحركة وتوليد فكر اسلامي يقدم للمسلم وعيا صحيحا بذلك الواقع وقدرة على تسخير طاقاته لصالح مشروعه الاسلامي الحضاري .. تلك العقلية المنبتة عن الواقع هي المسؤولة عن الوضعية النخبوية التي آلت اليها كثير من الحركات الاسلامية فما عاد يلتفّ حولها غير مجموعات من المثقفين ثقافة متوسطة تظل معزولة عن واقع الجماهير لعدم استيعاب لمشكلات تلك الجماهير، وما تنجح في استقطابه من الجماهير تعجز عن توظيفه وتأطيره في مؤسسات المجتمع الثقافية والاجتماعية وتحويل تلك المؤسسات الى مواقع ضغط لصالح الاسلام. وبالتالي تظل القاعدة الاسلامية مهما كانت واسعة ضئيلة الفعالية والتأثير لان تكوينها الثقافي يعزلها عن وسطها ويحرمها من فهمه والقدرة على التعامل معه وتطويره

تدريجيا بأن تطرح مشكلات غير التي يحس بها الناس ويتألمون منها. والحركة الاسلامية في تونس ادراكا منها لطبيعة الاسلام الواقعية تجد نفسها مدفوعة الى ضرورة التخلص من الاطروحات المثالية للاسلام ولمنهج الدعوة اليه فاذا كان الاسلام صالحا لكل زمان ومكان فان هذا الاسلام الخالد لن يقدر على التعامل مع واقع معين والتأثير فيه واحداث الانقلاب المطلوب في مؤسساته وقيمه مالم يتفاعل معه ويولي اهتماما كبيرا لخصوصياته ومكوناته .. وقديما أكد فقهاؤنا على ان للعرف اعتباره كاصل من اصول التشريع.

المنهج القرآني..

ان القرآن الكريم،رغم طبيعته المتجاوزة للزمان والمكان،نستطيع من خلاله ان نستمد صورة واضحة عن حياة العرب في عصر النزول من حيث معتقداتهم ومشاكلهم. وكان هذا المنهج الواقعي للقرآن ضروريا حتى يتم التفاعل بينه وبين القوم الذين قدر الله ان تكون انطلاقة هذا الدين على أيديهم.. فهو اذ يخاطبهم لا ينطلق بهم من عموميات ومجردات وانما ينطلق من واقع جغرافي وسياسي واقتصادي وعقائدي وثقافي وتاريخي يعيشونه ويشاهدونه«**وانكم لتمرون عليهم مصبحين وبالليل افلا تعقلون**» **ثم يُقيم ذلك الواقع بعد وصفه بدقة فيناقش بالحجة البينة في الرفض أو التعديل ويقدم لهم البديل** وينتهي بهم من الحدث السياسي او العقائدي او الاجتماعي المحدد الى اقرار القواعد والقيم والقوانين الصالحة لكل زمان ومكان .. وذلك هو النهج العلمي التجريبي، المنهج الاستقرائي الذى ينطلق من الواقع في جزئياته لينتهي الى القانون الذى يفسر تلك الجزئيات ويكشف عن قانونها المنظم لها الرابط بينها..

هذا المنهج التجريبي القرآني تخلى عنه المسلمون بفعل عوامل كثيرة سياسية وثقافية واقتصادية واستبدلوه بالمنهج اليوناني التجريدي الذي ينطلق من المجردات والعموميات ليحاكم الواقع اليها وينظر اليه من خلاله.. وهذا المنهج لئن كان صالحا في دارسة العلوم النظرية كالرياضيات فقد كان ضرره بالغا في دراسة حوادث الطبيعة وظواهر النفس والمجتمع اذ فصل العقل عن الواقع.. وحول الثقافة الاسلامية الى ضروب من الجدل العقيم واحدث قطيعة خطيرة بين الواقع والعقل المسلم.

.. **ولكي تزداد يقينا بما اقول افتح مجلة من مجلات الدعوه الاسلامية ثم حاول من خلالها ان تتعرف على طبيعة البئة والظروف السياسية والاجتماعية للبلد الذي تصدر فيه.انك ربما تعجز عن معرفة حتى بلد الصدور اذا لم تستعن بقراءة العناوين**.. واذا حدثتك عن اطراف من الواقع فلن تتجاوز التنديد بالجوانب اللا أخلاقية في ذلك البلد كالعري والفساد ... واما القضايا التي تتألم منها

الجماهير في ذلك البلد كقضايا البطالة والسكن والاستغلال والاستبداد وسوء الخدمات الصحية والمواصلات ووضعية الطفولة والمرأة (عدا قضية العراء والسفور) فقد غدت من اختصاص الحركات اليسارية وغدا الحديث عنها في الادبيات الاسلامية هرتقة وانحرافا في المنهج..

انه ما لم يعد العقل المسلم الى واقعه يدرسه ويحلل أوضاعه ويتعرف على مشكلاته لا ليكون اسير ذلك الواقع وعبدا له يتخذه اماما وقائدا له يضغط على عقله وشعوره، ويدفعه الى اعتباره الاصل والاسلام تابعا، كلا، فهذا الدين جاء ليقود الحياة ويكون للبشرية اماما وللحق والباطل والخير والشر ميزانا بل ليتخذ من ذلك الواقع منطلقه في الدعوة فيقدم الاسلام على انه انفع واوفق حل لما يعيش في الواقع من مشكلات .. ان عقائد الاسلام وتعاليمه لن تقبلها الجماهير وتتحمس لها وتضحي من أجلها ما لم تربط بآمالها في حل مشكلاتها تلك العقائد والتعاليم: والا غدت دعوة الاسلام **تجذيفا في الصحراء وضربا للحديد وهو بارد** فما هناك بد للداعي الناجح من استيعاب مشكلات الواقع وتقديم الحجة القاطعة ان الاسلام هو المنهاج الاقوم للعلاج وتجسيد الآمال فلا بد اذا من ان يعيد الى الواقع ثقله في **الفكر الاسلامي** حتى يكون هذا الفكر الاسلامي واقعيا ولا يكون وليدا لتأملات مجردة في النصوص بل يكون **وليدا لتفاعل عميق بين الاسلام والواقع المعاش الذي تعمل فيه الدعوة** فيتولد من ذلك التفاعل فكر اسلامي مرتبط ببيئة معينة وظروف معينة، ولئن كان صالحا في التاثير في تلك البيئة وترشيد الدعوة الاسلامية فيها واحداث عملية التحول في اتجاه اقامة مجتمع ودولة الاسلام ، فليس ضروريا أن يكون صالحا اذا انتقل الى بيئة اخرى ، بل قد يساهم ،اذا لم تُجر عليه التعديلات الضرورية، في تعطيل سير الدعوة وتعتيم العقول واصابتها بالشلل ومن هذا المنطلق ترى الحركة الاسلامية في تونس ضرورة اعادة النظر في عدة منطلقات فكرية اسلامية عوملت في السبعينات على انها من قبيل المسلمات والبديهيات الاسلامية ليميّز ماهو اسلامي في ذاته فيُتلقى بالقبول وما هي مفهومات واجتهادات في فهم الاسلام ومنهاج العمل الاسلامي فرضت نفسها لسبب او لآخر على المسلمين ردحا من الزمن وعوملت على انها الاسلام وان الخروج عنها او المس بها هو اعتداء على الاسلام وهي في الحق ليست كذلك في جوانب كثيرة منها فما ينبغي ان ترقى لهذه الدرجة ايا كانت مكانة الرجال الذين صدرت عنهم. وثابت ان ذلك التفاعل ضروري بين الاسلام وواقعنا التونسي والمغربي لتوليد فكر اسلامي في تونس وعلى مستوى مغربنا حتى تكون لنا القدرة على فهم مشكلات هذا الواقع وتقديم الحلول الاسلامية الناجعة له وتفجير الطاقات وتوظيفها **لصالح انجاز المشروع الحضاري الاسلامي في هذه المنطقة .**

الفهرس

المقدمة 3
البيان التأسيسي لحركة الاتجاه الاسلامي 5
برامج الفلسفة وجيل الضياع 9
التطور = احتفاظ + تجاوز 15
الادب والاخلاق 27
من جديد نحن والغرب 39
دعوة الى الرشد 63
الثورة الايرانية ثورة اسلامية 75
قادة الحركة الاسلامية المعاصرة : البنا ـ المودودي ـ الخميني 85
العمل الاسلامي وقطاع الطرق 107
الحاجز النفسي اخر الحصون 119
التكوين العقائدي أولا 127
العقلية الفردية وأثرها في حياة العرب وواقعهم 135
بماذا تقاس منجزات شعب ؟ 145
الهجوم على افغانستان بداية النهاية لمرحلة استعمارية أخرى 151
العالم الاسلامي . . والاستعمار الحديث 159
التغريب وحتمية الديكتاتورية 165
الاسلام والعنف 171
الفكر الاسلامي بين المثالية والواقع 181
الفهرس 190

ان الحركة الاسلامية لئن حققت انجازات عظيمة في محاولتها تحرير الامة من تراث الانحطاط وآثار الغزو الغربي المدمر فقد ظلت بعيدة عن تحقيق هدف اقامة شرع الله في الارض. ورغم الظروف العدائية المحيطة بالحركة الاسلامية التى يوقد نيرانها الغرب وعملاؤه في المنطقة ومن طرف الاجهزة الدينية التقليدية التي لم تقدر بعد على مغادرة مواقع الانحطاط وتفهم منطلقات الحركة الاسلامية واهدافها السامية، فان المسؤولية الكبرى في قصور الحركة الاسلامية عن ادراك غايتها في تحقيق طموح الامة في معانقة ذاتها والالتحام بدينها وتاريخها يعود الى أسباب داخلية للحركة الاسلامية والى بئتها الذاتية... انها تعود أساسا الى نمط التفكير السائد داخل هذه الحركة والذي لا يزال رغم المحاولات المتكررة ونجاحه الجزئي مشبعا بمثالية عصر الانحطاط لا يصل بالواقع الا من خلال نصوص تجمد فهمها على ضوء مقولات ومفاهيم تبلورت في عصور أقل ما يقال فيها انها تختلف الى حدّ كبير عن عصرنا.. وفي ظروف تكاد تكون مباينة تماما لظروفنا.. فغدا المسلم بهذه العقلية المثالية مصابا بما يشبه العطالة في فهم واقعه واستيعاب تطوراته والقوى المحركة لذلك الواقع والطاقات المختزنة فيه فكان من الطبيعي ان يعجز عن تفجير تلك الطاقات والتعامل مع تلك القوى وتحديد سياسته للتعامل معها وتسخيرها.

راشد الغنوشي